

السيرة النبوية

محمد رسول الله
والذي معه

ابراهيم أبو الأنبياء

عبد الحميد مبرور السمار



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا
جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ
سَمَّاكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ
شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا
الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ
الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾ .

﴿ قرآن كريم ﴾

نهض آزر بعد أن تناول عشاءه ولبس عباءته ، فالتفت إليه زوجته إيمتالى وكانت شابة وضيقة وقالت له :

— أخرج في مثل هذه الساعة من الليل يا آزر ؟

فابتسم آزر وقال لها :

— ولن أعود قبل أن يشرق علينا ربنا شماش إله النور في أفقه الشرق .

فلاح في وجه الزوجة كدر وزوت ما بين حاجبيها ، فذهب إليها وقال لها

في رفق :

— تعلمين يا إيمتالى أن كبير الكهنة في بابل — تقدست روحه — بعث إلي

لأصنع تمثالا لإلهنا مردوخ في أثناء احتفالات العيد الأكبر ، وإني ذاهب إلى

أنى ناحور لينظر في النجوم ، وينبئنا بأفضل وقت للسفر ، وبما يحبه لنا

القدر .

ثم ضمها إليه وهو يقبلها :

— أفى أبرع من تعلم السحر والتنجيم في أور ، بل لا أظن أن في بابل نفسها

من يسمو إلى علمه .

فتشبث به وقالت في دلال :

— خذنى معك إلى بابل ، فأنا في شوق إلى الركوع في معبد مولانا مردوخ

العظيم .

فضحك آزر وهو يصوب نظره إلى بطنها المنتفخ وقال :

— في السنة القادمة يا حبيبتي، وأرجو ألا يكون في بطنك يومئذ ما يمنعك من

الركوع .

وذهبت إلى تمثال للإله كان زوجها قد فرغ من صنعه قبل أن يقوم ليتناول عشاءه ، وحمله بين يديها وعادت فوضعت أمامها في توقير ، وجاهدت لترقع ، إلا أنها أحست ألما ارتسخت آثاره على محياها ، فحف إليها أزر ولف ذراعه حولها في حنان وقال :

— لا جدوى من تعذيب نفسك فقد دنت أيام وضعك . ولن أستطيع أن أخذك معي .

فقال في أسى :

— كنت أرجو أن أقدم قربانا لرب الأرباب وإله الآلهة أجمعين .

— غدا إن شئت نذهب إلى المعبد ونقدم إلى إلهنا نانا ، إله القمر العظيم ، قربانا نتقرب به إليه .

— كنت أتمنى أن أقدم القربان إلى رب الأرباب مردوخ .

كان يؤمن في قرارة نفسه أن مردوخ هو سيد الآلهة جميعا ، وأن نانا هو إله مدينتهم أور وهو نفسه الإله سين إله القمر ، وأن ولديه شماش القاضي الأعظم إله الشمس ، وعشتار العطوف إلهة اللذة ، إن هي إلا آلهة فقدت كثيرا من سلطانها بعد أن انتصر عليها جميعا مردوخ ، إلا أنه رأى أن يطيب نفسها فقال لها مواسيا :

— إن نانا يمثل مردوخ هنا في بلادنا ، فإن قدمت إليه قربانا فكأنما قدمت قربانا إلى مردوخ العظيم .

فقال في نبرات تنم على أنها غلبت على أمرها :

— سأفعل ، بيد أني أرجو إذا ما وصلت إلى بابل أن تقدم إلى رب الأرباب

قربانا عني ، لعله يغفر لي سيئاتي ويبارك في عمري .

— أنا واثق أن حياتك كلها حسنات لا تشوبها شائبة من خطايا . أنت

بركة يا إيمتالى ، ولتطيلن الآلهة أيامك على الأرض .

وقادها في رفق إلى حيث كان فراشها وعاونها على أن تتمدد فيه ، ثم طفق يلثمها هنا وهناك في هيام ، فرنت إليه بعينها الواسعتين يشع منهما حب ورضا واستسلام وقالت :

— ظلمك أبوك إذ سماك آزر ، كيف يدعوك « النار » وأنت رقيق أرق من النسيم ؟ لعل نجومه خائنه يوم نظر فيها ليختار لك اسما .
فرفت بسمة عذبة على شفتي آزر وقال :

— ما خابت أبدا نظرة ألى في النجوم . أنا وديع يا حبيتي ما دمت إلى جوارك لأنك لا تحركين غضبي ؛ أما إذا ثرت فأنى أضطرم كالنار وألتهم كل ما يعترض سبيلي .

وانتصب قائما وقال لها :

— نامى يا حبيتي في رعاية البعول السادة الكرام آهتنا العظام .
ودار على عقبه وانطلق إلى الباب وفتحته ثم أغلقه في رفق وراءه . كانت الليلة حالكة السواد ، اختفت فيها جبال أور في الظلام ، وبدت السفن الراسية في الميناء كأنها أشباح ، وعكست صفحة الماء خيوطا واهنة من الضوء . وملأ السكون نفس آزر خشوعا فراح ينزل في الدرج الموصل إلى الطريق في تودة ، فقد بنيت بيوت أور فوق الروابي لتأمن غوائل الفيضان ، إذ تقع المدينة عند مصب النهرين العظيمين دجلة والفرات اللذين يجريان بالخيرات .

وأحس آزر أن روحه تتصل بروح الكون العظيم — وبرغبة جامحة في إقام الصلاة ، فرفع بصره إلى السماء ونظر في النجوم فألقى كوكب المشتري بازغا فاستشعر أمنا ، فألهمه مردوخ رب الأرباب برعاه ، فراح يتلو في حرارة وابتهاال وعيناه لا تحيدان عن المشتري سيد الآلهة جميعا :

— أى مردوخ العظيم ، أى رى ورب الآلهة جميعا ، لقد قضت حكمتك
 ألا تغمض عينك أبدا عن عبيدك ورعاياك ؛ فى النهار يكون عبيدك فى كنف
 شماش إله النور ، وفى الليل يرعاهم نانا إلهنا القمر العظيم ، وإذا غاب نانا ففى
 السماء الزهرة عشتار العطوف . إنها جميعا بأمرك تأتمر ، فإذا اختفت فى
 رحلتها الدائمة عن عيوننا ، وإذا ما عجزت بصائرنا عن أن تتركها ، تجلبت
 علينا بنورك لأنك أرف بنا من أن تترك دنيانا دون أن تتردد فى جنباتها الأنفاس
 الطاهرة ، أنفاس الآلهة الرحيمة بعبادها .

أى رى مردوخ ، إنى ذاهب إلى ناحور ، إلى من أسديت إليه النعمة
 الكبرى ، ورفعت عن عينيه الغطاء ليرى قيسا من أسرارك ويقرأ المسطور فى
 لوح قدرك ، لأستشيره فى أمر خروجى إلى معبدك المطهر فى بابل ؛ فأطلعه
 يا إلهى على ما خبأته لى فأنى تارك إيمتالى زوجتى العزيزة فى وقت هى فى أشد
 الحاجة إلى إكراما لوجهك . أى رى مردوخ ، تقبل دعائى وسدد خطاى
 واهدنى سواء السبيل ، ووقفنى لأن أصنع لك تمثالا يليق بعظمتك يوم عبيدك
 الكبير ، ترضى عنه ويرضى عنه ملكنا وإلهنا الممروذ ، ويرضى عنه الـ
 « أوريجاللو » كبير كهنتك ، ويرضى عنه الناس أجمعون .

وسار وهو لا يرفع عينيه عن كوكب المشتري رب الأرباب مردوخ ، وفى
 القلب إيمان وفى المقلتين دموع وعلى الشفتين تسييح ، حتى إذ بلغ بيت أبيه
 راح يرقى فى الدرج ثم طرق الباب فى رفق . ومرت لحظات قبل أن ينفرج
 الباب عن جارية فى عينيها آثار النوم ، وتملأ أنفه رائحة البخور ، فقال
 للجارية :

— أين فى غرفته ؟

فهزت رأسها أن نعم دون أن تنطق حرفا ، وأخذت تفرك عينيها بيديها ثم
 تشاءبت وأغلقت الباب خلفه ، وانطلق إلى حيث كان البخور يتصاعد فوقعت

عيناه على أبيه فقال :

— عم مساء يا أبى .

— آزر !!! مرحبا بك يا بنى . ما الذى جاء بك فى هذه الساعة ؟

قال آزر ويده فى يد أبيه :

— أرسل إلتى الـ « أوريجاللو » كبير كهنة إلهنا مردوخ ؛ لأصنع تمثالا للإله فى احتفالات العيد الكبير ، فجئت لتشير على بما أفعله .

فراح ناحور يقلب كف ابنه فى يده ويقول :

— أصابع صانع ماهر ، علمتك كيف تصنع تماثيل الآلهة فتفوقت على وصرت أمهر صانع فى البلاد ، حتى إن الـ « أوريجاللو » يبحث فى طلبك ليكون لك هذا الشرف العظيم ، شرف صنع تمثال إلهنا مردوخ فى عيد الكبير ، العيد الذى تقدر فيه الآلهة كلها إلى معبده المعظم لتقدم له الطاعة والولاء والخضوع .

فقال آزر وقد غرض من بصره حياء :

— إنما الفضل لك يا أبى .

— أنا فخور بك يا بنى .. أنت نعمة عظمى .. أنت مبارك يا آزر ..

سيكون لك شأن عظيم يا بنى .. رأيت فى المنام أن نورا أضاء السماء قد خرج من صلبك . اسمع نصيحتى يا بنى : قدم الخضوع لإلهنا كل يوم بالتضحيات والصلوات والبخور . ليكون قلبك نقياً أمام ربك ، فهذا ما يرضى به المعبود من العيد . إن أنت قدمت له التوسل والدعاء والصلاة والسجود فى كل صباح ، فسيمنحك كل الكنوز ، وستزدهر أيامك بفضل منه . ثم عليك بالخوف فإن الخوف يولد الرفق ويرقق العاطفة . وإياك أن تنسى التضحية ، فإن التضحية تطيل العمر . والصلاة الصلاة فإن الصلاة تخلص من الإثم .

— إنى يا أبى عبد مطيع .

— اقرب يا بنى لأرقيك .

واقرب آزر من أبيه ، وراح ناحور يلقي البخور فى النار ويرتل بصوت اقرب إلى الهمس :

السيد العظيم الإله مردوخ أرسلنى .

لقد أحل رقيته المقدسة مكان رقيتى ،

ووضع فمه المقدس مكان فمى ،

ووضع لعابه المقدس مكان لعابى ،

ووضع صلاته المقدسة مكان صلاتى .

يأيتها الأرواح الشريرة ارجعى عن آزر .

ثم ألقى ناحور فى النار بصورة ترمز إلى الشرور ، وراح يرقبها والنار تأكلها وهو باسِر الوجه ، حتى إذا ما أتت عليها تهللت أساريه ، والتفت إلى ابنه وهو يتسم وقال :

— اذهب ونم ، وفى الفجر نخرج إلى المعبد لنرى ماذا سطر لك فى لوح القدر .

ونهى آزر ونام حيث اعتاد أن ينام قبل أن يتزوج ، وقبيل الفجر أحس يدا تهره فى رفق ففتح عينيه ، فرأى أباه قائما عند رأسه يقول له :

— قم فتطهر لنذهب إلى المعبد .

وقام آزر واغتسل ، ولما انتهى من تطهره ألقى أباه قد ارتدى ثوبا أبيض وتأهب للخروج ، فانطلقا فى عماية الصبح إلى المعبد وفى يد آزر شاة . وقال ناحور لابنه وهو ينظر إلى الشاة :

— ما أرفأ الآلهة بنا ، كان أجدادنا يتقربون إليها بذبح أبنائهم ، ولكنها شفقة منها علينا أعلنت بقبولها أن نضحى لها بحيوان برىء من العيوب ؛ ألا ما أرحم الآلهة !

— رأيت يا أنى رجلا يذبح ابنه فى مذبح شماش قربانا وزلقى .

— إنه نلر نلرا للإله وكان عليه أن يفى بنذره .

— نذرت إن وضعت إيمتالى أنى أن أهبا للمعبد .

— أتطمع أن تصبح كاهنة ؟

— لتكن مشيئة الآلهة سواء عندى أكاهنة كانت أم كانت مغنية أم فتاة من

فتيات الهوى ما دامت هذه مشيئة الآلهة .

— لتفعل الآلهة بنا ما تشاء .

ودخل إلى المعبد ، ووضع ناحور موقدا أمام نانا وشماش ومردوخ ، ووضع

أربع أوان من نبيذ السمسم على مائدة خلف كل موقد ، ووضع أرغفة ومزيجا

من الزبد والعسل وبعض الملح . وراح ناحور ينفخ الموقد أمام نانا إله القمر

وحارس مدينة أور ، ثم أخذ آزر فى يده وشخص ببصره إلى تمثال الإله وراح

يتلو فى خشوع :

— آزر خادمتك . ألا فاسمع له يا إلهى أن يقدم التضحية لجلالك ، ألا

وارض عنه يا إلهى بحق وجهك الكريم .

وتناول ناحور الشاة وذبحها فى المذبح وهو يتلو :

— الحمل فداء لآزر ، لقد قدم حملا فداء عن حياته .. قدم رأس الحمل

فداء عن رأسه .. قدم عنق الحمل فداء عن عنقه .. قدم صدر الحمل فداء عن

صدره ، فتقبل منه تضحيته وبيع له بسرك .

وشق بطن الشاة وأخرج منها الكبد مقر الحياة ، وأخذ ينعم النظر فيها ليرى

نوايا الإله ، ليقرأ ما سطره لصاحب القربان فى لوح قدره . ولاح فى وجهه

ناحور الاهتمام ، ودنا آزر منه وهو يحبس أنفاسه ، ومرت لحظات قلقة ثم قال

ناحور :

— إيمتالى .. إيمتالى ..

فقال آزر في فرع :

— ما بالها ؟

— تلد .. لا ، إنها لا تلد أنثى بل تضع غلاما .. علاما يقترن اسمه
بالسما .. غلاما له شأن عظيم ..

فقال آزر في لهفة :

— وماذا ترى أيضا يا أبى ؟

— الطريق إلى بابل آمن .. اخرج مع القافلة التي ترحل بعد غد .

وقطب ناحور وجهه ولاح فيه خوف ، فأحس آزر رهبة وقال :

— ماذا ترى أيضا يا أبى ؟ قل .. قل كل شيء .. لا تخف عني شيئا ..

فقال ناحور في صوت فيه رنة أسي :

— سحب داكثة تحجب وجه القمر .. وجه نانا ، وكسوف يغشى وجه

شماش ، وأصنام الآلهة تخر على وجوهها .. حطب نازل .. شر مستطير ..
آهنا نخشى .. نخشى إلى حين .. أنت .. أنت تحجبها .

وصمت ناحور وقال آزر في لهفة :

— ثم ماذا ؟

فقال ناحور في يأس :

— لم أعد أرى شيئا .. بردت الكبد ولم تعد فيها حياة .

ولاح في وجهى الأب والابن وجوم ، والتعنا إلى حيث كان تمثال الإله

مردوخ رب الأرباب وكبير الآلهة وفي قلبيهما رهبة ، وفي صدريهما ضيق ،
ضيق من أتى في حق الأرباب أمرا إذا .

كان تمثال مردوخ قائما في مكانه بأذنيه الكبيرتين اللتين ترمزان إلى فهمه
العريق الذى لا يحد ، يحمل سلاحه المقدس الذى قهر به تيامات إله العاص ،
فمنحه سائر الآلهة حق تقرير المصائر مكافأة له ، وريص تحت قدميه الوحش

الذى أخضعه ، كان ذلك منذ بدء الخليقة .
وتقدم ناحور نحو كبير الآلهة في خشوع ، خافض الرأس خافق القلب ،
يحاول أن يستجمع ذهنه الذى ذهب شعاعا من هول ما رأى في كبد شاة
التضحية ، قبل أن تختفى كل رؤية ، وراح يتلو من أعماقه في حرارة وإيمان
وابتهال :

— يا حائق البشر ، يا ساحر الآلهة وإله الكهنوت ، اغفر لى خطيئتي إن
كنت أخطأت في حق الأرباب ؛ لم تنطق شفتاى إلا بما رأيت عيناى في كبد
الأضحية ، وقد رأيت ما أوحيت لى وكشفت لى عن أسرارها ، فإن كان ما
رأيت عيناى وحى شيطان ، فاعف عني فقد جئت أستوحيك وقلبي عامر
بالإخلاص .

وسالت العبرات على خدى ناحور فأحس كأن حملا ثقيلا انزاح عن
صدره ، والتفت إلى آزر والدموع تملأ عينيه ، ثم سار وسار ابنه في أثره وهو
صامت حائر لا يدري تأويل ما تنبأ به أبوه ، وقد عجز عن أن يربط بين النور
الذى رآه أبوه في منامه يخرج من صلبه ليصير السماء ، وبين أصنام الآلهة التي
انكسرت على وجوهها يجللها الخزي والعار .

ودع آزر إيمتالي وتركها في رعاية تمثالين كبيرين رائعين أحدهما الكبير الآلهة مردوخ والآحر لانا ، وتمائيل كثيرة للآلهة جميعا ، ثم خف ليلحق بالقافلة الخارجة من أور والمنطلقة إلى بابل لتبلغها قبل أول نيسان ، حتى يتمكن ورحالها وسائرها وشانها وشاباتا من الاشتراك في عيد رأس السنة ، عيد مردوخ الرائع الذي تفد فيه الآلهة من مدنها لتشارك في عيد كبيرهم العظيم . امتطى آزر حماره وسار في طريق منحدر على جانبيه بيوت من الآجر شيدت على الروابي لتأمن خطر الفيضان ، ورأى على مرمى بصره مياء أور وقد رست فيها السفن تحمل الدرة والسمس والقمح وقام حولها الصاع يشيدون السفن أو يصلحونها . سار والسور الذي ضرب حول المدينة ليحميها من غضب النهرين إذا فاضت مياههما ، ودار مع الطريق فصارت الميلاء حلقه ، ولاح على البعد الحرم المقدس وقد قامت فيه معابد الآلهة ، طبقات من الآجر مدرجة في ارتفاعها . كان بصره لا يرى إلا جدرانها أما بصيرته فكانت ترى ممراتها وحجراتها وتمائيل الآلهة التي صنع أغلبها بيديه وكساها الذهب والفضة .

وخلف وراءه الشوارع الصيقة وانساب في سهل شنغار المترامي على مدى البصر ، بين حقول القمح المتموج كالذهب ، وقطعان العنم والبقر وأشجار النخيل السامقة تكاد تسد الأفق .

ولاحت القافلة لعينيها فلكز حماره يحنه على الإسراع ، ويرجو أن يجد بين الخارجين إلى بابل بعض أصحابه ، فما أقسى السفر الطويل بلا رفيق . وراح

يطوى الأرض وفي قلبه حرارة وشوق وفي رأسه أفكار ، فما استطاع أن ينسى نبوءة أبيه . كان يسترجع كل ما كان بينهما بعد أن غادر المهد . « هل تطهرت يا آزر ؟ ألم ترتكب شيئا يفضي الآلهة يا بني ؟ .. أنا عبد مؤمن مطيع يا أبني .. ما الذي كسف الشمس وخسف القمر ؟ .. وما هذا الضوء الذي خرج من صلبك لينير السماء ؟ .. لعله وحى شيطان .. إذا قدمت يا بني على مردوخ العظيم فابتل إليه أن يرضى ، وصل له في خشوع وقدم له عجلا سمينا ليغفر لنا ذنوبنا ويغفرنا برحمته » .

وعادت إلى ذهبه صورة مردوخ كبير الآلهة ورب الأرباب وقد انكفأ على وجهه ، فارتجف رعبا وراح يطرده ذلك الخاطر من رأسه ، ويهرع ليلحق بالقافلة التي صارت على مرمى حجر منه .

كانت القافلة تموح بالناس والدواب موحا ، شيوخ وعجائز ورجال ونساء من كل الطبقات : من « العاميلو » الأحرار رجال الدين وموظفي الدولة ، و « المسكيو » أبناء الطبقة الوسطى ، والعبيد الذين كانوا يوقدون النيران بنوى اليلج أو يسحقونه ليطعموا به البقر والخمير والبقال ، أو يغنوا ويروحون بالأحمال على ظهور الرواحل تأهباً للمسير .

وراح آزر يجوس بين الناس يتلفت يمينا ويسارا يتفرس في الوجوه بحثا عن صديق . ووقعت عيناه على سحن يألمها ، وألقى السلام على كثيرين وابتسم لكثيرين . بيد أنه لم يجد بينهم من تتفتح روحه بصحبته طوال الطريق ، وسمع صوتا يناديه :

— آزر ! آزر !

فراح يتلفت في فرح فصاحب الصوت صديق حميم ، والتقت عيناه بعيني الصديق في ابتهاج :

— لوجال أيها العزيز ، أذهب أنت إلى بابل ؟

وأشرق وجه لوجال بابتسامة عذبة وقال :

— الحق أنى ترددت كثيرا قبل الخروج ، قلت فى نفسى : « إن الاحتفال بعيد رأس السنة فى أور كالاحتفال به فى بابل ، لا فرق بينهما إلا أن الملك يحصر احتمالات بابل بنفسه ، أما احتفالات أور فهو لا يشرفها بحضوره بل يرسل ملائسته لتحل مكانه فى المراسم .

فقال آزر فى إيمان :

— بابل أرض مردوخ الطاهرة ، إنها مباركة .

فضحك لوجال وقال :

— أقول رأى ولا تغضب ؟ .

— قل ولا تقدح فى آلهتنا ، فأنا أعرفك سومرى متعصب .

— الصلاة فى معبد شماش كالصلاة فى معبد نانا . كالصلاة فى معبد

عشتار ، كالصلاة فى معبد مردوخ .

— لا ، لا يا لوجال ، من قال إن الصلاة فى معبد كبير الآلهة ورب

الأرباب كالصلاة فى معبد الأتباع والأبناء ؟

— ألم يكن إنليل كبير الآلهة ورب الأرباب ؟

— كان ذلك قبل أن تنفيه الآلهة الأخرى فى مدينة « نفر » .

— أنا لا أدري لماذا نفته الآلهة .

— فى الوقت الذى لم يكن الإنسان قد خلق بعد ، يوم كانت مدينة

« نفر » لا يسكنها إلا الآلهة ، كان إنليل إله الهواء ورب الأرباب ، وكانت

ننليل عذراء المدينة ، وكانت أمية أمها العجوز أن تزوج ابنتها من فتى مدينة

الآلهة ورب الأرباب .

وذات يوم دعت الأم ابنتها وقالت لها :

— تمشى يا ابنتى العزيزة على شاطئ النهر ، وفى المجرى الصافى اغتسلى

يا حيثى ، فإن ذا العينين المشرقتين ، إنليل العظيم ، الرعى الذى بيده المصائر
سيراك وسيشف بك حبا .

فاتبعت ننليل بصائح أمها مغتبطة مسرورة ، وبيناهى تمشى على الشاطئ
بعد أن اعتسلت فى المجرى الصافى ، رآها الأب إنليل وفن بجملها ، وراودها
عن نفسها فأبت ، فحملها إلى قارب فى النهر واغتصبها ، فحملت سير إلى
القمر .

وفزعت الآلهة لما ارتكبه « إنليل » ، وقبضت عليه وقالت له : أيها الفاسق
اخرج من المدينة .

وذهب إنليل إلى العالم السفلى ، إلى العالم الذى لا رجعة منه .

— أيعقل أن يرتكب أنليل مثل هذه الحماقة ؟

— لقد ارتكبها .

وراح لوجال يرتل فى حماسة :

— إنليل ذو الأمر ، إنليل الذى كلمته مقدمة ، الرب الذى لا يبدل

كلامه ، الذى يقدر المصائر إلى الأبد ، الذى تبصر عيناه المتفرستان جميع

الأقاليم ، الذى يتغلغل نوره المتعالى فى ضمائر البلدان جميعا ، يرتكب هذا

الإثم ؟

— أجل ، ليلقى مصيره المحتوم ، ليعيش فى العالم الأسفل ، العالم الذى

لا رجعة منه ، ليكون عبرة للبشر .

— إنليل الذى يقدر المصائر يلقي مصيره ؟! إنليل الذى يحكم إرادات

القوة والسيادة والإمارة يخضع لقوة ؟! إنليل الذى تسجد له آلهة الأرض

خشية ورهبة ، وتندلل أمامه آلهة السماء يخضع للآلهة الأخرى ؟! إنليل الذى

شعائره ومناسكه المطهرة مثل الأرض ثابتة لا يمكن محوها يرتكب مثل هذا

الإثم ؟! إنليل الذى رهبته وخشيته تضاهيان السماء ، وظله منتشر على جميع

الأقاليم ، وتساميه يبلغ قلب السماء يتردى في المعصية ؟ إنليل الذى لا يجسر إليه أن ينظر إليه تلقى به الآلهة في العالم السفلى ؟ ! هذه أسطورة ابتدعتها ملوككم أيها الساميون لتنصبوا مردوخ إلهكم كبيرا للآلهة وربا للأرباب .
— صه يا لوجال ، كفى أيها السومري ، إن كان هذا رأيك فلماذا ترحب إلى

مردوخ ؟ ولماذا تقدم له القرابين ؟

— إن أحمج لرب الأرباب ، وأقدم القرابين للإله الساكن في السماء الذى بيده لوح القدر ، سواء أكان اسمه إنليل أم مردوخ ، أم شماش أم سين أم نانا أم أنكى ، أم تيامات إلهة الفضاء التى زعمتم أن مردوخ هزمها قبل أن تصبح له السيادة المطلقة ، أم أى من الأسماء التى يطلقها البشر على من بيده مصائر الكون والحياة .

وتذكر آرر ما أوحى مردوخ إلى أبيه لما نظر في كبد الشاة من أن الآلهة انكفأت على وجوهها ، وها هو ذا لوجال يبال من الآلهة جميعا ؛ ترى أهذا هو تفسير ما رأى ناحور ؟ وكاد يستريح إلى ما نخامره من رأى إلا أن صوتا همس في أعماقه بأن ما يقوله صديقه لا يحيط من شأن الآلهة ولا يجعلها تكفى على وجوهها، إنه وإن كان يكر أسمائها فهو يقر بقرتها ويعبدها ويدبح في مذابحها القرابين ويهريق من أجل رضاها دم الأضحيات .

وشركت القامصة واصطلقت محلمة وراءها أور الكلدانيين ، وآزر ولوجال يتجاذبان أطراف الحديث ، قال لوجال :

— لماذا جعلتم إنليل يرتكب هذه الفاحشة ؟

— إنه ارتكبها ونال جزاءه .

— لا ، أنا لا أستطيع أن أتصور أن إلها يضعف ويرتكب الخطايا .

— لا بد أن تغد الواميس الإلهية .

— وهل ترضى الواميس الإلهية بالفاحشة ؟

— لقد أقرت نواميسكم يا آل سومر ارتكاب الآلهة للفاحشة ، إن ملوكنا لم يشدعوا قصة أنانا البغي المقدسة ، أنانا إلهتكم التى كانت تعبر السماء وتعبر الأرض .

— أنا لا أعرف قصتها .

— أما أنا فأحفظها عن ظهر قلب ، كان أبى يقصها على . إن البستاني الذى نام معها يقول :

« وذات يوم ، بعد أن عبرت « مليكتى » السماء وعبرت الأرض ، بعد أن قطعت بلاد « عيلام » وبلاد « شوبير » اقتربت البغي المقدسة « أنانا » من البستان ، ومن أثر وعشاء السفر غطت فى النوم ، فرأيتها عند حافة بستانى وجامعتها وقبلتها وعدت إلى مكافى . وطلع المجر وأشرقت الشمس . فاستيقظت أنانا وفطنت إلى ما وقع لها ، فجعلت تلقت فزعة وجلة ، وهبت لتنتقم لما باها ، فملأت جميع آبار البلاد بالدم ، فامتلأت جميع الأحراش والبساتين فى البلاد بالدماء . لقد صار العبيد يدهبون للاحتطاب لا يشربون إلا الدم ، والإماء إذا ما جفن للتزود بالماء لا يملأن قربهن إلا بالدم ، لقد قالت : لأجدن من جامعى فى جميع أرجاء البلاد ، ولكنها لم تجد الذى جامعها . »

فقال لوجال وهو يهز رأسه نفيا :

— لا يستطيع عقلى أن يتصور أن إلهها يغتصب إلهة ، أو أن بشرا يضطجع مع إلهة رأت أن تستريح فى ظل شجرة فى بستان .

— النواميس الإلهية لا بد أن تنفذ . إذ وقفت بين يدى مردوخ فادعه أن

يفسل الشك من قلبك .

— سأفعل .

وقرأ آرر فى عيني صديقه الشك فقال له فى صدق :

— جاهد نفسك يا لوجال لتنجو من العالم السفلى عالم الأشرار ، العالم الذى لا رجعة منه .

وأغذت القافلة فى سيرها حتى لاح فى الأفق البعيد برج ، فقال قائل :
— برج عشتار قد ظهر .

وقال آخر فى انشراح .

— مدينة أوروك ندخلها قبل المساء .

والتفت آزر إلى لوجال وقال :

— عشتار العطوف إلهة اللذة ، بنت إلهنا سين وأخت شماش إله الورد ،
إنها إلهة ذكر فى الصباح وإلهة أنثى فى المساء .

فقال لوجال وهو يلوى شفته السفلى استهزاء :

— إنها أنثى فى المساء لتنجع الجميع اللذة ، سأكون هذه الليلة من عداد
عشتار المخلصين .

قرأ آزر فى عيسى صديقه استخفافا فقال له :

— كفى سخرية . أخاف أن تنزل الآلهة غضبها علينا بمسيبك . اسمع

نصيحتي يا لوجال وعد إلى أور ، حرام عليك أن تجشم نفسك متاعب السفر
وقلبك خاو من الإيمان .

— إني ذاهب إلى الآلهة لأصلي لها وأبتهل لتسكن الإيمان قلبي ، اعلم يا آزر

أنه شقى من لا يعمر الإيمان قلبه .

وتدفقت القافلة من باب عشتار وانسابت فى طرقات مدينة أوروك ،

واتخذت طريقها إلى المعبد الذى بى على قمة جبل وارتفع مزاره حتى كاد يبلغ

السماء . وحطت القافلة فى فناء المعبد ، وهرع البعض لتقديم القمح والدرة

والسمسم والتين والبلح لخازن الآلهة . وصعد آخرون للصلاة لعشتار وتقديم

القربان لها ، وأخذ الرجال ينظرون إلى عاهرات المعبد المقدسات اللاتي

تمنطقن بالحبال وجلسن في الطرقات يحرقن نوى الزيتون للآلهة .

والتفت لوجال إلى آزر وقال :

— هؤلاء الحريماتو اللاتي من أجلهن أبقيت عشتار على الرجل وسلمته إلى

أيديهن .

ولم يسمع آزر شيئا مما قال .. كان مشغولا بأفكاره ، إنه ترك إيمتالى في شهورها الأخيرة وقد نذر إن وضعت أنثى أن يهبها للمعبد . ستكون ابنته يوما إحدى هؤلاء البغايا المقدسات . لا .. إن العاهرات المقدسات ثلاث طبقات . الكرزيت والسانهات والحريمات ، وهو يرجو يوم نذر ما في بطن زوجه للمعبد أن تكون من طبقة الكرزيت ، من العاهرات المقدسات اللاتي يهن أنفسهن مرة واحدة لم يطلهن من الرجال . ثم يمتنعن عن الرجال ليصبحن كاهنات ككاهنة أور ابنه الكاهن العظيم ، فقد كانت على الدوام في حياله كلما فكر في أن يهب فلذة كبده للإله ، وما دار بخاطره يوما أن تكون من الحريماتو .

إن البغايا المقدسات جميعا يسكنن في المعبد ويعشن في « الباجوم » . كلهن بنات الهوى . ولكن ما أعظم البون بين أن تكون العاهرة المقدسة من الكرزيت أو السانهات أو الحريماتو !

وقضيت الصلاة والمراسم وهبط الرجال والنساء من المعبد . وعاد الرجال يطيلون النظر إلى العاهرات المقدسات اللاتي كن يحرقن نوى الزيتون للآلهة . وأخذوا يمرون أمامهن ويفرسون في وجوههن ، ثم يلتقى كل من شاء من الرجال بقطعة من النقود في حجر من يستهويه جمالها ، فتقوم وتتبعه وهي تعمر جارتها أن التوفيق قد خانها لأن عشتار إلهة اللذة لم ترض عنها في يومها ذلك .

وألقي لوجال قطعة من النقود في حجر فتاة كانت ترنو إليه بعينين فيها

نداء ، فقامت منبسطة الأسارير خلفه وانطلقت وأسرع آزر مبتعدا إلى حيث يربط حماره ، وانصرف بعض الوقت ثم أقبل لوجال على صاحبه وقال :
— بوركت آلهة اللذة ، ولكن لو كانت لى بنت ما وهبتها لعشار ألبنة .
فقال آزر فى حماس :

— امرأى حامل ، وقد نذرت إن وضعت أنثى أن أهبها للمعبد .
فقال لوجال ساخرا :

— حتى يعجزك أن تحصى عدد أزواجها .
فقال آزر مدافعا :

— إن من تهب نفسها للمعبد إنما تضحي بجسدها قربانا للآلهة ، فتضحيتها أسمى من تضحية من ينحر كبشا أو حديا أو ثورا . إن عايتها أسمى من إشباع شهوة جنسية . إن المرأة المؤمنة عندما تقدم جسدها إلى رجل غريب إنما تقدمه على مذبح الآلهة ، وبعد أن تفرغ من هذه التضحية يصبح من العسير إغراؤها ولو بمثل وزنها ذهباً .

— إنها تجارة ، بل أربح تجارة يمارسها الأغنياء ليزدادوا غنى ، هم يكتزون الأموال من دعارة جوارهم .

— إنها شعيرة من شعائر الدين ، وما كان كهان المعابد ليقبلوا هذا الدس إن لم يكن يرضى عنه الآلهة .

— كهان المعابد ورجال الدين أغنى الناس ، إنهم راضون عن هذه التجارة ، لأنها تملأ خرائثهم ذهباً وفضة .
فقال آزر فى غضب :

— أنت فاسق يا لوجال لا تعرف شيئا .
فقال لوجال وهو يتسمم :
— ولكنى أعرف الحريمتو أكثر منك .

ثم راح يرتل في نبرة أقرب إلى الغناء :
لا تتزوج من حريماتو لا يحصى عدد أزواجها ،
لأنها في مصابك لن تشد أزرك ،
وستفترى عليك في قضيتك .
ليس الاحترام أو الخضوع من صفاتها .
إسها ولا شك تقوض الدار ، أخرجها منها ،
تلك المرأة التى تطيل النظر فى أثر كل رجل غريب .
إن كل بيت تدخله يهار ، ولا يفلح من يتزوجها .

* * *

وفى عمية الصبح تحرك الركب وانطلقت القافلة عبر السهول الخضراء
المترامية على مد البصر . مروا فى طريقهم بأناس يقومون بتحديد أراضى
الملاك وتؤكد الحماية الإلهية عليها ، وبفلاحين يطهرون الترع التى تقع على
جوانبها أراضهم ، ومروا بأراضى الأمراء التى يعمل فيها السجاء والأهالى
سخرة : يشقون الترع ويشيدون الخزانات ويجهزون العجلات ويقومون
بأعمال الخرت والزرع والحصاد .

ومروا بأرض بور فالتقوا الفلاحين يعملون فيها بهمة ومشاط والعرق
يتصبب من جباههم ، فقد كانت الأرض البور حقاً لمن يشغلها وملكا لم
يفلحها .

ورأوا المراكب الصغيرة تسير فى القنوات تنقل مواد البناء من أحشاب
وأحجار ومعادن ، وترسو على الأرصفة بالقرب من بوابات المدن تنزل ما
تحمل ، ثم تشحن بالغلالت لتنقلها إلى منطقة أخرى أو تأخذ طريقها إلى موانئ
التصدير .

وبلغت القافلة مدينة شورباك مدينة نوح ، المدينة التى ضل أهلها ففضب

الإله عليهم وأوحى إلى نوح أن اصنع الفلك واحمل فيه من اتبعك ، ثم جاء الطوفان فأغرق الكافرين .

وحطت القافلة في فناء المعبد ، ودار بين الناس حديث الطوفان الذي غمر البلاد من تسعة قرون ، كان الطوفان حقيقة نسجت حولها الأساطير .

— قررت الآلهة في مجتمعها هلاك ذرية البشر المفسدين ، وحمل الصالحين منهم في سفينة كبيرة لينوا بيوتهم في أماكن مطهرة ، وليشيدوا المعابد لإقامة الشرائع الإلهية.

استمر الطوفان سبعة أيام وسبع ليال واكتسح البلاد وكانت السفينة الضخمة تتقاذفها الأعاصير في المياه الجارفة ، وطهر إله الشمس الذي نشر ضوءه على السماء والأرض ، وفتح زيو سدرا (نوح) شباكاً في الفلك العظيم ، وأنفذ البطل إله الشمس أشعته في الفلك العظيم ، فسجد زيو سدرا للإله ، وذبح ثورا وكبشا .

— ألم تكن الملكية قد نزلت من السماء قبل الطوفان ؟

— نعم . أنزل التاج والعرش رمز الملكية من السماء ، واكتملت العادات والنواميس الإلهية المقدسة .

— لماذا غضبت الآلهة على البشر ، ما دامت هي التي أنزلت الملكية من

السماء ، ورسمت للملوك النواميس والعبادات ؟

— لأن الملوك انحرفوا عن طريق السماء ، وأغرقوا شعوبهم في

الصلالات ، فكان على السماء أن تتدخل لتطهر الأرض من المفسدين ، حتى يرثها العباد الصالحون .

فالتفت لوجال إلى آزر وقال :

— لقد ارتكبت الآلهة في مجتمعها شرورا تفوق كل شرور الناس ،

سفكت الدماء ، وهتك الأعراض ، واضطجعت الإلاهات مع البشر .

وما أكثر الآلهة التي جاءت من سفاح ، فلماذا تؤاخذ الناس وتنسى أنفسها ؟
فهب آزر مفزوعا وقال لصديقه :

— هذا فراق بيني وبينك يا لوجال.

وابتعد عنه مرعوبا ، وصوت أبيه ناحور يرن في أذنيه بالنبوءة التي رآها في
كبد الشاة ، نبوءة انكفاء أصنام الآلهة على وجوهها ، فحقق قلبه واضطرب
نفسه وجعل يتلفت في خوف ، خشية أن تصب عليهم الآلهة غضبا من
السماء .

— بابل .. باب الله .. الإيساجيل .. معبد مردوخ .

وارتفعت الأصوات بالابتهاال إلى مردوخ رب الأرباب فقد وصلت القافلة إلى أرض بابل ، ولاحت للعيون الأبراج الضخمة الرابضة فوق أسوارها ، وبرج بابل المتسامى في كبرياء يعلن للملأ أنه مزار مردوخ العظيم كبير آلهة البلاد .

وتقدم الرجال والنساء والعبيد والإماء على ضفة الهر في خشوع وقلوبهم عامرة باليقين ، حتى لوجال طافت به موجة من إيمان هزته وجعلته يشخص ببصره إلى البرج الذي يعرج إلى السماء وهو خائف القلب يستشعر رهبة من المجهول ، من الغيب الذي يخفى في جوفه أقدار الناس .
والتفت آزر إلى لوجال وقال :

— أريد أن أشتري أضحية قبل أن نذهب إلى الإيساجيل .

— إني شحنت أضحيتي من أور في قارب ، وقد فعل كثيرون مثل ما فعلت .

— ستتكلف في نقلها مثل ثمنها .

— اتفقنا على أن ندفع ثلاثة شواقل من فضة ، لقاء نقل ثلاثة ثيران وستين رأسا من الغنم .

— ثلاثة شواقل لرحلة واحدة ؟!

— استأجرنا قاربا كبيرا حمولته ٦٠ جورا .

— مثل هذا القارب لا يزيد ثمنه على عشرين شاقلا من فضة .

— لا تسأنا في الموسم يا آزر ، سعر النقل كسعر الشعير غير ثابت على مدار السنة . قد يصل ثمن الشعير في موسم الحصاد إلى شاقل وثلاثي شاقل للحور ، أما في نهاية الموسم فيرتفع ثمنه إلى أكثر من ثلاثة شواقل ؛ وكذلك النقل يرتفع سعره في المواسم ، وعيد رأس السنة أهم موسم للنقل ، فما أكثر الوافدين إلى بابل في هذا العيد .

وقال آزر وهو يستخرج من جيبه سبيكة من الذهب :
— أريد أن أستبدل هذه بفضة .

— شاقل الذهب اليوم بعشرة شواقل من الفضة .
فقال آزر في استياء :

— كان شاقل الذهب في أور بأحد عشر شاقلا من الفضة ؛ فما أدراك أنه هنا بعشرة ؟

فقال لوجال وهو ينسم في خبث :

— إننا في الموسم يا عزيزي آزر ، وما قيمة شاقل من الفضة في سبيل الإله العظيم . سبائك الذهب التي تملكها كلها من فضله ومن فضل تماثيله التي تصنعها .

— حقا لقد باركت الآلهة في أصابعي وشرفني بأن أصنع تماثال رب الأرباب في عيده الكبير .

— إن ذاهب إلى المرفأ لتسلم أضحتي وبضائمي .

— بضائعك ؟

— شحنت بعض الشعير .. الشعير في سائر الأيام كالفصة في الأسواق ، أما في العيد فهو أفضل من الفضة ، سأبيعه وأشتري بشواقل الفضة جارية .
وصمت لوجال قليلا ثم قال :

— ما أجمل الحوارى اللافى يعرضن في سوق بابل في إديار العيد الكبير !

وهم بأن يذهب إلى حيث ترسو القوارب بالمرأ لتسلم أضحيته
وشعره ، بيد أنه التفت إلى آرر وقال :
— أين ألقاك ؟

— سأذهب بعد أن أقدم قرباني إلى الـ « أوريجاللو » .
— آسف ، نسيت أنك ستكون في ضيافة الـ « أوريجاللو » ، هنيا لك ،
فضيوف كبير الكهنة ينزلون المعبد على الرحب والسعة .
فقال آرر في كبرياء :

— ما دمت في بابل فأنا في ضيافة رب الأرباب .
وانطلق لوجال وبعض من كانوا في القافلة إلى المرأ لتسلم الأنعام التي
حملوها في السفينة ، وتقدم آخرون ليدخلوا المدينة المقدسة مدية الإله
مردوخ العظيم ، وراح أحد رجال الدين يرتل قصيدة الخليفة ويروى كيف
انتصر مردوخ على تيامات إلهة العضاء :

اختلطت مياه « تيامات » البحر بمياه « أبسو » المحيط ،
ومن ذلك الاحتلاط ولدت الآلهة جميعا .
ولم يرضا عما أنجبوا .. فقرروا أن يحطموها جميعا ..
حملت تيامات الأم الكراهية لأبنائها .
أم الجميع حائلة الأشياء كلها ،
جمعت أسلحتها التي لا تبارى ، وولدت أفاعى ضخمة ، حادة الأنياب لا
قلب لها .

استبدلت الدم بالسم في أجسادها ،
وألبست التنانين الخفيفة ثوب الرعب ،
وأمرت بتدفق الأفاعى والزواحف الوحشية ،
والوحوش الضارية والكلاب المزيجرة والرجال العقارب ،

وانخلع قلب الآلهة لما رأت تيامات وجيشها .

وجاء مردوخ العظيم وقال : « أنا المنتقم » ،

لأقيدن تيامات في الأغلال لتبقى الحياة لكم » .

ودارت المعركة ، وانتصر مردوخ على تيامات .

وفي مجمع الآلهة توج مردوخ ربا للأرباب ، ملكا على جميع الآلهة .

وأعلن مردوخ المنتصر عزمه على أن يعجن الطين بدمه ليخلق الإنسان .

واجتمعت الآلهة مرة أخرى ، وأعلنت أسماء الخمسين .

ومر الركب بالقلعة مطلقا إلى الطريق المقدس ، ووقعت أعين الناس على

بوابة عشتار وكانت رائعة غاية الروعة ، فأخذوا يرمقونها في إعجاب ؛

كانت مبنيين هائلين من الآجر ، لكل مبنى باب من الأمام وآخر من الخلف

وبينهما بهو ، وقدرينت البوابة بصور حيوانات في صفوف أفقية ، بلغ عددها

قراءة خمسمائة وسبعين ، لونت بألوانها الطبيعية فجاءت البوابة آية تخلل

ألباب الناس .

وانساب الركب في الطريق المقدس وكان من بلاطات مربعة من الحجر

الجيري .

وكان على كل من جانبيه جدار يبلغ سمكه سبعة أمتار ، تعلوه أبراج تحت

عليها صور سباع بارزة ، تبدو كأنما تنبأ للوثوب على من يقتحم الحرم .

وبلغ الركب الفناء الخارجي وكانت حوائطه مقسمة — على مسافات

متساوية — بأعمدة مربعة حفرت فيها قنوات بالقرب من قواعدها وقممها ،

وانساب الناس إلى الفناء الأوسط من إحدى البوابات الكثيرة المكففة

بالبرونز ، وكان الفناء يزدان كذلك بأعمدة مربعة ، وفي نهاية البهو إلى الغرب

كان هيكل مردوخ ؛ فما إن وقعت أعين الناس عليه حتى ضجوا بالدعاء

والابتهاال .

وهمس الناس في خشوع :

— قدس الأقداس .

كانوا يتوقون إلى الدخول للمثول بين يدي الإله العظيم ، ولكن لم يكن مسموحا بالدخول إلا للكهنة والأمير . وراح آزر يتلفت فرأى خارج قدس الأقداس مذبحا ذهبيا ، ورأى بجانبه مذبحا آخر كبيرا لذبيح الماشية ، فتذكر زوجته إيمانى وذلك الذى فى بطنها لم ير النور بعد ، فذهب واشترى كبشا قدمه للكهنة ليذبحه قربانا للآلهة لتبارك له فى زوجه وفى ذلك الذى فى بطنها . وعاد آزر إلى الطريق المقدس واتجه شمالا إلى حيث تقع « الزفوة » ، وهى مبنى مكون من مصاطب مبنى بعضها فوق بعض ، تدفق كلما علت . كانت أشبه بهرم مدرج قاعدته مربع طول ضلعه ٣٧٠ مترا ، يقوم فى وسطه مصطبة ضخمة طول ضلعها ١٧٠ مترا ، وفوقها مصطبة ثالثة ، فرابعة فخامسة . حتى تبلغ المصاطب ثمان .

وعزم آزر أن يصعد إلى قمة « الزفوة » ، فاتجه إلى طريق يدور صاعدا حول طبقات البرح ، وراح يرقى فيه حتى إذا بلغ منتصفه وجد غرفة بها مقاعد يستريح عليها من يريدون أن يلتقطوا أنفاسهم قبل أن يستأنفوا الصعود إلى القمة ، إلى حيث المزار . جلس آزر يستريح ، وسرعان ما طاف بذهنه قول أبيه له : « أنت مبارك يا آزر ، سيكون لك شأن عظيم يا بنى ، رأيت فى المنام أن بورا أصاء السماء قد خرج من صلبك . اسمع نصيحتى يا بنى ، قدم الخشوع لإلهك كل يوم بالتضحيات والصلوات والبخور .. » . فلم يطلق التبريت حتى يسترد أنفاسه ، فهو فى شوق ليصل إلى المزار ليقدم صلاته إلى رب الأرباب ويحرق بين يديه البخور ، إن الآلهة هناك فى السماء ، وكلما عرج فى صعوده اقترب منها .

ونفض آزر واستأنف عروجه حتى إذا بلغ آخر طبقة وجد هيكلا كبيرا به

سرير مزخرف ، تقوم إلى جانبه مائدة من الذهب كان يعلم أن هذا المزار لا يمضى الليل فيه إلا امرأة قروية يختارها الإله من بين صويحيباتها القاديات من الريف . فعزم على أن يتم صلاته قبل أن يسدل الليل أستاره ، فتلفت فرأى تمثالا لمدوخ موضوعا في كوة ، فاتجه إليه وسجد له في خشوع ، وراح ينتهل إليه والدموع تسيل على خديه :

— يا إلهي ، يا من أنت أوى الذي ولدني ، ساعدني على الخروج من الظلام إلى النور ، واغفر لي خطاياي فقد صدق الحكماء حين قالوا :
لم يولد لأم طفل بلا خطيئة .

فالطفل الطاهر البريء لم يشهد الوجود منذ القدم .

إلهي ! يا من أنت أوى الذي ولدني ،
بارك لي في إيمتالي ، فهي حاضري ومستقبلي ،
وتقبل مني ما في بطنها ، فإن هي وضعتها أنثى ،
فإن في ابنتي خلاصى .

إلهي ! يا من أنت الذي ولدني ،
أما إن جاء ما في بطن إيمتالي ذكرا ،
فاحمله يا إلهي مباركا ، واقبله خادما من خدامك ،
كاهنا من كهانك . مصداق لرؤيا أوى ، فقد رأى نورا يخرج من صلبى ينير
السماء .

وتذكر ما رآه أبوه من انكفاء الآلهة على وجوهها ، فقال وهو ينشع
بالبكاء :

— إلهي ! يا من أنت أوى الذي ولدني ،
إن كان بك علينا غضب فارفع غضبك عما ، وأوح إلينا بما يرصيك فإننا
مطيعون ، ولو أمرتنا أن نذبح أنفسنا قربانا لك .

إلهى ! يا من أنت أبى الذى ولدنى ،

بارك لنا فى أعمالنا فهى قرّة أعيننا ،

وتقبل منا وطهر قلوبنا واهدنا وشرح صدورنا وزودنا بملائكة ذوى
سيماء لطيفة خيرة .

واستشر آزر راحة ، فنهض وراح بهبط فى الطريق المنحدر منشرح
الصدر ، وانطلق إلى الـ « أوريجاللو » كبير الكهنة ، وقدم له نفسه ، فأمر الـ
« أوريجاللو » أن يؤخذ آزر إلى حجرته ليقبى بها حتى يستدعى للاحتفال بعيد
رب الأرباب الكبير .

واعتكف آزر فى حجرته يتطهر ويصلى ويدعو كبير الآلهة أن يوفقه لأن
يصنع له تمثالاً يرضاه .

وجاء أول بيسان وغص الطريق المقدس بالناس ، وبمواكب الآلهة التى
جاءت من أنحاء بابل لتشارك فى عيد مردوخ رب الأرباب ولتقدم له الولاء
والخصوع ، وارتفعت أصوات الناس بالابتهالات :

إلهى ! قلعتى ! اغفر لى . كن رحيمًا يا إلهى واعف عني ..

إلهى استمع إلى تضرعى فأنت حقا يا إلهى أبى ، من مثلك يا إلهى يعفو
عن سيئاتى ؟

وترتفع التوسلات ، ويضع المعبد بالدعاء ، وتنهمر الدموع من العيون ،
ويقف الناس بالباب ينتظرون أن يأذن لهم الـ « أوريجاللو » بالدخول .

وانقضى أول بيسان ، وفى اليوم الثانى فى عماية الصبح استيقظ الـ
« أوريجاللو » كبير الكهنة وطهر نفسه بماء النهر وارتنى ثوبا من الكتان ،
وانطلق إلى قدس الأقداس وحده . اتجه إلى الكوة المبطنة بالذهب التى وضع
فيها تمثال مردوخ العظيم وتلا دعاء حارا ، ثم خرج وفتح الأبواب فتدفق
السحرة والمغنون إلى المعبد . وأطلق البحور وارتفعت الأصوات العذبة

بالترنيلات ، وقام السحرة بالطقوس والمراسم وتقديم القرابين والشراب إلى الآلهة .

وانقضى اليوم ، وفي اليوم التالي فعل الـ « أوريجاللو » ما فعله في اليوم الأول . وعقب غروب الشمس بثلاث ساعات أرسل في طلب ثلاثة صاع ونساج ليصنعوا تمثالين للإله ، فجاء آزر وزملاؤه ، وعكف آزر على صنع تمثال ارتفاعه سبع أصابع ، وراح يعمل وهو قلق متوتر الأعصاب يرجو من كل قلبه أن يرضى الإله عما يعمل .

وحان وقت العداء فقدم لآزر صدر نعجة راح يلتهمه في سرعة ، ليستأنف عمله في همة ونشاط .

راح آزر يصنع الأذنين الكبيرتين اللتين ترمزان إلى حكمة مردوخ ، وصوت في أغواره يردد قول إله الحكمة يوم نصب في مجمع الآلهة إلها للآلهة : « أي بني ! ما الذي لا تعرفه وأستطيع أن أعلمك إياه ؟ إن كل ما أعرفه تعرفه أنت » .

وراح آزر ينهل إلى مردوخ ويصنع تمثاله :

— أي خالقي ، بارك لي في عملي وتقبله مني فميه قرّة عيني .

وعكف على صنع الثعبان الذي يمسكه مردوخ في يسراه .

وراح الوقت يمر وآزر غارق في عمله لا يحس شيئاً مما حوله ، حتى إذا ما أتم صنع التمثال دفعه إلى الصائغ ليزينه بالذهب والأحجار الكريمة ، ثم ليلبسه ثوبه الأحمر ويلف حول وسطه حراماً من سعف السجل .

وجاء اليوم الرابع يوم الاحتفال السري ، فدخل الـ « أوريجاللو » قدس الأقداس وبقي به ، كان ذلك قبل أن يتشمس الصبح بأربع ساعات ، وراح أحد السحرة يطهر المعبد ويرشه بماء جلب من بئر الفرات ومن خزان دجلة . ومر الوقت وأشرقت الشمس وانقضى على إشرافها ساعتان ، فجاء

ساحر آخر وأخذ يطهر المعبد مرة أخرى ويمسح بزيت الأرز مصاريع الأبواب ، ويمسح الخوايط بجسم شاة قطع السيف رأسها لتوه ، وخرج الرجال إلى الحلاء يحمل أحدهما جسم الشاة ويحمل الآخر رأسها ، وانطلقا هائلين بالجسم والرأس في القرات . وبقيا خارج أسوار المدينة المقدسة حتى ينتضى العيد . فقد دنستهما الذبيحة .

وبقى كبير الكهنة في قدس الأقداس حتى لا يتدس بمشاهدة المعبد في أثناء تطهيره ، وبعد أن تمت مراسيم التطهير خرج الـ « أوريجاللو » بعيد الساعة الثالثة ، واستدعى الموظفين التابعين له ، ثم انطلقوا في حشوع إلى الخزانة لاستحضار « السماء الذهبية » .

وارتفعت أصوات في الطريق المقدس ، وترددت في أرجاء المدينة المقدسة العتيقة همسات :

— الملك .. الملك .

كان الملك يتقدم في الطريق المقدس في موكب فخم وقد حمل الكهنة أمامه تمثال إله منطقته المخل . ووصل الموكب الفخم إلى ساء المعبد الرئيسي ، فبقى الملك وأخذ سائر الناس ينسحبون ، حتى إذا بقي الملك وحده ، خرج إليه الـ « أوريجاللو » من قدس الأقداس ، وحلح عنه شارات الملك والصولجان والحلقة والعصا ذات الأسنان والتاج ، ووصعت جميعا على مقعد أمام تمثال مردوخ ، ثم عاد إلى حيث كان الملك فضربه على خده ، ثم قاده إلى حضرة الإله في قدس الأقداس ، وشد أذنيه وجعله يركع ، فأطرق الملك رأسه في خشوع ثم راح يتلو :

أنا لم أرتكب إثما يا سيد الأرضي ، أنا لم أهمل في شأن ألوهيتك .

أنا لم أحطم بابل ولم أمر بتفرقتها .

أنا لم أرزع أركان « الإيساجيل » ولم أس طقوسه . (أنو الأبياء)

أنا لم أضرب زوارك على خدودهم ، ولم أسب لهم مذلة .
لقد فاضت عنايتي على بابل ولم أهدم حوائطها .
فقال الـ « أوريجاللو » للملك :

— لا تخف . سياركك بعل إلى الأبد ، وسيحطم أعدائك ويدحر
خصومك .

وغادر الملك الهيكل ، وسار الـ « أوريجاللو » بخطا ثقيلة ووجه باسر إلى
حيث وضع شارات الملك فعادها ، وألبس الملك التاج وأعاد إليه الصولحان
والحلقة والعصا ذات الأسنان ، وضربه مرة أخرى على خده . ولم تتساقط
دموع الملك لا وهو يتהל إلى الإله ولا بعد أن ضربه الـ « أوريجاللو » على
خده ، فساد المكان وجوم فذلك قال سيئ علامة على أن الإله لم يتقبل
الصلاة ولا ما عمر له من قربان ، وأنه غاضب ، وأن السنة ستكون سنة وبال
على الملك والمملكة .

وبعد الغروب ربط الأوريجاللو حزمة من أربعين قصبة بسعفة نخيل ،
ووضعها في حفرة وسط المناء الرئيسي للمعبد ، وسقاها بالعسل والقشدة
والزيت ، وجيء بعجل سمين وذبح ، وأشعل الملك غصبا قربه من حزمة
القصب فتأججت فيها النيران . مر اليوم السابع من أيام العيد في لباس مردوخ
ثيابه بين ترتيل المغنين وإطلاق البخور وصلوات الرهبان .

وفي اليوم الثامن أقبل الملك تحف به حاشيته ، ودخل الأوريجاللو معه إلى
قدس الأقداس ، وحمل الملك تمثال الإله ، وكان هو صاحب الحق في وضعه
على المحفة ، وسار الموكب المقدس حتى إذا بلغ المناء الرئيسي للمعبد توقف
مردوخ بين الأستار ، في مدبح مقام في وسط المناء الرئيسي .

وسمعت ضجة في الطريق المقدس : كانت مواكب آلهة مدن بابل كلها
قادمة .. إنها في طريقها لتقديم لائتها لمردوخ العظيم : الإله سين ، والإله

والإله شماش ، والإلهة عشتار ، والإله ننجرسو ، وعشرات الآلهة الأخرى في المحفات ، والكهنة يرتلون الصلوات ، والناس يتهلون في حرارة ورجاء ، فقد فتحت أبواب السموات لاستقبال الدعوات . كانت اللحظة من أخطر لحظات الحياة ، ففي هذا اليوم المبارك تتقرر أقدار السنة ، وكل ما يجري فيها من أحداث إلى أن يأتي اليوم الثامن من نيسان من العام القابل .

وصلت الآلهة جميعا إلى العناء الرئيسي للمعبد ، وارتفعت الابتهالات والدعوات وغى المغنون وأطلق المخور ، وسالت العبرات وارتفع الحبيب والشبح .

وسار مردوخ وسار خلفه الآلهة جميعا ، حتى إذا بلغوا هيكل الأقدار ، الهيكل الذي يخط فيه مردوخ مصائر الناس ، وصح مردوخ وأطلق البحور وقام الكهنة بالغفوس والمراسيم ، ثم أخذ الملك بيد إلهه وحمله وسار ، وانطلقت الآلهة خلفه صفا صفا .

ترك الموكب أبهاء المعبد وسار في الطريق المقدس وقد غص بالناس . فلما رأوا رب الأرباب والآلهة جميعا خلفه ، اضطربت قلوبهم رهبة وخشعوا ساجدين ، واستأنف الموكب المقدس طريقه ، فاتجه شمالا واجتاز بوابة عشتار حتى أوفى على الفرات .

كان ينتظر مقدم كبير الآلهة قارب مقدس ، وكانت قوارب أخرى تنتظر سائر الآلهة . ودخل مردوخ إله الآلهة وحالق البشر في قاربه ، وراحت القوارب التي تحمل بعول بابل تهادى على صفحة الفرات ، بين تراتيل المشدين وعناء المعين وصلوات الكهنة وابتهالات الناس .

ووصلت القوارب إلى الشاطئ الآخر حيث يقوم الـ « إيزور » ، معبد الصلوات . وأخذ الملك بيد مردوخ فحمله وخرج من قاربه ، وخرجت الآلهة الأخرى من قواربها لتسير خلفه صفا صفا .

وانطلق الراكب المقدس إلى معبد الصلوات حيث وضع رب الأرباب ، ودخل عليه الآلهة إله في إثر إلهه ، وكان كلما دخل عليه إله حياه في رهة وركع أمامه ، كانت التحية تنطلق من أفواه الكهنة مضطربة مرتجفة ، وكانوا يركعون في خشوع وقد حسوا الأنفاس !

وترك كبير الآلهة مع الآلهة الذين يمثلونه في البلدان ويستمدون منه سلطاتهم ، وأغلقت الأبواب ، وجاء الناس من كل فج يحججون إلى الاله « لميزور » معبد الصلوات ، حيث اجتمع الآلهة جميعا في صعيد واحد يستمعون إلى نداءات البشر .

وراح الكهنة يعدون الصحاف الرئيسية التي تقدم للآلهة ، إن الناموس يقضى بتقديم واحد وعشرين خروفاً عمر كل منها ستان ، وأربع نعاج غذيت باللبس ، وخمس وعشرين نعجة من المرتبة الثانية ، وثورين سميين ، وعجل رضيع ، وثمانية حملان ، وستين طيرا من نوعين مختلفين ، وثلاث دجاجات ، وسبع بطات ، وأربعة خنازير من المستنقعات ، وثلاث من بيض الدجاج ، وثلاث من بيض البط .

وأخذ كهنة آخرون يعدون الشراب في أواني الذهب ، إن لعشار وحدها اثني عشر إناء من النبيذ المعصور ، ولسين أو بانا إله القمر عشرة ، وللآلهة الأخرى أواني تختلف في العدد وإن كان شراها جميعا من النبيذ ، ذلك في الغداء والعشاء ، أما في الصباح فلا تشرب الآلهة إلا اللبن المصقى ، ويقدم لها في أواني من المرمر .

وركب آزر في قارب مع القاصدين إلى الاله « لميزور » ، وراح القارب يتأيل فوق مياه الفرات يكاد ينوء بالناس والناس ذاهلون عن الخطر المحقق بهم ، فقد كانوا مشغولين بآهتهم . وبلغ القارب شاطئ معبد الصلاة وكان غاصا بالناس ، فقفز إليه آزر وجعل يشق طريقه ويدفع الناس بمنكبيه حتى

وقف أمام تمثال لمرحوخ قائم في مشكاة في الخائط ، فرقع له وقال في حرارة :

مولاي ! إن آثامي كثيرة وذنوبى عظيمة .

إلهي ! إن آثامي كثيرة وذنوبى عظيمة .

إلهي ! إن آثامي كثيرة وذنوبى عظيمة .

إيها الإله الذي أعرفه أو الذي لست أعرفه ! إن آثامي كثيرة وذنوبى عظيمة .

أيتها الآلهة التي أعرفها أو التي لست أعرفها ! إن آثامي كثيرة وذنوبى عظيمة .

ألا فليخف الغضب في قلب مولاي .

ليهدأ الإله الذي أعرفه أو الذي لا أعرفه .

لتهدأ الآلهة التي أعرفها أو التي لست أعرفها .

أيها الإله اغفر ذنوبى ، فمن غيرك يغفر الذنوب ؟

أيتها الآلهة اعفروا ذنوبى فمن غيركم يغفر الذنوب ؟

أيتها الآلهة التي أعرفها أو التي لست أعرفها ،

اعفروا ذنوبى فمن غيركم يغفر الذنوب ؟

مرت أيام العيد والناس يحججون إلى الـ « إيلور » معبد الصلوات ، وبدأ

الهمس يسرى بين الناس فيرتسم الغلع على الوجوه وترتفع حرارة الابتهالات

ويبعث الدعاء من أعماق القلوب .

وجاء اليوم الحادى عشر من شهر نيسان آخر أيام العيد الكبير ، فوفد

الملك تحف به حاشيته والـ « أوريجاللو » والكهنة والمغنون ، ودخل الملك

وأخذ بيد مرحوخ وسار ومن خلفه الآلهة جميعا صفا صفا ..

واطلق الركب المقدس إلى نهر الفرات ، وتمهات القوارب المقدمة على

صفحة مائه ، واجتار الركب بوابة عشتار ، وراح الناس يتطلعون إلى وحه

الملك في إشفاق ويتهامسون فيعلو وجوههم الرعب ، ويتلفتون في خوف كأنما ستنقض السماء عليهم أو سيخطفهم المجهول .

وسار الركب في الطريق المقدس ، ولاح برج بابل شامخا كأنما يتناول لينطح السماء . وعاد الموكب إلى المعبد من حيث بدأ ، ودخل الملك وال « أوريجاللو » إلى قدس الأقداس ، ووضع مردوخ في مشكاته المذهبة وركع الملك وأدى الصلاة ، ثم خرج وكبير الكهنة في أثره .

وخرجت الآلهة لتفرق في البلاد بعد أن اجتمعت برب الأرباب وقدمت له الخضوع والولاء ، وعرفت ما كتبه للناس في لوح قدره .

وذهب لوجال إلى السوق وباع شعره بشواقل كثيرة واشترى حارية ، وتسلم من البائع ضمانا بعدم وجود عيوب بها ، ثم انطلق لينضم إلى القافلة العائدة إلى أور .

والتقى لوجال وآزر ، ولما رأى آزر الجارية قال له لوجال :

— اشتريتها بعشرة شواقل .

ثم ضحك وقال :

— وقد بعث جحشى بعشرين شاقلا .

قال آزر وهو يتسمم :

— أى أنك بضمن الجحش تشتري جاريتين .

وفهمها لوجال فقال :

— ولكنى لم أشتري إلا حارية واحدة .

وظهر في وجه لوجال أنه تذكر شيئا ، ورأى آزر شرود نظرنه فقال له :

— فيم تفكر ؟

— أسمع ما همس به الناس ؟

قال آزر في اهتمام :

— وجم همسوا ؟

— قالوا إن الملك لم يبك وهو يصلى لمدوخ ، ولم تنهر دموعه لما ضربه الأوريجاللو على خده .

— وكيف عرف الناس ذلك ، إذا كان الملك والأوريجاللو وحدهما في حضرة الإله ؟

— نزل بقرب كبير الكهنة رعب شديد ، حاف من غضب الآلهة فأفضى إلى الكهنة المقربين بمخاوفه .

— ولم يحفظ الكهنة المقربون السر فاحوا به للمقربين منهم ؟

— هذا ما حدث ، وقد أفضى هؤلاء بالسر إلى المقربين منهم فذاع النبأ بين الناس .

— ولكنى لم أسمع همس الناس .

— كنت مشغولاً في صلاتك .

وشرداً زر وتذكر ما رآه أبوه في كبد الأضحية لقد رأى أن الآلهة جميعاً انكفأت على وجوها فتزل بقلبه هم ثقيل ، وانتشرت في صدره رهبة وغمغم :

— خطب نازل .

ولم يسمع لو حال ما يقوله فسأله :

— ماذا تقول ؟

— خطب نازل .. لقد غضبت الآلهة علينا .. حمدت الدموع في عيني

الملك . لم يذرف الدموع .. فسيفرقها نحن .. سنئن .. سنئن .. سنئن ..

ارتفع صراخ مولود في بيت آزر ، فقد وضعت إيمتالى ما في بطنها وجاء ذكرها . كان الليل حالك السواد ، وكان الضوء المنبعث من المسرحة خافتا ، فالفتيلة الصغيرة الطافية فوق سطح الزيت في الإناء الفخارى لا ترسل إلا نورا يجاهد أن يبدد فحسه الليل الجاثمة على أنفاسه ، بيد أن إيمتالى أحست نورا يغمر المكان بعد أن خرج منها ما كان في أحشائها .

وكانت قبل أن تضع حملها خائفة قلقة ، تخشى آلام الوضع التي كان النسوة يسهين في وصفها ، ولكنها عندما وضعت حملها لم تستشعر ألما ، فقد طاف بها نعاس لذيذ واستيقظت منه على بكاء وليدها ، فمس أذنها مسا رقيقا كأعذب الألحان ، وخفق قلبها بالحنان ، وتفتحت نفسها للحياة . لقد صار للحياة معنى آخر وطعم آخر بعد أن نام وليدها إلى جوارها : معنى أعمق من المعنى الذي كانت تفهمه يوم كانت حياتها كلها لآزر ، وطعم ألد من طعم الحياة يوم كانت تعيش في كنف زوجها بلا ولد .

ونامت في البيت الكبير مع وليدها وحدهما بعد أن انضبطت الجارية إلى بيت ناحور لتخيره أن إيمتالى وضعت ذكرها ، وليقوم الجد بالصلاة شكر الآلهة على ما أنعمت ، فلم تحس وحشة بل استشعرت أنسا وأمنا .

وطرقت الحارية باب ناحور ، وانفرج الباب عن جارية تفرك عينيها فقالت جارية آزر :

— أين السيد الكبير ؟

— نائم في غرفته . ما الذي جاء بك الساعة ؟

ولم تحر الجارية جوابا . وانطلقت في الدهليز القصير إلى فناء الدار الرئيسى حيث قامت حوله غرف الطبقة السفلى ، ثم انجهمت إلى السلم مارة بالأعمدة السامقة التى ترتكز عليها الشرفة الخشبية التى تدور حول البيت من الداخل ، وراحت ترقى في الدرج حتى بلغت الشرفة التى تؤدى إلى غرف الطبقة الثانية .

وانجهمت إلى عرفة السيد الكبير وطرقت الباب فى رفق ، ومرت لحظات ثم فتح الباب عن ناحور . كان حليق الرأس واللحية لكأنما كان كاهنا من كهنة الآلهة ، وقد خلفت يد السنين آثارها فى وجهه وحول عينيه ، فما إن وقعت عيناه على الجارية حتى قال :

— وضعت إيمتالى !

فهزت الجارية رأسها أن نعم .

— وضعت ذكرا !

وقالت الجارية فى فرح :

— لكأنه القمر .

ورفع ناحور عينه إلى السماء ، كانت ليلة بلا قمر ولا نجوم فأحس انقاضا . كان يرحو أن يولد حفيده فى ليلة من الليالى التى يتجلى فيها الإله نانا ، فى ليلة يكتمل فيها بدرا ، ليكون لحفيده نصيب من الخير العميم الذى يصيب المحظوظين ممن يولدون تحت عين إله القمر .

وأعاد عينيه إلى وجه الجارية وقال :

— عودى لسيدتك وقولى لها إني قادم .

وانصرفت الجارية ، ودخل الجد ليتطهر قبل أن ينطلق ليصلى لحفيده ويدعو الآلهة أن تباركه ، وأن يبالغ فى الدعاء ليعرضه عن سوء الطالع الذى جعله يمد إلى الدنيا فى يوم اختتمت فيه الآلهة فى القبة الزرقاء .

وانساب ناحور في سواد الليل إلى بيت ابنه وهو يسكر في اسم يطلقه عليه ،
خطر بباله أن يسميه ناحور تخليدا لاسمه ، واستراح للفكرة فراح يوسع من
خطوه ليعلم بذلك الاسم أمام الآلهة ، ويتوسل إليها أن يكون مباركا .

وبلغ ناحور بيت ابنه ، ولم يصعد إلى الطبقة العليا حيث ترقد إيمتاني
وحفيده بل عرج إلى معبد الدار الخاص ، كان غرفة مستطيلة ضيقة يتوسطها
مصلى ومحراب ، وتحت بلاطها قبو يدفن فيه موتى الأسرة .

ركع ناحور أمام تمثال إله القمر وراح يصلي في خشوع ويدعو ويتهل :

— أيها الأب نانا ، إني أخزف الدموع لعظمتك .

حتى يرق لنا قلبك وتقف إلى جانبنا .

إن ابني آرر أيها الإله العظيم قد أنجب ولدا ،

وإني أسميه ناحور وأهبه لك ،

فاجعل سيد الحكمة يهبه قبسا من حكمته ، ويطعمه من « طعام

الحياة » ،

ويسقيه يا إلهي من « ماء الحياة » .

أيها الأب نانا بسرّ لما يرضيت ، واحفظه من أن يتردى في العالم السفلي ،

ولا تكتب عليه أن يذهب إلى « الأرض التي لا رجعة بها » . أنت عادل أيها

الأب العظيم ، وقد وهبته لك فتقبله : ادماء للسماء المقدسة ، خادما للآلهة ،

وامنحه يا إلهي اللمسة المقدسة التي منحتها لأبيه ، حتى يصنع لعظمة

ولعظمتك البعول الكرام تماثيل ترضى عنها ، ويرضى عنها السادة الآلهة في

السماء .

واستغرق ناحور في انركوع وإطلاق البحور حتى بعث إله الشمس

شماس أشعته فعمرت المعبد ، وتعلق السخور بها فبدت كمتائر شفافة من

الفضة ، فهض وانطلق إلى الطبقة العليا حيث ترقد إيمتاني ووليدها .

وألقي على إيمتاني تحية رقيقة ، ثم مال وحمل حفيده ورفع وقبله ، ثم عاد

يتفرس في وجهه ويقول :

— سميت ناحور ، وصليت للآلهة عسى أن تتقبله بقبول حسن .

فقال إيمتالي وهي تنحامي أن تلتقي بعبي :

— ناحور اسم عزيز علينا . حبيب إلى قلوبنا ؛ ولكن ..

— ولكن ماذا ؟

فقال في ارتباك :

— كنا اتفقنا أنا وآزر أن نطلق اسم ناحور على أول أولادنا الذكور .

— وما الذي حدث ؟

— جاءني هاتف في المنام وقال لي سميه « إبراهيم » .

وساد الصمت بينهما برهة وقالت إيمتالي :

— هذه مشيئة الآلهة . سأسميه « إبراهيم » ، وسأسمى أول مولود ذكر

أضعه بعده « ناحور » . فناحور اسم عال عدنا ، وسأسمى الذي بعده

« هاران » تبركا باسم عمه الحبيب .

وشرد ناحور يفكر ، فمعنى « إبراهيم » أبو القبائل .. أبو الأمم . وقد

رأى في منامه أن نورا خرج من صلب ابنه أصاء السماء ، وها هي ذى إيمتالي

تسمع في منامها هاتفا يدعوها أن تسمى ولدها « إبراهيم » ، أن تسميه أبا

الأمم ، فتهللت أساريره وانقضت من صدره موجة الأسى التي طافت به لما

أعرضت إيمتالي عن اسمه . إنه رأى رؤيا ورأت إيمتالي رؤيا . فقال في ابتهاج :

— « إبراهيم » اسم عظيم .

ونظر إلى حفيده الذي كان لا يزال بين يديه نظرة طويلة ثم قال :

— سيكون لك شأن عظيم مع الآلهة ، سيقترن اسمك بالسماء ، سيتألق

نجمك في القبة الزرقاء .

وشرح ناحور منشرح الصدر ليقدم للآلهة قربانا اعترفا بفضلها ،

وشكرا على النعمة التى أنعمت بها على آله ، وفداء للوليد الذى رأى أول ما رأى فى يومه الأول نور شماش إله النور .
ومرت على إيمتالى أيام وهى سعيدة بإبراهيم ، متلهفة على عردة آزر ليرى ابنه الحبيب .

وذات ليلة دخلت الجارية على سيدتها فرحة وقالت :

— وصلت القافلة القادمة من بابل ، وعمما قليل سيكون سيدى ها .
ونهضت إيمتالى تترين وتأتأهب لاستقبال الزوج الغائب ، فمشطت شعرها وجعدته من أمام ليمتوج على كتفها ، وارتدت قميصا طويلا ، وزينت معصمها بأسورة ، ثم استبقت إلى الباب ترقب مجئ زوجها .
وصعد آزر فى الدرج الداخلى وهو ينظر إلى أعلى ، كان الطلام دامسا فقد كان نور المسرحجة التى تضىء داخل الدار خافتا واهنا ، وعلى الرغم من الظلام فقد رأى زوجته بعين بصيرته ، فراح يهرول فى الدرج حتى بلعها واحتاها بين ذراعيه ، ودخلا معا لتقص إيمتالى على زوجها كيف وضعت وليدها ، وكيف جاءها هاتف فى المنام يأمرها أن تدعوه إبراهيم .

وعاد آزر إلى صنع تماثيل الآلهة ويبيعها فى الأسواق ، وكان وحيدا ، وكان يبعد مشقة فى الجمع بين صنع تماثيله والخروج لعرضها على الناس أمام معبد الإله نانا ، فراح يتعجل مرور الزمن ليشب إبراهيم ويعاونه فى بيع تماثيل الآلهة التى يحققها يديه .

وجاء لوجال يزور صديقه ويهته بالمولود ، فاجتمعا فى غرفة الاستقبال المقابلة لدخل الدار ، ودار الحديث بينهما فقال لوجال وهو يدنو برأسه من آزر :

— تذكر أنى عرضت عليك ونحن فى الطريق أن نكوّن شركة معا ، وأن يكون لكل ما نصيب على الشبوع فى الفضة والتجارة والعيّد والإماء ، وأن

تتسع معاملتنا فتشمل الخارج والداخل .

— تعلم يا لوجال أنى لا أمتلك مالا .

— سيكون رأس مال الشركة مينا واحدا من الفضة (٥٠٥ جم) .

— أنا لا أستطيع أن أدفع نصف هذا القدر .

فقال لوجال لصاحبه وهو يتسم :

— أنت تملك هذا البيت ، أليس كذلك ؟

— نعم .

— يمكنك أن تقترض المبلغ من معبد الإله نانا بضممان هذا البيت .

— وفائدة المبلغ ؟

— تسدد من الأرباح .

— وما الذى يضطرنى إلى هذا ؟ أنا رجل قانع .. أنا سعيد بحياتى هذه .

— أنت فى حاجة إلى مال كثير يا آزر ..

— ماذا أفعل به ؟

فرمقه لوجال بنظرة خبيثة وقال :

— لماذا لم تعين كاهنا فى معبد إله القمر يا آزر ؟

— لأننى لست من أبناء الأمراء ، ولأن الفأل لم يرشحنى لأن أكون

كاهنا .

وضحك لوجال ضحكة ممدودة وقال :

— الفأل ؟! أتصدق هذا يا آزر ؟ إنك لم تصبغ كاهنا لأنك لا تملك المال

الذى يرفعك إلى مرتبة الكهانة .

فقال آزر فى خروخ :

— اسكت يا لوجال .. أنت كافر .. كافر .

ولم يمسك لوجال لساه واستمر يقول :

— لو أنك دفعت للأوريجاللو في بابل مالا وفيرا لكان الفأل اختارك ،
ولكنك اليوم كاهنا أو كاهنا أكبر للإله نانا .
فقال آزر وهو يضع سبابته في أذنيه حتى لا يسمع ما يقوله صديقه في حق
الآلهة :

— اسكت يا كافر .. لو لم تكن صديقي لوشيت بك ..

— هذه هي الحقيقة يا آزر ، ولكنك لا تحب أن ترى الحقيقة . إنها
تجارة .. بل أروج تجارة في بابل . لو عرف عني الصلاح الذي عرف عنك
لوضعت كل ما أملك ، بل لا ستدنت من الأصدقاء ومن المعابد لأضع مبلغا
ضخما في يد الأوريجاللو ليجعل الآلهة في مجملتها تختارني لأكون كاهنا من
كبار كهنة الهيكل ، لأصبح شخصية هامة تتدفق شواقل الذهب والفضة إلى
خزائني ؛ ولكنني فاسق يا آزر ، وإلى أدفع الآن ثمن ذلك الفسوق ، وأبحث
عن مورد آخر لا أكسب مالا يرفع قدرى ، ويجعلنى أهلا لأن أدعى لحفلات
الملك واحتفالات رجال الدين .

— لن أشاركك أبدا يا لوجال .

— لماذا ؟

— لأن تجارتك ستبور ، لن تباركها الآلهة .

— أنت واهم يا آزر ، الآلهة لا تبارك إلا تجارة الفاسقين لأن الدنيا لهم ،

تلفت يا عزيزى في أور وقل لى : من من الصالحين يملك مالا ؟

فقال آزر في حماس :

— الملك ورجال الدين .

فجز لوجال على نواجهه وقال :

— يضيق صدري ولا ينطلق لساني ، لو قلت رأيي فهم فلن تقوم لشركنا

التي أرجوها قائمة أبدا .

— ولماذا تصر على أن تكون يينا شركة ؟

— تعودت أن أصارك يا آزر ، أنا لا أملك بيتا ولا أرضا ولا شيئا يمكن أن يضمن الدين الذى أقترصه بولكى أملك الموهبة والتحارب والمهارة ، مالك مع موهبتى .. هذه هى الشركة .

— ألم تقل لى إن رأس مال الشركة مین من الفضة ؟

— ستدفع أنت نصف مین وتقدر جهدى بنصف مین .

— لا بد من وجود صك مكتوب يعين الواجبات المفروضة عليك يا لوجال .

— هات لوحا يكتب فيه الشروط .

وأحضر آزر لوحا من طين لم يجف بعد ، وأحضر قلما سنه مثلث الشكل ، وقدمهما إلى لوجال . عثرد لوجال قليلا ثم بدأ يكتب وهو يردد ما يكتبه :

— رأس مال الشركة مین من المعصية ، يقدم آزر نصف مین ، ويقدر جهد لوجال بنصف مین ، وعلى لوجال عند عودته من رحلته أن يقدم لآزر ما دفعه فى رأس المال مقابل إيصال بذلك ، وأن يقدم له كذلك نصف الأرباح ، وأن يتحجر لنفسه النصف الآخر ، ويتحمل آزر مصاريف الرحلة . فقاطعه آزر :

— تتحمل مصاريف الرحلة متاصفة .

— ولو أن هذا يخالف العرف التجارى و بابل ، فإنى أقبل ذلك لأنك صديقى ...

— وإن قمت بصفقات غير مربحة ؟

— تتحمل وحدك الخسارة .

— حتى ولو كان ذلك بسبب إهمالك أو سوء تصرفك ؟

— إن جاءت الخسارة نتيجة إهمالي أو سوء تصرفي كان علي أن أعيد إليك ما دفعته مضاعفا . هذا هو العرف التجارى ، أما إذا صاع المال بسبب سوء الأمن فى الطرق أو لأسباب قهرية أخرى فإنى لا أدفع شيئا .

— وما أدرانى أن المال قد فقد بأسباب قهرية ؟

— سأقسم بذلك أمام الآلهة .

فابتسم آزر ابتسامة هارئة وقال :

— لكأنك مؤمن بها . ما أيسر القسم الكاذب على من كان كافرا مثلك .

— ألا تثق لى يا آزر ؟

— إنى أثق بك يا لوجال ، وإن كان غريبا أن يثق مؤمن مكافر . أفضل أن

تكون الشركة يثنا بالتضامن ، أنت تدفع نصف رأس المال وأنا أدفع النصف الآخر .

— ومن أين لى نصف مئ من الفضة ؟

— تستطيع أن تقترضه يا لوجال .

— ومصاريف الرحلة ؟

— من العدى أن أتحملها وحدى ونقتسم الأرباح والخسائر بالتساوى ،

وإذا صفيت الشركة فإنها تصفى تصفية عامة من قش التبن إلى الذهب .

فقال لوجال فى حماسة :

— اتفقنا .

— وإن رأيت أن أرسل عبدا من عبيدى معك ؟

— تتكفل بطعامه وشرابه وملبسه .

— ولكنه ليس فى خدمتى ، إنه فى خدمة الشركة ، فعلى الشركة أن

تتكفل بطعامه وملبسه .

فضحكت لوجال وقال :

— دم التجارة يجرى في عروقك يا آزر وإن كنت صانع تماثيل الآلهة .
 — الدم الذى يجرى في عروق دم مردوخ العظيم ، منذ أن خلط دمه بالطين
 وخلفنا ودماءه تجرى في عروقنا ، إلى أعجب يا لوجال كيف أن دم الإله
 يجرى فيك وترتكب كل هذه المعاصى والآثام .
 فقال لوجال ساخرا :

— إلى لا أرتكب المعاصى بدمى ، بل أرتكها بنصيب الطين الذى فى .
 وشرد آزر برهة ، وطل لوجال يرمقه ويحترم صمته ، حتى بان فى وجه
 آزر الانفعال وقال :

— طافت برأسى أمنية .

— ما هى ؟

— أن تستمر الشركة بيننا وتزدهر حتى يشب إبراهيم ويذهب معك إلى
 بلاد المعادن وأخشاب الأرز والأحجار الكريمة . ثم أر من بلاد الدنيا غير أور
 وبابل وما بينهما ، ولكنى أرجو أن يرى ابنى العالم ، أن يذهب جنوبا وشمالا
 وشرقا وغربا .

— وما الذى يربطك بالأرض يا آزر ؟ تعال معى ما دمت تتوق إلى زيارة
 الدنيا .

— لا أطيق البعد عن أرض الآلهة أبدا . لو انقضى يوم دون أن أصلى فى
 المعبد فىنى لا أحسبه من عمرى .

— هيا نحر العقد وبوقه ، ونبتل إلى الآلهة أن تمد فى عمره حتى يرثه
 إبراهيم وإخوته ، وابنى نور شماش وإخوته .

ورمقه آزر فى دهش وقال :

— أنت محرر يا لوجال ، تسحر من الآلهة ونسبى إيلك نور شماش ، ثم
 لا تفنأ تذكر الابتهاال إلى الآلهة .

— أنا مؤمن يا آرر ، وإن كان إيماني يختلف عن إيمان الكثيرين ، أنا مؤمن
متحرر .

— ما دمت مؤمنا يا صديقي فهيا إلى المعبد نقسم بمردوخ وشماش وبانا
أننا سنخلص لهذه الشركة ونوقع العقد أمام السبعة عشر شاهدا من الكهنة
الأطهار .

— هيا يا آرر ، وإن كنت لا أثق أن الكهنة الشهود من الأطهار .
ورمقة آرر في عتاب ، ثم اطلقا إلى معبد بانا ليؤسسا شركة للتجارة في
الشعير والعبيد والإماء ، تعمل في داخل البلاد وخارجها .

ومرت الأيام ووضعت إيمتلى ولدتهن ذكرين ، فأوفت بوعدھا للسيد الكبير وسمت أكبرهما « ناحور » وسمت الآخر « هاران » تيمنا باسم عمه الحبيب ، وشب إبراهيم وراح يتحول في البيت ، يمرح في الشرفة التي تفتح عليها أبواب عرف الطبقة العليا ، ويهبط في الدرج إلى فناء الدار الداخلي الذي تطل عليه نوافذ البيت ويذهب إلى حيث يجلس أبوه يصنع تماثيل الآلهة .

كان يمضي أغلب وقته يرصد أباه وهو ينشر الخشب ويشكله في مهارة عجيبة . كان يصنع في الغالب تماثالا على هيئة إنسان إلا أن أذنيه كبيرتان ، وكان ذلك الإنسان يحمل السلاح المقدس ويربص تحت قدميه وحش ، وكان بعد أن ينتهي من صنعه يصنع على رأس التمثال تاجا ، ويلبسه رداء كاهن أكبر تصعه أمه ، وكان يلف حول وسطه حزاما من سعف الحل .

إنه يذكر أنه قال لأبيه مرة :

— إن أذنيه كبيرتان يا أبني ، أكبر من آذاننا ؟

— إنه مردوخ رب الأرباب يا بني ، وهاتان الأذنان الكبيرتان ترمزان إلى فهمه العميق .

ونظر إلى التمثال الذي بين يدي أبيه ورنث في أذنيه مقالته : « فهمه العميق .. فهمه العميق » ولم يفهم إبراهيم شيئا فقد كان لا يزال حدثا ، وكان غاية ما يفهمه أن أباه يصنع دمي للعب والعبث !

ورأى أباه يصنع تماثيل لأناس يجلسون على كراسي ، وأماس يحملون

حرايا ، وراه مرة يصنع غثالا لسيدة فقال له :
— من هذه يا أبى ؟

— هذه عشتار ، عشتار الغضوب ، عشتار العطوف .
ولم يقل عشتار إلهة اللذة ، فما كان يدرى بعد ما اللذة وما الألم . وفى
ذات يوم رآه يصنع عرشا وتاجا فقال :
— ومن هذا يا أبى ؟

— هذا الإله إنليل هذا الذى أحدث الطوفان الذى رويت لك قصته .
— لم أفهم يا أبى لماذا أغرق البلاد وأهلك الناس ؟
— لأن الناس ضلوا ، أفسدوا فى الأرض .. عصوا الآلهة .
ولم يفهم الصلة بين الآلهة وتلك التماثيل التى يصنعها أبوه بيديه ويشكلها
كيف يشاء ، يدق على رعوها بقدمه ، وقد يشق أحدها شقا ، أو يدق
عنقه إذا لم تعجبه صناعته .

ودخل معبد الدار فرأى محرابا فى وسطه ، ورأى التماثيل التى صنعها أبوه
بيديه . وقد ثارت دهشته لما رأى أباه يركع للتماثيل التى ابتدعها فيه ، ورادت
دهشته لما رأى حذو يفعل ما يفعله أبوه ، وبلغ عجبه متناه لما رأى أمه تفعل
ما يفعله أبوه وجده .

وذات يوم لم يستطع أن يكمم ما يدور برأسه ، فدنا من أبيه بعد أن أتم
صلاته وقال له :

— لماذا تركع يا أبى لهذه التماثيل ؟

— لأنها الآلهة التى خلقتنا ؟

— أنت الذى صنعنا يا أبى بيدك . أنت الذى تخلقها كل يوم !

— لا يا إبراهيم ، أنا أصع رمزا للآلهة أجسمها لأعين الناس . أما الآلهة
فهى فى السماء حالسة على عروشها .
ودنا آزر من إبراهيم وصمه إلى صدره فى حنا وقال له :

— أتذكر كوكب المشتري الذى كان فى السماء ، ليلة كنا جالسين فوق سطح الدار ؟

— أذكره يا أبتاه .

— هذا هو كبير الآلهة ، مردوخ العظيم رب الأرباب .

وأشار الأب إلى تمثال مردوخ وقال :

— هذا التمثال الذى صنعته إن هو إلا رمز لكبير الآلهة .

ولاح فى وجه إبراهيم أنه لا يفهم ما يقوله أبوه . واستمر آزر فى حديثه :

— أرايت القمر يا إبراهيم ؟

— نعم يا أبت .

— إنه إله أور .. إله مدينتنا يا إبراهيم . إنه الإله نانا ، وفى بعض البلاد

الأخرى الإله سين .

وأشار إلى تمثال من التماثيل التى صنعها وقال :

— هذا التمثال الذى صنعته إن هو إلا رمز له .

ثم قال فى هدوء :

— أرايت الشمس يا إبراهيم ؟

ولم يدعه إبراهيم يتم مقالته . وسأله :

— ولماذا تعبد يا أبى كل هذه الآلهة ؟

— لأنها هى التى خلقتنا ورزقتنا وأسبلت حمايتها علينا .

فشرد إبراهيم قليلا وقال :

— ومن الذى خلق هذه الآلهة يا أبتاه ؟

فراح آزر يرتل فى إيمان :

حين لم تكن السماء العلا قد سميت بعد ،

ولم يكن للأرض من تحتها اسم بعد .

احتلظت المياه من أبسو الأرى أيهم ،
ومن تيامات الصاخبة أم الجميع ، فاتحدا .
وحين لم تكن الأجسام قد ست بعد ، ولم تكن غياض القصب قد عرفت
طريقها إلى الوجود ،

وحين لم يكن هناك إله له اسم ،
وحين لم يكن هناك قدر مرسوم ،
خلقت الآلهة .

نظر إبراهيم إلى أبيه طويلا ، ولم تقبل فطرته السليمة ذلك التفسير ، كانت
بدور الشك قد أقيمت في أغوار نفسه بيد أنه لم يكن يدري بعد ما يقول . قال
له أبوه :

— عندما تكبر يا بني وتتسع مداركك ، ويمنحك الإله مردوخ بعمة
الفهم ، فستدرك أسرار الآلهة .

وصمت الأب قليلا ثم قال :

— عدا آخذك معي إلى المعبد ، وبعد غد نذهب إلى حلك ناحور ليعلمك
الحساب والنظر في النجوم .

فلما كان الغد خرج آزر وإبراهيم وانطلقا إلى معبد الإله نانا إله القمر ،
فلما بلغا حرم المدينة — البقعة المقدسة — راح إبراهيم يتلفت . كان الحرم
المقدس فسيحا ، طوله أربعمائه ذراع وعرضه مائتا ذراع ، وقام على قاعدة
مرتفعة في الرواية الغربية مه الرقوة ، البرح المدرج ، أعظم مباني المدينة
ارتفاعا .

رفع إبراهيم بصره ينظر إلى البرج الشاهق ، مرأى عند قدمته شيئا لم يستطع
أن يتبينه فقال لأبيه :

— ما هذا الذي عند البرج يا أبت ؟

فقال آزر في زهو :

— هذا مزار الإله نانا .

— ولماذا بنى على هذا الارتفاع الشاهق ؟

— إننا في الأصل من الجبال يا إبراهيم ، وكان آلتنا يعيشون على قمم الجبال . فلما جئنا إلى هذه السهول لم نجد مرتفعات ، فبنا هذه الأبراج وجعلنا مزارات الآلهة عند قممها . إن هذا برج عظيم يا بنى ، ولكن إذا كبرت وصرت رجلا وقدرت لك الآلهة الذهاب إلى بابل ، فسترى برجا يليق بمقام رب الأرباب .

ورأى إبراهيم عند قاعدة الزقوة ساحة واسعة تحيط بها غرف كثيرة . فقال لأبيه :

— وما هذه الغرف يا أبتاه ؟

— هذه مخازن المعبد يا بنى .

ورأى عندها بعض الفلاحين يجلبون على ظهور الحمير الحبوب والزيت والسمن والحنن والجلود والصوف والكتان ، ورأى أناسا من المدينة يجلبون الأقمشة والملابس . إنها النور التي تذروها للإله نانا ! راحوا يقدمون النور إلى كهنة المعبد ، فكان الكهنة يأخذونها منهم فيزنونها ويدونونها في سجل قبل أن تنقل إلى المخازن ، ثم يحرقونها إيصالا على لوحة طينية ، تحفظ منه نسخة في سجلات المعبد ، وتسلم نسخة للذين يوفون بتذوئهم .

سار إبراهيم بخطى وثيدة بمد بصره إلى كل شيء ، فوقعت عيناه على رصيف قريب من المعبد يقع على رأس قناة ، وقد رست على الرصيف سفن محملة بالأخشاب والذهب والمحاسن والأحجار الكريمة والبحور .

ولفت إبراهيم نظر أبيه إلى تلك السفن ، فقال آزر وهو ينسم ابتسامة

رضا :

— هذه يا بنى هدايا المعبد وتذور الناس .

وارتفعت ضوضاء الناس وهم يتصايحون ويتدافعون ويتزاحمون لتقديم الهدايا للإله نانا .

ورأى إبراهيم فوق مدخل الفناء الذى يضم مخازن المعبد بباء ذا طبقتين ، وفطن آزر إلى أن ابنه يقلب وجهه فى ذلك البناء فقال له :

— هذه مساكن موظفى المعبد .

— كل هذه الغرف لموظفى المعبد ؟

— إنهم يمارسون فيها أعمالهم .

— أعمالهم ؟

— أعمالهم أجل شأننا من أعمال الدولة ، فالدولة تخدم الناس أما موظفو المعبد فيخدمون الآلهة . الملك نفسه خادم من خدام المعبد ، فهو يوم بباء المعبد يحمل على رأسه وعاء الملائط ، ويقدم القرابين للآلهة ويرجو مخلصا أن تتقبلها منه .

— إنها غرف كثيرة .

— إنها غرف كبير الكهنة ، والكهنة ، ومدير أملاك المعبد ، ورئيس الحرم ، والكبة .

وشرد آزر قليلا ؛ كانت أمنيته أن يكون كاهنا من هؤلاء الكهنة الذين أسعدهم الحظ أن يكرسوا حياتهم لخدمة الآلهة ، ولكن الفأل لم يحقق له أغلى أمنية راودت خياله . ورن فى ضميره صوت صديقه لوجال وهو يقول له : « لو دفعت للأوربجاللو الثمن لكنت الآن كاهنا أو كبيرا للكهنة » . وضايقه أن تطوف بذهنه مثل هذه الأقوال الفاجرة ، فراح يجاهد أن يحو من ذهنه هذه الخواطر التى تقلقه وتجعله يتلفت مرعوبا خشية أن تبتطش به الآلهة .

ورأى إبراهيم العاهرات انقدسات جالسات فى الطريق المقدس يعرلن

الصوف وينسجته ، فقال لأبيه وهو ينظر إليهن :

— من هؤلاء يا أبت ؟

— هؤلاء اللاتي وهبن أنفسهن لخدمة الآلهة .

وسار إلى الفناء الداخلى فإذا بمعبد نانا أمامهما . كان أشبه بالقلعة مجدراته السمكة وأبراجه المحصنة ، ويقابله معبد زوجته ننكال ، ثم يقوم بعد ذلك الحزار المشترك والطريق المقدس الذى يفضى إلى قدس الأقداس .

وملأت خياشيم إبراهيم روائح لحم يطهى ، فراح يتلفت فوقعت عيناه على مطبخ المعبد حيث تطهى الضحايا ، وعلى الخنايز ومحال تسخين المياه والمتضاد الحجرية التى تقطع عليها الذبائح .

ودخل معبد إله القمر حلف أبيه ، فألقى نفسه فى ساحة واسعة رينت جذراتها بنقوش من الفسيفساء محلاة بالذهب والفضة والرمرد والفيروز والمرحان ، ووقعت عيناه على كوة كسيت بالذهب وقام فيها تمثال لا يكاد يفرق عن التماثيل التى يصنعها أبوه . كان لرجل جالس على عرشه يحمل فى يده الفأس وسلسلة القياس .

وبين الدهشة والعجب رأى الناس يركعون للتمثال فى خشوع ، وازداد عجب لما رأى أباه يتقدم من التمثال فى إيمان وبهمس فى صوت متهدح :

— الإله نانا إله القمر ، اركع يا إبراهيم .

وركع آزر ووقف إبراهيم متصبيا يتلفت . رأى أباه يدرف الدموع وهو يتהל ويتوسل ، ورأى رجالا ونساء يبكون وعبراتهم تحنهم ، وعجب من أن يجرى كل ذلك أمام تمثال من التماثيل التى كان أبوه هذا الصباح يصنع مثلها ، ويدق رعوسها بقدمه ، ويلبسها من الأثواب التى تصنعها أمه .

وخطر بذهه الصاق أن الفلاحين الذين وفدوا من كل فج من البلاد يحملون الخيرات إلى مخازن المعبد إنما وفدوا من أجل هذا الصنم ، وأن أهل

المدينة الذين جاءوا بالملابس وشواقل الفضة إنما جاءوا هذه الهدايا لهذا
الصنم ، وأن السفن الكبيرة الراسية على رصيف المعبد والتي تحمل الحبوب
والأخشاب والأنعام وكل ما تنبت الأرض من خيرات ، ما وفدت بالندور إلا
تقريباً من هذا الصنم . وبدرت في نفسه انطاهرة بذرة سوف تتعهدا الأيام
بالرعاية والسقيا حتى تزدهر وتثمر .

اجتمع في ساحة المعبد « العاميلو » الأحرار و « المسكيو » أبناء الطبقة
المتوسطة والمعبد ، الرجال والنساء .. الشيوخ والعجائز والشبان
والولدان ؛ كانوا جميعاً يركعون أمام تمثال نانا ، إلا إبراهيم فقد وقف شاخ
الرأس يرنو إلى كل ما يجري حوله بعينين مفتوحتين وقلب سليم ودهس لسان .
وبلغ أذنيه صلاة أبيه فأرهمف السمع . كان يتهلل إلى صنم مردوخ :
إلهي ! مثلما قدرت مصائر ما صنعت يدك .

ورزقتها الخبز لتأكل ، وباركتها وقلت بها قرايبها ؛

فبارك لي يا إلهي فيما صنعت يدي ،

وتقبله مني قرايين لعظمة ألوهيتك .

أدار عييه في التماثيل الكثيرة القائمة في المعبد ، وولدت في ذهنه فكرة لم
تكن واضحة ، كانت بعد مغلفة بضباب كثيف ، كانت بعد حيطاً رفيعاً
مضيقاً سوف يتضح رويداً رويداً حتى يتألق النور ويهر ذهنه : أي هذه
الأصنام قادر على أن يستجيب لدعاء أبيه ؟

وأنم آزر صلاته ودعائه وتوسلاته وابتهالاته ، وجفف ما بقي في عينيه من

دموع ، ثم ذهب إلى حيث وقف إبراهيم وقال له يشير إلى تمثال مردوخ :

— اذهب يا بني وارفع لكبير الآلهة « رب الأرباب » ملك الملوك .

فدار إبراهيم على عقبه وغادر المعبد مهرولاً ، واطلق أبوه في أثره حتى لحق

به في فناء الحرم المقدس بالقرب من الزقوة برج بانا الصرح المدرج ، وقال له :

— لماذا لم تركع لكبير الآلهة يا إبراهيم ؟

نظر إبراهيم إلى أبيه نظرة طويلة ولم يحرجوا ، فقال له آزر :
— لا تزال صغيرا يا بني ، إني عندما ركعت أمام رب الأرباب وابتللت
إليه في حرارة سألت دموعي وألقى في روعي أن سيكون لك يا إبراهيم شأن
عظيم مع الآلهة ، ومع مردوخ كبيرهم العظيم .
وانطلقا حتى إذا بلعا الفناء الخارجى ولاحت لهما البوابة التي تقود إلى
الحرم المقدس ، قال آزر وقد شرد ببصرة كأنما يحلم ، أو كأنما يحاول أن يرى
المستقبل :

— أترى هذه البوابة يا إبراهيم ؟

فهز إبراهيم رأسه أن نعم ، فقال آزر في بهرات حائلة :

— عندما تكبر يا إبراهيم ستقف عند هذه البوابة ، وتبيع للناس تماثيل الآلهة
التي أصعها .. وستباركك الآلهة يا بني .
وارتسمت على وجه آزر إشراقة أمل وتفاؤل ، ولم يبد على وجه إبراهيم
الاقتناع .

خرج إبراهيم إلى شوارع أور ؛ كان في طريقه إلى بيت جده ليتعلم النحو والدفعة والحساب والعنك والنظر في السحوم . لقد خلف وراءه المعبد والبحر والحرم المقدس وسار بين الحقول والحدائق يحدق في الغادين والرائحين .

رأى التلاميذ في طريقهم إلى مدارسهم وكانوا من أبناء « العاميلو » أبناء الحكام والوجهاء والسفراء والمشرفين على المعابد وصباط الجيش والبحرية وموظفي الضرائب والكهنة .. أبناء الأغنياء القادرين على دفع تكاليف التعليم . وهم يلتحقون بعد أن يتخرجوا في مدارسهم بخدمة المعبد والقصر وخدمه الأغنياء . لم يشعر إبراهيم نحوهم بحسد ، فقد كان يحس في قرارة نفسه على الرغم من أنه ما يزال صبيا أنه قادر على أن يكون شيئا وإن لم يلتحق بمدرسة من المدارس الكثيرة المنتشرة في أور .

ورأى بعض رجال الجيش في طريقهم إلى معسكراتهم ، وكانت وظائف الجيش الكبيرة وقعا على « أبناء العاميلو » ، أبناء الطبقة الأرستقراطية .. كانوا يؤلفون كائب الأسلحة الثقيلة ، أما أبناء « المسكينو » أبناء الطبقة المتوسطة فقد كانوا يقومون بالخدمة في المعسكرات ، وقد يؤلفون بعض الكتائب التي تزود بالأسلحة الخفيفة ، أما العبيد فلم يكن لهم شرف الخدمة العسكرية .

نظر إلى ضابط الجيش المنطقيين إلى معسكراتهم مرفوعي الرؤوس يحطرون في زهو في ملابسهم الرسمية . ولم يحلم أن يكون واحدا منهم بل خطر بدهه

أن يتولى قيادتهم ، على الرغم من أنه سمع من أبيه أكثر من مرة أن الملك هو الذى يتولى القيادة بنفسه ، لأنه ظل إله الحرب فى الأرض ، بل لأنه إله الحرب نفسه .

وسار فى طريقه يتلفت يرقب التجار وهم فى طريقهم إلى الأسواق والموانى ، والفلاحين وهم يعملون فى الحقول ، ويتأمل الزرع والأشجار والدواب والأنعام والطيور ، ويقلب وجهه فى السماء ويمد بصره إلى الأفق البعيد ؛ كان شغوفاً بأن يتعرف على الكون العجيب الذى يعيش فيه . وبلغ بيت جده وصعد فى الدرج إلى الطبقة الثانية حيث يعيش ناحور . ودخل عليه فألماه بمس عينيه بمرهم هو مريخ من خلاصة السحاس الحام والجمعة .

قال ناحور لحفيده :

— عباى اليوم متعبان يا إبراهيم ، فلست أستطيع أن أكتب لك لوحات كتبت مثله ، ولكنى سأقص عليك ما أعرفه عن النجوم ، وسأعلمك كيف تنظر فيها .

وراح ناحور يروى لإبراهيم أن عدد النجوم يبلغ واحداً وسبعين نجماً ، وأن هذه النجوم مقسمة إلى ثلاث محاميع يحكم كل مجموعة أحد الآلهة العظام ؛ فثم ثلاثة وثلاثون نجماً لإلليل ، وثلاثة وعشرون لأونو ، وخمسة عشر « أيا » .

وراح يعلمه أسماء الشهور والعلاقة بين الشهور ومولد القمر واختفائه ، ومتى تكون السنة ثلاثة عشر شهراً ، ومتى تكون أربعة عشر ، وكيف يحدد أول يوم من تيسان الشهر المقدس ، شهر العيد الكبير عيد مردوخ العظيم . تعلم إبراهيم على جده الكتابة بأقلام القصب على ألواح الطين ، وتعلم المقاييس والموازين ، والعلاقة بين الذراع ، وانقدم دى العشرين إصعاً ،

واليد المفتوحة ذات الخمس عشرة إصبعاً ، ويد البناء ذات العشر الأصابع .
عرف إبراهيم أن « يد البناء » عشر أصابع ، وأن اليد المفتوحة خمس
عشرة إصبعاً ، وأن القدم عشرون إصبعاً ، وأن الذراع ثلاثون إصبعاً ، وأن
القصبية ست أدرع ، وعرف وحدات قياس المساحة والمكاييل من « الحور »
الملكي إلى الـ « قا » . وعرف الموازين من القمح والشاقل الصغير إلى المين
والوزنة .

وكان أكثر ما يسمعه من جده عن التمجيد واللاهوت ، فعرف من جده
ومن أبيه أن السعيد من رضيت عنه الآلهة . وأن الشقي من غضت عليه ،
وأن لكل مؤمن إلهاً حارساً يسكن جسده ، فإذا ارتكب العبد ما يفض
إلنائه تخلى عنه الإله وترك جسده لتسكنه الأرواح الشريرة ، التي تحر معها
المصائب والنكبات والشقاء المقيم .

وعلمه جده أن السحر هو الذى يطرد الأرواح الشريرة . وأن رضا الآلهة
يكتسب من جديد بالصلاة والتضحيات والتطهر ، وأن الآلهة حين خلقت
البشر جعلت الموت نهاية حياة الإنسان . وأن الفرق بين الآلهة والبشر أن
البشر يموتون أما الآلهة فلهم وحدهم الخلود ، وأن البشر يذهبون عقب الموت
إلى العالم السفلى ، إلى الأرض التي لا رجعة منها ، وأن الهدف من الصلاة هو
إطالة عمر الإنسان ليسعد بطيبات الحياة قبل أن يذوق الموت ، وكم سمع أباه
وجده يتهلان إلى نانا إله القمر : « خلصنى يا إلهى من الإثم ، وامنحنى
الحياة أياماً طويلة » .

وعلمه جده أن ظل الميت يغادر جسده عقب الموت ويتحول إلى روح
شريرة تنضم إلى طبقة الأشرار ، وهى لا تستريح إلا إذا دفنت الحنثة ، وأن على
أهل الميت أن يقدموا له طعام القربان مرة كل شهر اتقاءً لأداه .

وعلمه جده أن الميت إذا مات دفن وحده ، أما إذا مات الملك فيتعين أن يدفن معه جميع أفراد حاشيته من زوجات وصباط وحنود وخدام وموسيقيين ، يهبطون جميعا إلى قبر الملك حيث يقيمون اطقوس والمراسم الدينية ، ثم يتناولون السم ، وبعد ذلك يهال التراب عليهم وعلى أوابيهم وأسلحتهم ، وقبائرهم ومزاميرهم ، وحنجرتهم المظلمة بالذهب ، وأدوات زيتهم ، وكل نادر ونفيس مما كانوا يستخدمونه قبل أن يكتب عليهم الموت بموت ملكهم الإله .

تعلم إبراهيم من جده ناحور ومن أبيه آزر ومن أمه إسمتالي ومن عمه هاران معتقدات قومه ، ورشف من حصاراتهم ، بيد أنه لم يأخذ ما تعلم على أنه حقيقة لا تقبل المناقشة ، بل كان يحص ما يسمع وما يرى بعقله الذي كان يفتح على مر الأيام .

وقد استطاع إبراهيم بتأملاته أن يربط بين نفسه وبين الكون الذي يعيش فيه ، وأن يستريح إلى التعاطف والصدقة والمحبة التي بدأت أواصرها تربط بينه وبين كل ما ينبض حوله بالحياة .

وعاد إبراهيم ذات يوم إلى الدار قبل الموعد الذي اعتاد أن يعود فيه منذ أصبح يتردد على بيت جده ، فألقى أباه عاكما على صنع تمثال لعشتار ، يصورها وهي تقف على أسدين وتلبس حبة السهام ، وفي إحدى يديها سلاح مقوس ، وفي الأخرى صولجان يتكون من عصا يتفرع منها سلاحان مقوسان ، في قمة كل منهما رأس أسد . كان التمثال لا يرمز إلى الإلهة المتقلبة التي تعرى البشر بعك ككوس اللذة ، بل يرمز إلى عشتار إلهة الحرب . نوى إبراهيم شفته السفلى زراية ، فما كان عقله يسيغ أن تكون امرأة ذكرا في الصباح وأُنثى في المساء ، وأن تكون إلهة للذة وفي نفس الوقت إلهة

للحرب . وعجب إبراهيم لأن هذا التمثال الذى يمثل المرأة التى لا هم لها إلا غواية البشر هو أكثر التماثيل رواجاً بين الناس ، فمحبوها لا يخصصهم العد .
رفع آزر رأسه عن التمثال وقال :

— جئت مبكراً اليوم يا بنى .

— جدى مريض يا أبت .

وذهبت إيمتالى وآزر وإبراهيم لعيادة ناحور، فوجدوا عنده هساران وزوجه، وقد جاء له بكاهن يرتل للآلهة أن يكون بها غضب عليه وارتفع صوت الكاهن يتلو:

حين خلق أنو وإنليل وأيا السماء والأرض ..

وغلب إبراهيم العاس فام ، ولم يستيقظ إلا على صوت أمه تناديه :

— إبراهيم إبراهيم ! قم .. إنا ذاهبون .

ونفض إبراهيم وسار مع أمه ، وما ابتعدا خطوات حتى هرعت الجارية إلى إيمتالى وقالت لها وهى تتلفت :

— لقد كثرت الصراصير فى البيت مد أن مرض سيدى .

ولاح الخوف فى وجه إيمتالى ، ونظر إبراهيم إلى أمه وإلى الجارية وهو مدهوش لا يفهم شيئاً ، ثم قال :

— ماذا تعنى يا أماء ؟

فقالت إيمتالى فى صوت خافت متهدج :

— إن كثرة الصراصير فى البيت فال سيئ يا بنى

ولحق آزر بزوجه وابنه وقال :

— لقد اتفقنا مع الكاهن على أن يقدم فى الفجر ثلاث أضحيات للبعوز

الكبار أنو وإنليل وأيا .

فقالت إيمتالى : — حسنا فعلم .

ولم ينس إبراهيم بكلمة وقال آزر :

— بعد أن تقدم الأضحيات ويرضى الآلهة ، يصبح أبى بارثا .

وقدمت الأضحيات إلى البعول الكبار ، وضرب الكاهن على الطبول المقدسة وغنى تمجيدا لإيليل ، وصلى وابتهل وحرق الخور استعطافا للآلهة ، وراح يدعوها أن تطيل أيام ناحور الصالح ليقدم إليها القرابين والأعمال الصالحة .

وأصبح الصباح ، وخف آزر وإيمتالى وإبراهيم لعبادة المريض .

كان آزر متعائلا بعد ما أخرى من طقوس لاسترضاء الآلهة ، وكانت إيمتالى شاردة تفكر في الصراصير الكثيرة التى ملأت بيت الشيخ ناحور ؛ وكان إبراهيم يحاهد ليستين سبب الحيرة التى تملكته ، فثم سؤال يفرض نفسه عليه : لماذا يولد الإنسان ولماذا يموت ؟

وراح الثلاثة يصعدون فى الدرج ليلعبوا غرفة المريض وقد لاح فى وجوههم القلق ، كان آزر — على الرغم من تفاؤله الذى أبداه فى الصباح — مشفقا على أبيه أن يذوق الموت الذى ينقله إلى العالم السفلى ، إلى الأرض التى لا رجعة منها ؛ وكانت إيمتالى تخشى أن يتحقق القول السيئ الذى أعلن عنه تكاثر الصراصير فى جنبات الدار ، وكان إبراهيم حزينا واجما فقد توطدت الصداقة بينه وبين جده ، حتى لتغمره السعادة ما كان معه ، وإن كان عقله يرفض كثيرا من الأساطير التى يقصها عليه .

ودخلوا على ناحور فألفوه مسجى فى فراشه وقد أطبق جفنيه وعلت الصفرة وجهه . فوقف آزر عند رأسه ووقف إبراهيم عن كعب يرمو إليه وهو باسر الوجه .

وفتح ناحور عينيه فرأى إبراهيم فأشار إليه أن يقترب ، ففقد إبراهيم منه ، فرفع ناحور ذراعه ووضع يده على رأس حفيده ، وتذكر الرؤيا التى رآها ،

رؤيا آزر وقد خرج من صلبه عمود نور أضاء السماء . أحس في تلك اللحظة أن إبراهيم هو النور الذى سيهر القبة الرقواء . واستشعر ناحور جهدا فأعاد دراعه إلى جواره ، وهو مبهور النفس لا يقوى أن يفتح عينيه . وعلى الرغم من أن طقوس الكاهن وأصحياته لم يظهر لها أثر ، فقد جاعوا بكاهن آخر قال بعد أن رأى المريض :

— أريد خنزيرا من المستنقعات ، وسبعة أرغفة سويت تحت الرماد .
وانطلق آزر ليحضر الخنزير ، وذهبت إيمتالى والجارية وزوجة هاران ليسوئى الأرغفة تحت الرماد . وبقي هاران مع الكاهن ، أما إبراهيم فذهب بعيدا بقلب وجهه فى السماء .
وعاد آزر بالخنزير ، وجاءت الجارية تحمل الأرغفة السبعة ، وقال الكاهن :

— على بالموقد والمشعل .
وجئ بالموقد والمشعل ، وذبح الكاهن الخنزير وقسمه إلى ستة أجزاء وضعها على ناحور ، وجاء بقلب الخنزير ووضعها إلى جنب فراشه ، ثم غسل ناحور بالماء المقدس .

وجيء بتمثال لمردوح رب الأرباب ، وألقى البخور فى الموقد ، وراح الكاهن يتلو فى صوت أقرب إلى الغناء :

الخنزير فداء لناحور .
اللحم عوض عن لحمه ،
والدم عوض عن دمه ،
اجعل الشياطين تتقبل
القلب الذى وضعته إلى جنب فراشه ،
وامنحه إياه عوضا عن قلبه ، ولتقبله .

وذهب الكاهن إلى الباب فأغلقه مرتين كأنما يقلقه في وجه الشياطين التي تقبلت الفداء ، ووضع السبعة الأرعفة التي سويت تحت الرماد بالقرب من الباب المغلق ، وأمر أن ترفع في المعجر عندما يبدأ الإله نانا رحلته اليومية . وانقضت أيام ولم يبرأ ناحور من مرضه ، فحىء العراف ليستقرئ الأوانى ويرى إن كان سيشفى أو سيذهب إلى الأرض التي لا رجعة منها .

وجاء العراف وكان حليق الشعر واللحية يرتدى إزارا أبيض ، وكانت عيناه واسعتين يشع منهما بريق ، وطلب إناء به ماء وآخر بعض الزيت . وجىء بالإناءين ، وراح العراف يقرأ على إناء الماء ، ثم سكب فيه نقطة من الزيت . وأخذ يحرق في نقطة الزيت وفي حركتها وتشككها على سطح الماء ، كأنما تركزت قواه كلها في عينيه .

وتعلقت العيون بوجه العراف تحاول أن تقرأ الأفعالات التي ترسم عليه ، وأن تستشف ما يرى قبل أن تنطق به شفتاه . الجارية تقف في الشرفة التي تطل على فناء الدار الداخلي ترصد وجه العراف في اهتمام وقد حبست أنفاسها ، وإيماناً أمامها ، وروحة العم هاران بالقرب من زوجها ، أما آزر فقد جلس على حافة فراش أبيه المسجى ، الذى لا يدري مما حوله شيئاً .

ومس أذنى الجارية حلق جناحين فالتفتت نحو الصوت ، فإذا صقر يحوم في ساء الدار ثم يرتفع ويطلق بعيداً . وخفق قلبها في خوف ، فدخل طائر جارح البيت ثم خرج منه نذير بموت صاحبه .

وقطب العراف حبيبه ونهض ، ثم قال وهو يهز رأسه أسفاً :

— سيموت .

وساد المكان سكون رهيب ، ولاحت الدموع في أعين السموة ، وظهر القهر في وجه آزر ، وتملك اليأس هاران ، فقد عجز الطبيب وأخفق الكاهن في إرضاء الآلهة فلم تقبل القرابين والأصحيات التي أريق دمها ، وأكد

المنحمنون والعرافون أن أيام ناحور على الأرض قليلة ، وأنه قد آن أوان نزوله إلى العالم السفلى ، إلى الأرض التى لا رجعة منها .

وجلس إبراهيم وحده فى غرفة الاستقبال المواجهة لباب الدار يفكر فى الحياة والموت ، وفى الطقوس التى جرت فى بيت جده منذ أول يوم مرض فيه الشيخ ، وفى الآلهة الكثيرة التى توسل إليها الكهنة أن تطيل أيام ناحور على الأرض ، وفى الموت والعالم السفلى الذى لا رجعة منه .
ومات ناحور .

وخف أبأوه لتجهيره والإسراع بدفنه ، لا تكريما له بل خشية منه فإنه إن تركت جسده فى الدار مدة فإن ظله الذى غادر جسده يتحول إلى روح شريرة « اديمو » تنضم إلى الأشرار ، ولا تستقر ولا تستريح طالما أن الجثة لم تدهس . وكثر الحديث عن بيت الظلام ، البيت الذى لا يخرج منه من يدخله ، إنه مكان مسور سبعة حوائط فى كل حائط بوابة عظيمة ، والمكان غارق فى الظلام كأنه ليل سرمدة ، والموتى فيه يرتدون ثيابا من ريش الطيور ، ويأكلون التراب ويتغلبون بالطين .

وفى بيت الظلام يسكن احكام الذين لم يرتفعوا إلى مرتبة الآلهة ، والكهنة والسحرة والأنبياء والبشر جميعا ، فريق تأكلهم الديدان كما تأكل الشياح الخلقة ، وفريق يملأ التراب أنافهم وأعينهم ويطوهم ، بيد أن ثم هريفا يتكون على السرر ويسقون شرابا طهورا .

وقبر ناحور . وعاد أهل بيته يحيون حياتهم اليومية ، إلا إبراهيم فإنه ظل يفكر فى الآلهة ، وفى الأصنام التى يصنعها أبوه بيديه ويركع لها الكهنة والسحرة والمنحمنون وملوك الأرض وعامة الناس ، وفى بيت الظلام ، وفى الحياة المهينة التى يحياها الموتى حتى الصالحون منهم ، وإن كانوا يتكئون على السرر ويشربون الماء طهورا .

راح إبراهيم يفكر في موت جده ناحور ، وفي الكاهن الذي تقاضى سبع
أوان من الخمر ، وأربعمائة وعشرين رغيفا ، ومائة وعشرين قان من الحبوب ،
ورداء وجديا وصريرا ، ثمنا لموازة جثته في التراب .

واشتعل فكره بالكهنة الآخرين الذين قربوا القرابين إلى الأصنام استعطافا
للآلهة لتطيل أيام ناحور ، وأوائلك الدين استخاروا الأواني . لقد تقاضوا لقاء
أعمالهم شواقل كثيرة من الفضة ، وجورا كثيرة من الشعير ، ورعوسا كثيرة
من الماعز والغنم . وثار في نفسه سؤال : أيمكن أن يكون هؤلاء عبادا مخلصين
لآلهة عظام ، أم أنهم إنما يتحذون من الدين تمحارة ؟

ويذرت في نفسه بدور الشك ، ولم يستطع البقاء في الدار فانطلق إلى معبد
نانا يرقب أعمال رجال الدين عن كتب بعينين مفتوحتين ، فما كان يحب أن
يقطع برأى قبل أن يثبت ويتحقق .

سار في شوارع أور ، في شوارع المدينة التي تنفس الدين والطقوس ،
وتتردد في جنباتها التسابيح للآلهة العظام الذين يلتقون في محمهم ويقررون ما
يمشؤون .

وراح يفكر في عشرات الآلهة التي تسيطر على الكون والحياة شأنها أن تبرم
أمرا وتقضى قضاء أو تحكم حكما يفرض في عبادها من البشر .

ولاح له معبد نانا وبرجه العالي ، فسار والشاطئ فرأى جمعا من الناس
فيهم بعض الكهنة ، فوسع من خطوه حتى بلغ الزحام فإذا بالكهنة يوثقون

رحلا وامرأة بالحبال ليلقوا بهما في النهر ، فقد ضبطا متلبسين بالزنا .
والقى نفسه يتفرس في وجوه الكهنة أصحاب الرعوس الحنيقة ، وتطوف
برأسه أسئلة : أهؤلاء الكهنة الذين يدفعون بالزنا والزانية إلى الماء أطهار
بررة ؟ ألم يرتكب أحدهم مثل هذه المعصية ؟ أهم أهل حقا لأن يُدينوا الناس ؟
ولم يقتنع بما رأى فدار على عقبه وانطلق ، فإذا به يرى العاهرات
المقدسات يجلسن على جانبي الطريق المقدس ، ورجالا تشع الشهوة من
أعينهم يلقون في حجورهن شواقل الفضة فما يكون منهن إلا أب ينهض
ويتبعنهم !

واشتد عجب إبراهيم لهذه المفارقات : فتيات يرتكبن الفواحش باسم
الآلهة فيصحن مقدسات ، وفتيات يضبطن مثلثات بالزنا فيلقى بهن في
الماء ، وهمس في نفسه هامس : ولكن من يلقي بهن في الماء متزوجات . وإذا
بصوت يرن في نفسه : إن من يثور على الزنا ينبغي أن يثور عليه ، سواء أكانت
مرتكبته متزوجة أم عاهرة .. أم مخدوعة باسم الآلهة . الفاحشة هي
الفاحشة ، فلا ينبغي أن تقدس إذا ارتكبت باسم عشتار . وأن تلتطع بالعار
إذا ارتكبت باسم الشيطان .

عشتار ! عشتار ! كيف يمكن أن ترتفع إلى مرتبة الآلهة ؟ إن هاهنا كل يوم
عشيقة : تموز إله الإبيات عشيقةا ، جلجامش البطل الإنسان عشيقةا . إنها
وهي الإلهة اضطجعت مع رجال من الشر .. لماذا لا يثور الآلهة لكرامتهم
التي تهدرها عشتار كل يوم ، فيوثقونها هي وعشاقها بالحبال ويلقون بهم في
النهر ؟ ألم يشرع الآلهة هذا العقاب لمن يضبط متلبسا بالزنا ؟ فلماذا إذن
لا يوقع على عشتار وعشاقها وهي ترتكب الفواحش تحت نظر الآلهة جميعا ؟
وبلغ الماء المقدس حيث يحارن الآلهة فوجد حركة نشيطة ، كان في الفضاء

المقدس جمع من رجال القصر ورجال المعبد ، فاقرب ليشهد ويسمع .
كانت إيرادات المعبد توزع بين رجال القصر ورجال الدين ؛ وضعت
الأسلاب من الشعر والمواكه والملابس على ظهر الحمير ، وراح كل يقبض
نصيبه من الأنعام والأغنام والخنازير ، حتى الملك والإيشاكو الكاهن الأعظم
والأوريماللو كان لهم نصيب من الهدايا التي يهبها المحدثون في الآلهة للمعبد .
ولكى تخرس ألسنة رجال الملك ورجال الإيشاكو ورجال الأمن ؛ راح
الكهنة يورعون عليهم الشعر والملابس والقماش والمعز والطيور . كان
الكهنة يذبلون هؤلاء عن طيب خاطر ويعطونهم عن رضا ، فذلك يسر لهم
الظلم ، ويمصن لهم السلامة إذا فرضوا الخور على الشعب
رأى إبراهيم بعينه ما رفض أن يراه أبوه آزر ، وسمع أمورا تدب الكهنة
تفوق في قسوتها ما قاله لوجال في رجال الدين فأنار غضب آزر حتى قال
لصديقه : لولا ما يبسا من صداقة لوشيت بك ! . وهز إبراهيم رأسه سخرية :
هؤلاء هم الذين يقطعون يد السارق ، ويقوم عليهم الدين !
ودخل المعبد فإذا بتماثيل ضخمة من الحجارة لمردوخ ونانا وشمش وعشتار
وعشرات الآلهة الأخرى . وإذا بتماثيل للملك في مشكاة تقدم لها فروص
التمجيد الإلهي ، فقد رفع الملك نفسه إلى مصاف الآلهة ، وقال إنه إله الملوك
جميعا .

وراح يقلب وجهه في التماثيل ؛ إن أباه يصنع مثلها ، وهذه التماثيل جميعا
من صنع أناس مثل أبيه ، فمن أين لهم أن يقرروا أنها تمثل الآلهة حقاً ما دام أن
أحدنا من البشر لم ير هؤلاء الآلهة ؟!

وأحسن في قرارة نفسه أنه ينكر هذه الأصنام . ووقعت عيناه على الأعدية
والأشربة المكسدة أمام التماثيل : عشتار لها ثمانية عشر إناء للشرب ، ومردوخ

له اثنا عشر ، وتشرب الآلهة جميعا لبنا فى الصباح . أتستطيع هذه الأحجار
حقا أن تأكل وتشرب ؟ إذا كان الملك يتناول طعامه فى كل معبد من المعابد ؛
فكيف يستطيع أن يأكل فى قصره مع وزرائه وحاشيته وندمائه ؟ هذه الآلهة
نهمة لا تشبع ، تأكل فى بابل ، وتأكل فى أور . وتأكل فى كار شماش (قلعة
شماش) ، وسيمار ، وفى كل معبد من المعابد الكثيرة المنتشرة فى أنحاء
المملكة ، أم أن هذه دعوى ادعاها الملوك والكهان ؟

وملأت خياشيمه رائحة البخور ورأى دخانه المتصاعد . وطالما رأى ذلك
الدخان ، ولكنه يراه اليوم سحبا تتكاثف على عقول الناس ، وأستار تسدل
على أعينهم .

عجب هؤلاء الرجال والنساء الذين يتقدمون من التماثيل فى خشوع ،
ويذرفون بين أيديها الدموع السخينة ، ويلتمسون الرضا من الأحجار
والأوثان ؟ كيف آمن أبوه آرر وعمه هاران وجده ناحور ، وآبائهم من
قبلهم ، هذه التماثيل التى لا تمكك لنفسها نفعا ولا ضرا ؟

وخرج من المعبد إلى الطريق المقدس الذى جلست على جانبيه العاهرات ،
واحترز الباب الذى يلفظ إلى الطريق العام وهو بتلفت ، يحاول أن ينفذ إلى سر
ذلك الكون المعجيب .

ومد بصره ناحية الجنوب الغربى وهو لا يدرى ما يجثم وراء ما يصل إليه
بصره . لقد قال له أبوه وجده وأمه ، وقال له كل من سألته إن هناك صحراء
جرداء مليئة بالشياطين والأشباح ، وقد أكد له الجميع تلك الحقيقة بيد أن
عقله أبى أن يقتنع بها ، فقد اهتدى عقله إلى أن كثيرا مما يقولون أساطير
وأوهام .

وهفتت نفسه إلى تلك الصحراء ، وتمنى أن يضرب فيها ، أن يكشف عن

وجهها الشام ، أن يعرف أسرارها ، فقد كان تواقا إلى استكناه حقائق الأشياء .

ورأى قافلة تتأهب للمسير بحذاء ساحل البحر الأعلى ، بحر الشمس الغارية العظيم متجهة إلى دلتا النيل ، فعزم في نفسه أن يخرج يوما — عندما يشتد عوده ويصبح رجلا يستطيع أن يجوب الأرض — مع قافلة من تلك القوافل ، كما يجوبها الآن شريك أبيه لوجال .

وراح يقلب وجهه في السماء . ويمد بصره إلى البحار والأنهار والسهول والجبال ، والحدائق التي اكتست ثوب الربيع والحقول التي اخضرت بالزرع ، والطيور التي حومت في الفضاء ، وقطعان الماشية والأنعام ، والناس من شيوخ وعجائز وشبان وشابات وبنين وبنات ، فهمس في نفسه هامس : هذا الكون لا بد له من خالق ، من إله واحد قوي قادر ، فلو كان له أكثر من إله لذهب كل إله بما خلق ، وفسد هذا النظام الديرع الذي يسود الكون هذه الشمس تشرق من الشرق وتغرب في الغرب ، وهذا القمر يطهر في السماء هلالا صغيرا لا يرال يكبر حتى يكتمل بدرا ثم يبدأ في الصغر حتى يختفي فيتم بذلك شهر ، وهذه الفصول تتابع لا الصيف يسبق الخريف ولا الشتاء يأتي في أوان الصيف . نظام دقيق دبره صانع حكيم لا يمكن أن يكون واحدا من تلك التماثيل العاجزة . إن هذا الكون ربا قادرا ، ولكن من يكون ذلك الرب ؟

واطلق وهو في رفقة ذاته يفكر ويمس الفكر حتى وصل إلى حقل منحه الملئ للإيشاكو الكاهن الأعظم ، فرأى ثيوان الآلهة تستحدم في رى الأرض ، والكهنة يقطعون الفاكهة من أشجار حيرانهم ويستولون عليها ، فإذا ما طهر العصب في أعين أصحاب الأرض قيل لهم إن ما يؤخذ منهم إنما

يؤخذ للآلهة لتبارك لهم في أرضهم ومحاصيلهم وذريتهم ، فيزول الغضب عنهم وتتهلل وحوهم بالبشر والحبور.

وطاف بدهنه خاطر : لا بد أن تحرر عقول هؤلاء الضحايا من عبودية الكهنة ، أن تفتح أعينهم على حقيقة صلاتهم وفسادهم ، أن يتوروا على الأصنام التي لا تنفعهم ولكن تضرهم ، فباسمها تسلب منهم أشياءهم لتمتلك خزائن الملك والإيشاكو والكهنة ، وتفيض مخازنهم بالخيرات التي تقدم إلى مخازن المعابد عن طيب خاطر ؛ فقد أدخل رجال الدين في روع صحاياهم أن الآلهة قادرة على أن تطيل أيامهم على الأرض قبل أن تبعث بهم إلى العالم السفلي ، إلى الأرض التي لا رجعة منها !

ورجع إبراهيم إلى البيت فوجد أخويه ناحور وهاران يلعبان في فناء الدار ؛ فلما رأياه أقبلا عليه وقال له ناحور :

— أين كنت ؟ إن أبنى يبحث عنك .

— أين أبنى ؟

— يصلى في محرابه .

وذهب إبراهيم إلى معبد آزر فوجده قائما يصلى وأمامه تمثال لإله القمر ، وهو ينهل إليه في حرارة وإيمان :

يارب ! يا من تمتد قدرته الوهابة بين السماء والأرض ، يا من يجلب الغيث والمواسم ،

ويسهر على الأحياء .

يا من يعظم في السماء عالية وصيته .

ويعظم في الأرض عالية وصيته.

يا من تسيح له الأرواح السماوية والأرواح الأرضية ؛

مشيتك أنت في السماء مشرقة .

نسألك أن تكشف لنا مشيتك على الأرض؛

فإن مشيتك تطيل الحياة وتبسط الرعاء .

وتشمل كل كائن .

وأنت تمضى بالعدل في أقدار الناس ،

وما من أحد ينفذ إلى سرها أو يقيس عليها .

أنت رب الأرباب تجلّ عن الشبيه والنظير .

وراح إبراهيم يتأمل في هذه الصلاة ، أهذه صفات التمثال الذي صعبه أبوه

بيديه ؟ ! إنه لأعجز من أن تكون له قدرة ، أعجز من أن يجلب غيثا ، أعجز

من أن تكون له إرادة ، إن كان له في الأرض صيت فما له في السماء قرار

ولا برهان ولا مشيئة .

وانتبه إبراهيم على صوت أبيه ياديه بعد أن فرغ من صلاته :

— إبراهيم ؟ أين كنت ؟

— في المعبد .

وتعلمت أسرار الأب فقد حسب أن إبراهيم إنما ذهب إلى المعبد ليؤدي

للأرباب صلاة تطيل أيامه على الأرض ، وما دار بخلفه أن الذي قاده إلى المعبد

إنما هو الشك في الآلهة وفي الملك الإله وفي الإيشاكو والأوريماللو والكهنة

ورجال الدين .

قال الأب وهو في طريقه إلى حيث يصنع تماثيل الآلهة :

— لقد انتهيت من صنع بعض تماثيل الآلهة ، فحذها ونعها .

فحمل إبراهيم تماثيل مردوخ ونايا وعشتار وانطلق إلى المعبد يقب التماثيل

بين يديه في هزة وسحرية ، ويعجب في نفسه : كيف يركع إنسان عاقل لهذه

التمائيل التي لا تملك لنفسها نفعا ولا ضرا ؟ كيف يعقل أن تطيل مشيئتها الحياة وتبسط لها الرجاء ، وأن تكون لها أسرار لا يفد إليها أحد ؟
وقف أمام المعبد يحمل تماثيل الآلهة بين يديه ويقول :

— من يشتري ما يضره ولا ينفعه ؟ من يشتري ما يضره ولا ينفعه ؟
وبلغ نداؤه آذان الناس فراحوا يرمقونه في غيظ وعيونهم بطاير منها الشرر ، إنه يسفه أحلامهم على الملاءدون أن يخشى بطشهم ، وهم رجل بأن يضره وإذا بآخر يقول له :
— دعه لا انتقام الآلهة فإنها ستأثر منه ، وسيكون العقاب الذي تنزله به رهيبا .

— لو تركناه فلتنزلن الآلهة علينا خسفا من السماء ، إذا تركنا من ينال منها بمشى على الأرض .

— إنه فتى لما يدخل الإيمان قلبه ، فلعل الآلهة أن تهديه .

— لا بد من تأديبه .

— إن أردت أن تكرم الآلهة فلا تدعها بين يديه ، ادفع ثمنها وحذرها .

— أنا لا أشتريها من يسحر منها وما .

ودار الرجل على عقبيه وانصرف وهو يرمى إبراهيم ينظرات يتطاير منها الشرر ، وعاد إبراهيم يقول وهو ثابت الختان وقد هان الناس في عينيه :

— من يشتري ما يضره ولا ينفعه ؟

وضاقت إحدى العاهرات المقدسات بهذه السحرية ، فقامت إليه واشترت منه تماثيل عشتار لتقذها من المهانة . فقد عز عليها أن ينال فتى من كبراء عشتار المثالفة دون أن يخشى أن تدله ، وقد أذلت من هو أرفع منه شأنا ؛ أذلت الآلهة فجعلت تمور إليه الإليات يركع تحت قدميها ، ودنت

صناديد البشر وأحرقتهم بنار الوجد .

وقبل أن تنصرف قالت له :

— لولا أنها عطوف لأزلت بك غضبها ، ولكن لا تطمع في عطفها كثيرا
فإنها متقلبة ، فحاذر يا فتى من تقلباتها .

وابتسم إبراهيم في هزء فقالت له :

— إن فيك عرور الشباب وتمرده ، غدا عندما تكبر تعلم ما لذة الخضوع
للآلهة ، وما لذة التضحية .

وشردت ببصرها قليلا وغمعت :

— ما ألد التضحية !

ثم مدت إليه يدها وقالت :

— تعال معي أعلمك كيف تضحي ، كيف تذوق حلاوة الإيمان .

فأشاح إبراهيم بوجهه عنها ، ثم دار على عقبيه وانصرف يحمل بين يديه
تمثال الآلهة ويحس في قلبه رضا ، فقد نفس عن حوض ما يحسه نحو هذه
الأصنام التي لا تبصر ولا تسمع .

وسار على الشاطئ ، وإذا به يرى الفرات يجري عذبا ليصب في بحر
الشمس المشرقة العظيم ، فخطر له أن يسخر من الأصنام التي يحملها ، فهبط
إلى حيث الماء العذب وعمس رجوس التماثيل في الماء وقال :

— ألا تشربون !

وكان لوحال عائدا من رحلته في طريقه إلى البيت فوقعت عياه على ما
يفعله إبراهيم بأهله قومه ، فوقف يرقه من بعيد في إكبار .

كان لوجال يسخر في بعض الأحيان من معتقدات قومه ولكنه لم يفكر في
أن يعلن رأيه على الملأ ، ولم يخطر له على قلب أن يال منها أو يفعل بها ما يفعله

ذلك الفتى .

إن إبراهيم لشجاع ، فهو يتال من الآلهة على أعين الناس ، ويحقر الأصنام
وإن كان أبوه يصنعها ويعول أسرته من أثمان بيعها . ترى أدار ذلك بخلد
إبراهيم ؟ إنه ولا ريب يمي كل ما يفعل .

وظل لوجال يرقب إبراهيم في إعجاب وصوت بهمس في أغواره :
— ليكون لك شأن مع أبيك .. وقومك والآلهة جميعا !

حن الليل على إبراهيم فدخل لينام ، بيد أن الوسن لم يطف بعينه . كانت الأفكار تتوافد على رأسه توافد الموج ، كان يفكر في الكون وفي القدرة التي تسيره . إن لهذا الكون إلها ، إلها واحدا لا شريك له ، وإن روحه لتنفو إلى معرفة هذا الإله العظيم والأنس به .

كان السكون مخيما على أور ، لا همسة ولا نامة ، وكانت الليلة حالكة الظلام فلم يكن يتسلل إلى الغرفة بصيص نور ؛ ولكن النور الذي بدأ يضيء في قلب إبراهيم كان يدكن من رؤية ما يدور في ذهنه من أفكار في وصوح . وتأبى النوم على إبراهيم فقام وخرج إلى الشرفة المطلة على ماء الدار ، وهب النسيم رخاء يداعب وجهه ويمسح روحه ويغذى الأفكار التي تشغل عقله . إن هذا الهواء يرق تارة حتى لكأن الكون يتنفس أنفاسا نديّة ، ويثور أخرى حتى لكأن الكون ينفث نارا ودحانا .

ورفع إبراهيم بصره إلى السماء فرآها زرقاء صافية ، سافرة بلا حجاب ، لا توشى صفحتها رقع السحاب . إن السماء البنية رقيقة مشرقة ، فلو دامت لها هذه الرقة وهذا الإشراق لما نزل منها الماء ، ولحمت الأرض وماتت وحل بالناس الدمار .

إن هذا الكون حي .. إن الروح التي تسرى فيه هي روح الإله .. وإن الأنفاس التي تتردد بين جسامته هي أنفاس الرب . وأحس إبراهيم بروحه تنفو إلى روح الرب ، وبرغبة طاغية في أن يذوب بكل وحدانه في هذا السكون .

وعلى الرغم من السكون الشامل أحس بأن كل شيء حوله ينبض بالحياة ، وأن ذلك النبض لا بد ينبع من حياة خالدة - حياة عميقة ، حياة يتغلغل سرها في كل شيء . ولكن أين هي هذه الحياة الخالدة ؟ أين هي هذه الحياة العميقة ؟ أين هو هذا السر .. سر الحياة ؟

وراح يهبط في الدرج كالمسحور تتلى بين جنبيه صلاة وإن لم تتحرك بها شفاته : « إنك في كل شيء ، في الماء الذي يتغلغل في أحشاء الكون ، في عير الأزهار ، في نضارة الثمار ، في اخضرار الأشجار ، في السماء .. وفوق السماء .. قلبى يعرفك .. روحى تشعر بك ، ولكى أريد أن أراك .. أريد أن أهتدى إليك .. فكيف الوصول إليك ؟ »

وانساب في فناء الدار وهو خاشع لا يسمع إلا الأصوات التى تنبعث من أعماق ضميره ، وإذا بصير متصل يعكر سكون الليل ، فالتفت فوجده يبعث من عرفة آزر التى يصنع فيها تماثيل الآفة . فساد إليها وفتح بابها ولكنه لم ير في أول الأمر شيئا ، فقد كان الظلام نقيلا .

وبدأت عيائه تألفان الظلام ، فرأى الجنادب تسعى على وجوه الآفة وتلحس أعينها وتدخل في آذانها .

هناك :

— أفواه لا تنطق . وأعين لا تبصر ، وآذان لا تسمع ، وأقدام لا تسعى ، وتماثيل عاجزة لا تنفع نفسها ولا تغنى عن غيرها شيئا .

وسار حتى خرج إلى الطريق فألقى نفسه أمام الكون العريض وجهها لوجه . فضاء لا يحد .. لا حواجز زائفة بينه وبين الدنيا التى يشوى بين أحضانها .

أحس الوحود كنه يسرى إلى روحه ، وفرحا عظيما بعمره . فقد أحد

ظلام نفسه ينقشع ليحل مكانه نور جليل ، نور تدركه بصيرته قبل أن يراه
بصره .

وراح يقب وجهه في السماء ليدرك الحقيقة العميقة التي تتلف عليها
نفسه ، ليكشف حقيقة الإله الذي يحس به يسرى فيه مسرى الدم ، وأخذ
ينهل :

— يا رب ! أنا محب .. قلبي يعرفك .. روحي تشعر بك .. أريد
وجهك .. أريد أن أراك ..

وصفت نفسه وأرهمت روحه حتى لكادت أن ترى روح الحقيقة التي
حوله ، بيد أنه ما يزال يبحث عن وجه إلهه ، فراح يعاود الابتهاال في
حرارة :

— أريد وجهك .. يا رب أرى وجهك .. أريد أن أراك .

وكانت الليلة بلا قمر ولا نجوم ، ليلة من ليالي آخر الشهر ، وكان كوكب
المشتري بازعاً يتلأفراح بنظر إليه ويمكر فيه ، فإذا يوجد فياض يملأ وحدانه
ويغمر روحه . وإذا بطمأنينة عجيبة تغشاه فقال في فرح :

— هذا ربي !

وخيل إليه أنه اهتمدى إلى مفتاح الأسرار المغلقة ، أسرار الحياة الخالدة ،
الحياة العميقة ، ألم يسفر له الإله عن وجهه !

ورفع عييه إلى السماء وبين جنبه فرح فياض ، وكادت الحكمة تستقر في
قلبه فقد اهتمدى إلى الإله وعرف طريق الوصول إليه . بيد أن نبع سروره
عاض فجأة ، ونصت الحكمة قل أن تستقر في سويداء قلبه ، فقد اختفى
الإله من رقعة السماء ، وتركه في بيداء الحياة وحده بلا سند ولا معين .

أفل الإله . أليكون ألهها ذلك الذي يأفل ؟ لا .. إني لا أحب الآفيس .

(أيو الأنبياء)

ودار إبراهيم على عقبه وكر راجعا إلى الدار وما تسرب اليأس إلى قلبه ، فقد غشيه الإشراق وانسل نور الإله إلى وحدانه ، فإن كانت عبياء عجزتا عن إدراك كنهه ، فإن إلهه الذي يحبه والذي تعلق به فؤاده لم يتركه في حيرته يبحث عنه دون أن يجده ، فإن الحب لا يكتمل إلا في فناء المحب في المحبوب . ودخل إلى فراشه ونام ، ولكن نفسه كانت متيقظة تجاهد أن ترى وجه إله الكون في وضوح ، فإن كان سنا الكوكب قد بهر عييه عن الحقيقة الخالدة زما حتى أفل فكفر به ، فالحقيقة العميقة لا تزال تخفق بين جنات الكون وإن لم يمتد إليها . إنها موجودة وإن لم يضع يده عليها ، كل ما في الحياة يعلن عن بديع صنعها ، عن قدرتها ، عن مشيئتها .. فإن خدع بنور الكوكب الليلة فإنه سيعاود البحث حتى يجد رب الأرباب .

واستيقظ من نومه وخرج إلى الشرفة المظلة على فناء الدار والتي يستطيع منها أن يمد عينه إلى السماء ، السماء التي تجذب إليها فراح يتأمل فيها كما يتأمل في كل ما تصل إليه عيناه ، فأحس تناسقا مع كل ما حوله ، وتعاطفا مع الكون العظيم . إنه ينهب الوجود بروحه ويستشعر راحة الحب التي تملأ حوائجه ، بيد أن البذرة التي بذرت في وحدانه لم تتحول بعد إلى نبتة روحية تسمو إلى ما فوق الطبيعة والجثمان ، وإن زيت نفسه الذي يغذى أفكاره لم يتحول بعد إلى نور إلهي فياض .

إنه لا يزال مقيدا بأغلال الطبيعة التي يشوى في أحضانها ، مشدود بذاته المحصورة بين السماء والأرض ، وإن روحه لا تزال في طريق التحول إلى نور طاهر يستطيع أن يبدد الظلام عن الحقيقة الخالدة .

وأحدث يقلب وجهه في كل ما حوله : السماء .. السحاب .. الشجر .. الطير .. عبر الحقول .. ماء النهر الرقراق .. إن هذه كلها رسل

الخالق إلى ضميره ، إنها تملؤه بالخير إليه ، إنه على وشك أن يصل إلى غاية الوجود ، بيد أنه ما يزال سجين فكرة .. فكرة رؤيته وجه الإله .

وهبط في الدرج وكل ما حوله يجذبه إليه ويملاً نفسه بالفرح ، وما كان يعكر اكتمال مشوته إلا اللهفة على أن يهتدى إلى الإله الذى يبحث عنه .
واتسباب في فناء الدار خفيفا كالطيف . يحس أنه ولد من جديد ميلادا أعظم من ميلاده يوم وضعته إيمتالي منذ سنين .

ووصل إلى معبد البيت الخاص ، وبلغ سمعه صلوات أبيه وأخويه ناحور وهاران ، وعجب في نفسه كيف يركع أبوه وأمه وناحور وهاران تمثال صنعه آزر بيديه كانت الصراصر منذ قليل تسمى على وجهه وهو عاجز أن يبعدها عنه .

لقد هزمت نفوسهم أرواحهم وطمست عقولهم . إنهم ضحايا ريف حجب عنهم لب الحقيقة وحطم التماسق بينهم وبين الكون . لقد استبدت بهم تقاليد الأجداد فأطفأت المور الباطني الذى ترى به البصائر رسل الخالق في زفيف الهواء ورفيف أوراق الشجر ، في السحر ، في الشرق والغروب .

لقد اهتدى إلى أن عبادة الأصنام ضلال ميسر ، وأن لهذا الكون العريض ربا ينشرح صدره كلما استشعر وجوده في أعماقه ، ويتهلل بالفرح كلما امتزجت روحه بروح الحياة التى تصمه في حنان إلى صدرها ، فإن كان لم ير وجه الله بعد فإنه في الطريق إليه .

وتمرك حبه المياض لأمه وأبيه وأخويه فسأه أن يتركهم في ضلالتهم يعمهون ، ودفعه ذلك الحب إلى أن يقتحم المخاطر لينقذ أحب الناس إلى قلبه ، ليخرجهم من الباطل إلى الحق ، وهل هناك خطر أعظم من تسفيه العقائد ورفع معول الهدم في وجه الدين ؟

وكانت الشمس تعمر المعبد كله إلا أن إبراهيم كان يراه غارقاً في الظلمات ، وكان آزر وأهل بيته يحسبون أنهم أقرب ما يكونون إلى الحقيقة الخالدة .. إلى رب الأرباب مردوخ ، بيد أن إبراهيم كان يراهم يخطون في مستنقعات الباطل . لقد طهروا أنفسهم بأداء قتل أن يقصوا بين يدي أصنامهم ، غسلوا أجسامهم به ولكنه لم يمس أرواحهم ولن ينظفها من أدرانها إلا ما أجل الاغتسال إن أحس المغتسل أنه بالماء الطاهر إنما يغسل روحه .

ودخل إبراهيم المعبد وتقدم إلى التمثال الإله وهو يستشعر ألماً ، ولم يجعله الألم ينكص على عقبيه فقد عرف أن السعادة ليست في اجتناب الألم بل في تحمله من أجل من فاض قلبه بحبهم .

وانتزع إله من مكانه وألقى به بعيداً ، فإذا بصيحت إنكار تبعث من كل الأفواه ، وإذا بالفزع يرتسم على الوجوه ، وإذا بوجه إيمان يمتنع وقلها يخفق في رعب وهلع . كانت في فزع من أن تنزل غضب الآلهة جميعاً على أنها الآبق من حظيرة الإيمان !

وهرع آزر إلى التمثال والعصب يكاد يصجر صدره ويكتم أنفاسه ، وراح يمسح التمثال في خوف ويقول لإبراهيم :
— أجننت ؟ ماذا فعلت أيها الشقي ! لتنزلن الآلهة عصها عليك .. إلى برىء مما فعلت ..

وذهب آزر ليعيد تمثال مردوخ إلى مكانه ، إلا أن إبراهيم ألقى بتمثال دنا على الأرض وهو يقول :

— ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون ؟

فقال ناحور في غضب :

— إنها آلهتنا يا إبراهيم !

فالتفت إبراهيم إلى أبيه الغاضب وقال :

— يا أبت ، لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا ؟

فقال آزر في غضب :

— وجدنا آباءنا لها عابدين ، أرأغب أنت عن آلتنا يا إبراهيم ؟

— أنا برىء مما تعبدون .

فدنت إيمتالي من ابنا وقالت :

— يا بني هذه آلتنا التي نضرع إليها كل يوم لتعطينا الخبز الذي نأكله ،
ولولاها ما نصب ملك ولا ولد كاهن أعظم .

ورأى آزر أن يضم إلى زوجته في نصع ابنه الذي أتى أمرا إذا ، وأهان الآلهة
دون أن يخشى بطشها فقال :

— ولولاها ما جادت السحب ولا هطلت الأمطار من السماء ،
ولا حرجت النباتات من الأرض ولا فاضت الأنهار بالماء .

— إياها يا أبت من صنع يدك ، أنت زها ، فكيف صارت يا أبت أربابا

لك ؟

فقال آزر في هدوء لينزع من رأس ابنه الفكرة الخاطئة التي استقرت فيه ،
ومحو من قلبه ظلال الشك التي رانت عليه :

— إنها يا بني رمز لمن رهبت وخشيت تضاهايان السماء ، وظله منتشر على
جميع الأقاليم ، ونسامي يبلغ عمان السماء . إنها رمز لمن يحمل إليه السادة
والأمراء الهدايا والقرايين المقدسة ، ويقيمون له الصلوات ، ويتلون له
الدعوات والتضرعات .

وتناول إبراهيم تمثالا من تماثيل الآلهة وحطمه بين يديه وقال :

— ألا ترى يا أبت أنه لا يملك لنفسه نفعا ولا يدرأ عن نفسه الهوان ؟ ألا ما

أحقر ذلك الإله الذى أدق عنقه يدي .

فقال إيمتالى فى رعب :

— صه ، صه يا إبراهيم حتى لا تسمعك الآلهة فتبعث بك إلى العالم السفلى ، للودود وعذاب الهون .

فقال إبراهيم ساخرا :

— أو لم تسمعنى بعد ؟

وأشار إلى أذنى مردوخ الكبيرتين اللتين ترمزان إلى الحكمة :

— وما فائدة هاتين الأذنين الكبيرتين إن كان لا يسمع ؟ وهاتين العينين الواسعتين إن كان لا يرى ؟ وهاتين الشفتين إن كان لا ينطق ؟ وهذا الأنف إن كان لا يشم ؟ ..

وانتفت إلى أمه وقال :

— لا تراعى يا أماه فأهنتكم أهون من أن تناسى بسوء .

فصاح ناحور ليرضى أباه وأمّه :

— كفى يا إبراهيم ، فأهنتا قادرة على أن تحملك حجارة .

فقال إبراهيم فى مرارة :

— عجبت لمن يرى النور ويصر على أن يغمض عينيه على الظلام خشية أن يبهره النور ، ليست آهنتكم على شيء . فإن كانت لها قدرة ومشية لكنست أول الراكعين لقدرتها الساجدين لمشيئتها ، ولكنها أعهر من أن يكون لها شيء ..

فقال آزر وإيمتالى وأخواه :

— إنها آلهة آبائنا وسعبدوها يا إبراهيم ! وجدنا آباءنا لها عابدين .

قال وهو ينظر إليهم فى أشفاق :

— لقد كنتم وآبائكم فى صلال ميين .

هجمعت الكائنات وراح الكون في سبات ، إلا إبراهيم كان شاردًا يفكر في ملكوت السماء .

ودخلت عليه أمه وقالت :

— ألا تأكل يا إبراهيم ؟

فقال في اقتضاب :

— شكرًا لك يا أماه .

إمه لم يدق شيئًا منذ الصباح فقد عزفت نفسه عن الطعام والشراب ، إنه إنما يريد غداء لروحه ، وريا لطمته إلى الحقيقة . إنه يطمع أن يتجلى له الإله . ووضعت أمه المنسوجة عن كسب منه ، وكانت آنية من فخار تسبح في وسطها فتيلة طافية على الزيت ، فراح نورها يتراقص على الحدران .

و لم يحمل إبراهيم بالنور الذي غمر المكان ، وإنما كان يرقب شروق النور في قلبه ، كان يبحث عن النور الإلهي في كل ما حوله ، كان يفتح عينيه وفؤاده وذاته ليرى جمال الدات الإلهية ، ليرى أنوار التجليات .

إنه يتحرق شوقًا إلى معرفة كه الإله .. إلى الوصول إلى جوهر الحقيقة ، إلى الوصول إلى الاستقرار والطمأنينة والسلام . إنه لا يطيق البقاء داخل البيت محدودًا في فراشه بغير عمل ؛ إنه يتلهف إلى الخروج إلى الدنيا الواسعة ليغتترف من كثر الوجود فيزيد ثروة روحه ، ليجتث عن المفتاح المقدس الذي

يفتح له أسرار السماء فتبدي لعييه الحقيقية سافرة ناصعة .

وهب من فراشه وهو مغمم بإحساسات زاخرة بالإيمان ، إلا أنها إحساسات يشوبها قلق ، قلق من لم يقبض بيديه بعد على مفتاح الأسرار الذى يفتح به عالم النور . وملكوت السماء .

وذهب بغسل ليظهر بدنه وبطهر روحه ، فقد كان من فرط إيمانه يحس أن الماء يغسل وحدانه . وأسبغ الاغتسال فخرج نقى السريرة سليم القلب ، يعاود البحث عن الله .

وثوى فى أحضان الكون وألقى إليه السمع ومد إليه البصر وفتح له العوالم ، فإذا به يحس أن كل شيء حوله حى تحفق بين جبينه روح ، حتى الأرض التى يطاء أديمها تنبض بالحياة ، حتى الحبال الشامخة المحللة بالسحر من حوله تعكس اللمسة الإلهية كما تعكسها كل الكائنات . إن الروح التى تسرى فيه لك الروح التى تسرى فى كل ما حوله : فى الشجر والماء ، فى السيم والسماء ، وخشع يصفى إلى الكون ويتلقى فى فرح كل ما يوحى به إليه . ووصت نفسه بالنشوة وهز وجدانه ما فى الكون من جمال ، وأصبح لكل ما يفتح عليه عيناه معنى جديد ، معنى روحى لم يكن يدرك سره قبل أن ينظر فى نفسه وفى كل ما حوله . وتهلل بالفرح لهذا التماسق العجيب بين روحه وروح العالم الذى يحتويه فى أحضانه .

وشعر كأنما صيغ من رقة ، كأنما أصبح روحاً هفاة شفاة انطبقت من سحن النفس تهم فى السموات ، وتملاً الصورة بجمال ذات الله . وراح يتلفت مهوراً وكل حنجة من خلجات نفسه الزكية تقول فى تسبيح :

— ربنا ما خلقت هذا باطلا .

وكاد أن يضع يده على كنز الوجود ، أن يرفع الأستار المسدلة على بصيرته
فيرى وجه الحقيقة العميقة ، الحقيقة الخالدة ، الحقيقة الأزلية ؛ بيد أنه عاد
للفكرة التي استولت عليه فقال في انتبال :

— يا رب أين أنت ؟ أريد وجهك .. أريد أن أراك .. يا رب تجلّ على .
ورفع بصره إلى السماء ، وكان القمر في تمامه يرسل ضياءه فيغمر الدنيا
بنور عذب ساحر ، ويبعث في كل ما يلمسه روحا تفيض بالصفاء ، راح
ينظر إلى القمر وهو مأخوذ . إنه نفس القمر الذي رآه منذ أن رفع عينيه إلى
السماء ، ولكنه الليلة يرى فيه شيئا جديدا لم تكن تدركه بديهية قلبه من قبل .
إن ما كان يبحث عنه هو هذا السناء .. وهذا التألق .. وهذا النور . وهذا
السمو ، ها هي ذى الحقيقة الأزلية تتحلّى بعبه ، لقد عثر على سر الوجود
الحقيق بأن يغنى روحه بكنوز من العيى الإلهى ؛ وتهلل بالفرح فقد حسب
أنه اكتشف كل بهاء العالم ، وأنه اهتدى إلى الإله الحق ، وأن السلام عرف
طريقه أخيرا إلى قلبه .

وراح يرنو إلى القمر في خشوع كأنما هو في صلاة، وكل حبة من
خلجات نفسه ، وكل خفقة من حفقات قلبه ، وكل زفرة من زفرات
روحه ، وكل بضعة من بضات عقله تقول : « عرفت الإله ! عرفت
الحقيقة الأبدية التي يبدد نورها ظلمات النفس ، وتمد الأرواح بالنور الإلهى
القياسى » .

وراح يتهلّل في حرارة :

— يا رب ارض عنى .. إني أحبك فاصحى يا رب حبك . إني أريد أن

أرى بك ، وأن أسمع بك ، وأن أنطق بك ، وألا أسعى إلا في طريقك ، وألا أحب إلا إليك ، وألا أبغض إلا من أجلك .

يا رب إلك قديم جديد ، إنك الليلة شاب ، ومن قلبك ينبثق الشباب الخالد ، فأمدني يا إلهي بالقوة ، وأيدي بروح من عندك ، مادمت يا إلهي قد رفعت الحجاب عن عيني ، وفرشت طريقى بالنور .

لقد بذرت في روح إبراهيم بذرة الإيمان ، بذرة الحقيقة العميقة ، بذرة الحقيقة الخالدة ، بذرة الحقيقة الأبدية .. فإن كان اتجه إلى القمر فإن البذرة لا تنم عن نوع الشجرة ولا طعم الشجرة ، إلا بعد أن تنمو وترعرع ويضج الثمر .

إن بذرة الإيمان الحق ، بذرة معرفة الله القادر بذرت في صميم إبراهيم ، ولن تكشف عن حقيقة جوهرها وكنوز معدنها إلا بعد أن تتصلل جذورها في أعماق روحه ، وتنمو وتفرع في السماء ، وترتفع إلى ما فوق الطبيعة والجثائن .

— يارب أيقظ روحي ، وابعث شعاعك المقدس ينير ظلام نفسي ، ويسرني يا إلهي لأن أعكس نورك ، وأن أنفذ في الأرض مشييتك .
واحتمى نور القمر فجأة فخلق قلب إبراهيم فرعا ، ورفع عينه إلى السماء ليرى ما غشى وجه الإله ، فإذا بسحابة داكنة تحول بين القمر وبين أن يبعث نوره إلى الأرض .

واستولى القلق على إبراهيم ، وعرف طريقه إلى قلبه مرة أخرى بعد أن حسب أن السلام قد استقر فيه ، وراح يقاوم ظلال الشك التي رانت عليه . أخذ يقنع نفسه أن نقاب السحاب لا يضر الإله ، فهو وإن كان حجبته عن

الأرض فإنه ما يزال يتألق فوق السحاب بنوره وجلاله وسناه .
ومر بعض الوقت وإبراهيم يرنو إلى السماء في قلق ورجاء ، حتى إذا
انقضت السحب ورأى القمر بازغا قال :
— هذا ربي .

وانقلب إلى أهله مسرورا ، فقد حسب أنه اهتدى إلى نبع النور ، إلى نور
النور ، إلى القديم الجديد ، إلى الحقيقة الأزلية .

* * *

وخرج ناحور وهاران يحملان تماثيل الآلهة التي صنعها آزر يبيعانها أمام
معبد بانا ، وكانا سعيدين بعملهما ، فقد كانا يسلان بين القينة والغينة إلى
حجرات المعبد المنعزلة يصغيان إلى الموسيقى التي تطلقها فتيات المعبد على
أيدي الكاهنات ، ويسعدان بالأنغام الشجية المسبحة من المرامير والأبواق ،
والدفوف والعيدان ، والطبول والصنوح . وكانا غالبا ما يمزحان مع
العاهرات المقدسات ، بيد أنهما لم يستنكرا عملهن كما فعل أخوهما إبراهيم ،
فقد غرس في قلبيهما حب حيات المعد والنظر إلى ما يفعلن نظرة إجلال ، وهن
إنما يضحين بأحسادهن في سبيل الآلهة ، في سبيل هدف سام !

وحرح إبراهيم يرعى الغنم لبأكل من جهده ، فقد أدرك ببديهة قلبه أن المال
الذي يكسه أبوه من بيع تماثيل الآلهة مال حرام ، وقد عزم ألا يدخل جوفه
مأكلا من حرام ، بعد أن اهتدى إلى نور الحقيقة الخالدة .

وترك إبراهيم الغنم ترعى في المروج الحضر وراح يتلفت في الكون وهو
مغمم بالفرح ؛ كان كل ما حوله يسبح بحمال ذات الإله . لكأنما الزنايق
البيضاء خلقت من نوره ، وكأنما النوار الأصفر الذي يمتد حتى الأفق يمسح

النفس لإشراقه ، وكأنما تلك الخضرة الزاهية التي تكسو الأرض وبينها
البنفسج الأزرق والورد الأحمر حلة سندسية موشاة بيواقيت وزبرجد
ومرجاد . كل هذا التناسق في الألوان إنما يسبح للفران المبدع الذي ينمغ في
كل ما يدع من روجه وجماله .

واتسعت نظرة إبراهيم ونما إدراكه ورحب أفقه ، فكان يرى الجمال في
كل ما تقع عليه عيناه ؛ لم تصبح الألوان المتناسقة هي كل ما يحرك سروره ،
بل صار كل ما في الدنيا حبيباً إلى قلبه : الأرض الجرداء .. الجبال الصماء ..
الريخ الصرصر .. الإغصار الحبار .. قبض الصيف وقر الشتاء .. موج الحر
وسيلول السحاب .. حتى الموت لم يعد يخشاه ، فقد أحب إليه من كل
قلبه ، فأحب كل ما جرت به مشيئته وكل ما خلق من كائنات في الأرض أو
في السماء .

تحررت روجه وانطلقت من سجن النفس فانسقت آفاق رؤيتها ، أحست
أن الكون ليس في ذلك الجزء الضيق من الدنيا الذي تراه عيناه ، وتسمع
ترددات أنفاسه أذناه ، وتطويه قدماء ؛ إنما الكون رحيب واسع زاخر بقوة
الإله ، فإن عجز عن أن يراه وعن أن يحتويه في فؤاده ، فإنه لم يعجز عن أن
يحه وأن يتناغم معه ، وأن يعم بالسرور لثقت البض الحى السارى في كل ما
حوله

وبصر بشاة صغيرة ، بيضاء جميلة ، تب في مرج بين القطيع ، وتمرح في
الخلاء ، وتسرى في الكون سريان الروح . كانت في وثوبها آية ، وفي مرحها
آية ، وكان يريق الفرح الذي يشع من عيها آية ، وانفعال القطيع بمرحها
ومشاركته لهاها في حبورها آية .

وهب النسيم ينفخ في مزمار الطبيعة ويداعب أوتار عيدانها وينقر في رقة دفوفها ، فبدا كأنما الكون جميعه يعزف لحنا علويا ، فتهللت نفس إبراهيم بالمرح وأفعم بالنشوة ، فالحياة ترقص من حوله .

وراح يرقب اللوحات التى يتدعها الفنان الأعظم على صفحة السماء ؛ إنها لوحات رائعة لا تعرف الحمد ولا يدب فيها الصاء . إنها حية متجددة نابضة بروح الإله .

إنه يراها منذ شروق الشمس حتى غروبها ، ويرعاها في فحة الليل وتألق السجوم وبزوغ القمر ، ويرعاها في الصيف والشتاء والربيع والخريف ، ويرعاها والسماء صافية الأديم ثم وهي ملبدة بالغيوم ، ويرعاها والهواء يهب رحاء ثم والرياح تعصف ، ويرعاها والطبيعة تنفس أنفاسا رقيقة عطرة ، ثم وهي غاضبة نائرة . إن هذه اللوحات في هدوئها وثورتها ، في إشراقها وتجهمها ، في نورها وظلمتها ، إنما تسبح على الدوام بمجد الإله !

وخشع إبراهيم وحنى رأسه لعظمة الخالق ، وراحت مشاعره تردد صلاة عميقة حارة ، صلاة لم تحر على لسانه فقد كانت الأنفاظ أعجز من أن تعبر عنها أو ترتفع إلى نبضها .

كان بور الإيمان يتسامى من قلب إبراهيم إلى السماء ، وكان نور الإله ينسكب من فوق الكون كله في قلبه ليسر له طريق الوصول إليه .

أحس إبراهيم رحابة واتساعا في بصره وبصيرته ، في قلبه ووجدانه ، وانطبقت روحه حرة ترفرف في كل مكان ، وتسمو وتتسامى حتى لتكاد تحاوز المكان وتمحو الزمان من حسابها ، حطمت روحه كل القيود التى تشدها إلى الأشياء والكائنات إلا ذلك القيد الخديدي الذى ربطها بروح

الكون ، بالحقيقة الخالدة ، بالحقيقة الأولية ، قبد الحجة الذى تهلل له بمسه بالفرح .

وغمرته أنوار التحليات وإن كان المساء قد أظل دون أن يحس بالظلام الذى تلفع به الكون ، وأشرق النور فى قلبه وإن غابت الشمس وذاب الشفق فى سواد الرداء ، واستمر فى المسجدة الطويلة التى سجدتها روحه إلى أن أحس حركة الغنم من حوله ، فأفاق من وجدته وعاد إلى الأرض من رحلته الروحية التى حلقت به فوق السماء ، عاد لينعم بالأنس وغذاء الروح ، ويرى الحقيقة التى تبلجت لعينى بصيرته كفلق الصبح أو كرائعة النهار .

وتلفت حواليه فإذا الليل البهيم قد جثم على صدر دنياء التى تحدها جبال مغبر وأرض أور وبجر الشمس المشرقة العظيم . ونظر إلى غنمه فألفاها نحن إلى الأرض وبداعب أعينها النعاس ، فتحركت شفقتة وود لو يمرر يد الحنان على ظهورها وأن يضمها إلى صدره ، فقد أحب فيها اللمسة الإلهية التى وهبتها الحياة .

وسرى هو والغنم الوديع فى ملكوت الله ! كان الغموض قد انحل عن روحه ورفع الأسجاف عن عيني بصيرته ، بيد أن عقله كان ما يزال يلح فى رؤية وجه الإله . فإن بدرة الإيمان التى بدرت فى أعماقه قد بدأت تنمو وتمتد جذورها ، وتتفرع غصونها ، وتترعرع أوراقها ليتفياً ظلها الصمير والبصيرة والوجدان ، أما عقله فقد كان ما يزال يحجب جوهره كلف من غموض ، لا يلبث أن يتبدد يوم يكتمل نمو شجرة الإيمان .

ورفع عييه إلى السماء يبحث عن القمر ، لقد رأى الحقيقة الأولية ببصيرته ، وكادت روحه أن تتحد مع روح العالم فى صلواته وابتهالاته

وسحود وجدانه لخالق الكون والجمال . ورأت عيناه جمال ذات الإله في
الورود ، وفي الزنايق ، وفي الأشجار ، وفي سريان النسيم ، وفي هبوب
الرياح ، وفي نفسه ، وفي كل ما حوله ؛ بيد أن عينيه كانتا ماترالان تتطلعا
إلى القمر استجابة لنداء العقل الذى لم يعتسل بعد كاعتسال الروح في فيض
النور .

لم يكن القمر في تمامه بل كان يحذر نحو النقصان ليعود إلى انحاق وقد فقد
كثيراً من سحره ورويقه . وإن تأثيره الذى ملأه بالمرح ليلة اكتماله بدأ
يضعف . إنه متقلب لا يستقر على حال ، أيمكن أن يزدهر الإله ويذبل كما
يزدهر النوار ويذبل ؟ أيمكن أن يموت الإله ويموت كاليموت الررع ويموت ؟
أيمكن أن يكون إليها ذلك الذى لا يتحكم في إرادته بل يخضع لإرادة أخرى
تكتب عليه الاختفاء والظهور ؟!

وحيل إليه أن القمر هرم مصرى في نفسه الكدر ، لقد اطمأن إليه وحسه
الشباب الدائم وكنز الوحود ، فإذا الشباب تعبت به الدنيا ، وإذا كثر
الوجود يفيض .

وعكرت الحقيقة التي تبدت لعينيه صفو السلام الذى عاش فيه . إنها
حقيقة مرة ، ولكن على الرعم من مرارتها فإن فيها طعم الحقيقة .

وعاوده القلق ولكن لم يدب إلى قلبه اليأس ، إذ كيف يعيش اليأس مع
النور الإلهى الذى تجلى لروحه وراح يزحف ليصير حسه ويهر عقله بساه !
ظل يرمو إلى القمر ، إلى من هلك له عقله ليلة رعم وهمه أنه اهتدى إلى
الحقيقة الخالدة : « عرفت الإله ! عرفت الحقيقة الأبدية التي تبدد ظلام
النفوس ونهدى الأرواح إلى النور الإلهى العياص » فأحسن تصاؤلاً ، فمن

حسب أن نوره يبدد ظلام النفوس لا يقوى على أن يبدد ظلام الليل من حوله ، فكيف يقوى وهذا حاله على أن يهدي الأرواح إلى النور الفياض .
لقد ركن إلى عقله يسأله ويستخبره ويطلب عنده الصبح وإن لم يفتح بعد إلى حقيقة كامنة في نفسه ، حقيقة أن بديهة القلب أصدق من بديهة الذهن ، وأن بصيرة القلب أهدى من بصر العقل الذي تعوق انطلاقه الحواجر والسدود .

وما أملك يرصد القمر وفي عقله إنكار ، وإن يكن في قلبه نور يهرى الهلال الذي كان يذبل ويذبل . فلما أفل القمر قلب إبراهيم وجهه في الكون وقال :
— لئن لم يهدي ربي لأكوئن من القوم الضالين .

جلست سارة تقزى وتناهب لأهم حدث في حياة كل فتاة ، فالليلة يقدم إبراهيم ابن عمها آزر لخطبتها . كانت سعيدة بترقرق في عينيها الجميلتين الآسرتين الفرح ، وتترافص على شفيتها إشراقة تعكس إشراقة روحها . وكانت جاريتها عن كتب ترقبها في غدوها ورواحها مبهورة بجمالها الفتان ، فما كانت تمتد عينان إلى سارة إلا وتسحران بجمالها الذي تخشع لجلاله القلوب .

لقد شغف سارة ابن عمها الفتى حبا ؛ كان رقيق القلب وديعا ، راجع العقل مستقل الرأي ، عزوفا عن اللهو الذي يتعمس فيه شباب أور ؛ فما كان يؤم الحانات التي تنتشر في أحياء المدينة ويتصاعد منها صياح السكرى ، وصراخ صاحبة الحان وهي تصر أن يكون ثمن خمورها شواقل من الفضة لأحوارا من الشعر ؛ وما عرف عنه التردد على فتيات المعبد المقدسات فما كان من المؤمنين بعشتار وفسقها .

انطبعت صورة إبراهيم في قلب سارة واستولت على خيالها ، فقد كان إبراهيم ربعة في الرجال ، ناصع الجبين أدعج العين ، مسترسل الشعر نزين وجهه لحية . كانت العين ترتاح إلى صورته ، أما ما كان يجذب العيون والقلوب إليه جميعا فجمال روحه وحسن منطقه ورجاحة عقله . وطاف بذهن سارة ما كان بينه وبين أبيها هارن من مساجلات فتهللت بالفرح . كان

قوى الحجة يميل إلى السخرية وإن كان لا يقول إلا الصدق ، وكان لا يخرج من نقاش إلا وقد بهر السامعين بقوة بيانه وسلامة حججه .

وأحست في أعماقها أنه سيكون لها وإبراهيم شأن وأن زواجهما سيكون مباركا ، فهو رواج لم تسعد بمثله أور : زواج الجمال الساحر الأخاذ ، بالعقل الراحح والروح القوية والعزيمة .

وراحت أم سارة تجعد شعر سارة من أمام ليموج فوق حبينها ، وترسل ذوائبه لتتدلى على صدرها ، وكانت تتطلع إلى ابتها مزهوة ترقص النشوة بين جوانحها ، ولم تستطع أن تكتم إعجابها بجمالها فقالت :

— كان مباركا اليوم الذى أطلقنا عليك فيه اسم سارة .

أتعرفين يا حبيبتى ما معنى سارة ؟

فقالت سارة وهى تبتسم :

— معناها أميرة .

فقالت الأم وانعكست مرحتها على وجهها :

— أنت أجمل من أية أميرة فى قصر أى ملك .

فقالت سارة وابتسمت عن لؤلؤ بصيد :

— ولكن نبيلات يا أماء !

فقالت أمها فى حماسة :

— لأنت أنبل منهن جميعا .

وراحت الجارية تعد ثوب سارة ؛ كان لباسا كاملا ذا أكمام طويلة وتنورة مصفاضة ذات حواشي مزركشة ، وراحت تستخرج الخلى من صناديقها ؛ كانت فلاتد وأطواقا وأساور وحلاجيل . وأخذت الجارية تعنى فى عدوها

ورواحها بصوت جميل :

أيها العروس الحبيب إلى قلبي .

جمالك اليامر حلو كالشهد .

أيها الأسد الحبيب إلى فؤادي .

أسرت مهجتي ، فدعني أقف بين يديك وأنا أرتجف من الخوف ،

أملأ عيني بجمالك الفتان ،

وأمد إليك أنامل ، فمسك أشهى منشهد .

إن قلبك متعطر إلى الحب ، وأنا أعرف كيف أدخل إليه السرور ،

وروحك تشد البهجة ، وأنا أعرف كيف أهجها .

أنت مولاي ! أنت إلهي ! أنت سيدي !

نم في بيتنا يا حبيبي حتى انبلاج الفجر .

وسيطر السكون وامتألت القلوب بالشوة ، وهامت الأرواح و

عالم السحر ، حتى اسعجت دموع الرقة من عيني الأم ونظرت إلى الجارية في

إعجاب وقالت :

— صوتك رائع ينفذ إلى القلب ويستقر في الأعماق .

فقالت الحارية وقد شردت ببصرها :

— كانت أمنيته أن أغني لإلهتنا نانا العظيم ، سيدنا وحامينا .

— وما الذي حال بينك وبين تحقيق أمنيته ؟

فقالت الجارية في أسى :

— دهن كان على أفي ، فقد عجز عن أن يسدد ديننا اقترضه فتنازل لدائنه

عني فباعني في السوق .

وسمعت في فناء الدار جلبة ، فقالت سارة في اضطراب :

— جاءوا .. جاءوا يا أماء !

فهرعت الجارية إلى الشرفة تنظر وقالت :

— هؤلاء مرارعون جاءوا لمقابلة سيدي .

واتجه المزارعون إلى الغرفة الواسعة القائمة في مواجهة باب الدار ، ودخلوا على هاران وحيوه باسم مردوخ والآلهة جميعا ، كانوا سعداء فقد كان الحصاد مباركا والمحصول وفيرا .

وبدأ الذي شاركه هاران على مزارعة أرضه يتحدث ، قال :

— لقد زاد نصيبك هذا العام الثلث عن نصيبك في العام الماضي .

فقال هاران وهو مسرور :

— هذا بركة الآلهة ثم بركة جهودك .

— الواقع أننا أنفقنا على الأرض ولم نحمل ، فقد أحرقنا خمسة رعاة ليرعوا أغنامنا ومواشيها وأعطينا كلا منهم ثمانية أجوار من الشعير ، وأجرنا بعض الثيران لدرس القمح ، وإن القانون حدد أجر الثور بعشرين قا في اليوم إلا أننا لوفرة محصول هذا العام دفعنا عن الثور واحدا وعشرين قا .

فقال هاران وهو حذلا ، فالיום يوم مبارك حاءه فيه شريكه يدفع له نصيبه في الزراعة ، وسيأتي ابن أخيه ليخطب سارة :

— لا بأس .. لا بأس أن تزيد في الإتفاق ما دام أن الإيراد يزيد .

فقال الشريك منشرحاً :

— وأجرنا عربات تجرها الثيران ، ودفعنا في العربة والثور وسائقهما مائة

وثمانين قا في اليوم .

— أليس هذا كثيرا ؟

— هذا ما حددته القانون يا عزيزى هاران .

والتفت الرجل إلى أحد الرجال الذين جاءوا معه وقال :

— مع صاحبي هذا كل الحساب ، فقد دونا فى الألواح ما غلته الأرض وما أنفقناه وما بعناه وقبضنا ثمنه ولم نهمل قنا واحدا ، وتشهد الآلهة على ذلك ، وكتب مردوخ الخراب على من حان أو دلس .

وساد الصمت برهة ثم قال شريك هاران :

— إن الضرائب التى ندفعها باهظة والعشور كثيرة ، فلو استطعت أن تحصل من الملك على لوحة إعفاء من الضرائب والعشور ومن نصيب الملك فى المراعى وبأكورة المحصول والمشميم وتسحير الرجال والحيوان والعجلات ، فستزيد أرباحنا كثيرا .

— أرباحنا لا بأس بها ، فلماذا نطمع فى المزيد ؟

— إننا لو اقتصرنا على إقراض أموالنا بمائة عشرين فى المائة كما يحدد القانون ، لحصلنا على ما حصلنا عليه الآن ، ولو فرما ما بذله من جهد وعرق ومخاطرة .. إن لوحة الإعفاء من الضرائب والسخرة تحقق غاية آمابيا .

— ولكى لا أعرف أحدا فى القصر .

— مين من الفصة يفتح لك أبواب القصر .

— والإيشاكو ؟

— يكفى نصف مين من الشعير ليرضى الإيشاكو والكهنة .

فشرده هاران قليلا وقال :

— سأحاول .

— لوحة الإعماء من الضرورية تستحق أكثر من المحاولة .

وظهر على الرجل أنه تذكر شيئا فقال :

— ولم أحدثك عن الأرض البور ، فسينتهى إصلاحها هذا العام ويتم تنظيم

الرى وإقامة الخزان بها ، وسضع عليها أحجار الحدود لتخفق فوقها حماية الآلهة وتصبح ملكا لنا بحكم القانون .

فقال هاران :

— هذا صحيح ، فالأرض البور حق لمن يستغلها أولا .

— وسنسجلها هذا العام في لوحات الملكية ونعنع اللوحات في المعبد .

— معبد نانا .

— كما تشاء ، وإن كنت أنا من عباد عشتار .

فابتسم هاران وقال :

— كيف حال الأمن في المنطقة ؟

— لم تقطع إلا يد واحدة ، فقد سرق بعضهم شيئا من الخنطة وضبط

فحكمت عليه المحكمة بقطع يده ، وسرق آخر بقرة فحكمت عليه المحكمة

بدفع عشرة أمثال ثمنها ، فلما عجز عن السداد حكمت المحكمة عليه أن يظل

مربوطا بالأرض كالماشية .

وما قام الفلاحون وانصرفوا حتى سمعت جلبة في فناء الدار ، فخرج

هاران من حجرته بنظر ، وأطلت سارة وأمها والجوارى من الشرفة فرأوا

رجالا يسوقون بقرتين وثلاث خراف ويحملون سلالا بها دواجن وأسماك

وبلح وتين ومطائر وجمار نخيل .

وسرى الحمس بين الجوارى : إنها هدية إبراهيم لسارة .. هدية تليق

بأمره .

وسمعت الأم الهمس فقالت :

— وأين من سارة الأميرات ؟

ودخل فناء الدار إبراهيم وآزر وإيمتالي وناحور وهاران ، فقالت إحدى

الجوارى وهى تمد عينها إلى إبراهيم :

— إنه فتى يأخذ بمجامع القلوب ، ما رأيته إلا وتفتحت له نفسى .

ولحظتها الأم بنظرة زجر قاسية ، فقد سرى الهمس بأن جاريتها لم تولد لأبوين من الرقيق ، بل ضبطها زوجها متلبسة بالزنا فباعها بيع الإماء بعد أن سلب حريتها عوضا عن روحها .

وهرع هاران لاستقبال أسرة أخيه وصافحهم ، حتى إذا بلغ هاران الصغير قال له :

— وأنت يا سئى العزيز متى تتزوج ؟

فقال هاران الصغير وهو يتسم :

— الآن إذ شئتم ما دام أنى سيدفع لى الترهاتو ، إذ أعمل مع أنى

وأستحق أن يدفع المهر عى ، ولن أقول كما قال إبراهيم : إنى أريد أن أتزوج بجهدى وعرق جبينى قلن أقبل أن يدفع مهرى من حرام .

فقال هاران فى صوت خافت :

— حرام !

فقال ناحور ليوضح الأمر :

— إن إبراهيم يعتقد أن الأموال التى نكسبها من بيع تماثيل الآهة حرام ..

فلا يدخل خوفه طعام اشترى بمال حصلنا عليه من بيعها .

وقال هاران الصغير دون أن يأبه للنظرات التي تصوبها أمه إليه :
— لم يدخل في « الترهاتو » الذي سيدفعه شاقل واحد حصلنا عليه من
بيع تماثيل الآلهة .

وصعدوا في الدرج إلى الطبقة العليا حيث كانت سارة وأمها والحواري ،
وكان إبراهيم صامتا وإن كان في قرارة نفسه راضيا عما أثر به ناحور وهاران
الصغير ، فقد كان يجب أن يعرف عمه أنه كفر بالأصنام جميعا ، وما كان
يجب أن يكتم عنه مثل هذا الأمر الخطير وهو يتقدم لخطبة ابنته .

وبلغوا الشرفة فخفت إليهم الأم تستقبلهم بالترحيب والقبلات ، وقادتهم
إلى حيث كانت سارة تتألق كالبدر . ونظرت إليها إيمتلى طويلا فأحست
كأن روحها ترشف كل ما في الكون من جمال ، فالتفتت إلى إبراهيم وقالت :
— أنت سعيد الطالع يا سي ترعاك الآلهة .

فقال هاران وهو يتشم :

— قال لي أبي مرة : « إن ابن أحبك هذا مبارك يا هاران » ، ومدد ذلك
اليوم فتفتح قلبي لإبراهيم . لقد كان أبي يعرف كثيرا من الأسرار .

وتذكر آزر قول أبيه بيد أنه عجب في نفسه كيف يكون مباركاً ذلك الذي
يسفه الآلهة جميعا ولم يركع لها أبدا ، وشخص ببصره إلى السماء وهمس في
حرارة وابتهاال :

— إلهي مردوخ ! إلهي نانا ! أيتها الآلهة جميعا ! ارفعني مقنك وعضك
عن إبراهيم ، واجعلني مباركاً مصداقا لما رآه أبي في المنام وفي النجوم وفي أكباد
الصحايا .

ولم يشرح صدر آزر لذلك الابتهاال فقد تذكر أن الآلهة حرت على

وجوهها يوم نظر أبوه في كبد الشاة ، وتذكر أن إبراهيم طوح بتمثال مردوخ وتمثال نانا وتمثيل الآلهة الأخرى مرات ومرغها في التراب ، ولن يكون هذا إلا نذير سوء .

وبدأت مراسيم الخطبة فوضع إبراهيم اثني عشر شاقلا من الفضة في صفحة وقدمها لعمه ، فتناول هاران « ترهاتو » ابنته وهو سعيد ، وما كان يهمه إن كان إبراهيم وصع شاقلا واحدا أو عشرين شاقلا ، وما كان الأمر يختلف إن لم يدفع إبراهيم صداقا على الإطلاق ، فقد كان فرحان لأن سارة مستزوح إبراهيم وما كان يدري سر ذلك الفرح .

وتأهب الكاتب ليسجل واجبات الروحة وحقوقها ، فسأل إبراهيم :

— ماذا تريد أن تذكر في واجبات الزوجة ؟

فقال إيمتالي :

— إن سارة تعرف واجباتها جيدا ، فليس ثم ضرورة لتسجيل واجباتها .

فقال الكاتب :

— كل عقد لا يحدد فيه الزوج واجبات زوجه باطل .

فقال آزر :

— اكتب في العقد ما يكتب في مثل هذه المناسبات : أن على الزوجة أن

تصون العرض ، وترعى البيت ، وتطيع الروح .

أحد الكاتب يكتب وقد تعلقت بقلم القصب العيون ، كان يكتب على ألواح من طين طرى نجف في الشمس ثم تحفظ في سجلات المعبد ، وكان إبراهيم ينظر وقد عزم على أن يحفظ العقد في أي مكان إلا في معابد الأصنام التي لا تملك لنفسها نفعا ولا تدفع عن نفسها ضرا .

وانتهى الكاتب من كتابة واجبات الزوجة فالتفت إلى هاران وسأله :

— هل نثبت في العقد الـ « شريقتو » الذى تدفعه لسارة؟

فقالت أم سارة :

— نثبت البائدة بالتفصيل ونؤكد حقوق الزوجة .

والتفت الأم إلى هاران وقالت :

— أمل عليه تفصيلات الـ « نرهاتو » يا هاران .

فاعتدل هاران وأخذ يملئ :

— مين من المضة ، وعبدان ، وسرير أكادى ، وطست من نحاس ..

وقالت أم سارة :

— واكتب أن للزوجة أن تتصرف فى أملاكها دون موافقة زوجها ، وخا

أن تبيع عبيدها .

فالتفت هاران إلى آزر وقال :

— إنها مجرد إجراءات وإلا يبطل عقد الزواج .

فقال آزر وهو يتسم :

— أعرف يا عيرى هاران ، وقد كتب مثل هذا العقد يوم حطت إيمتالى

وهو محفوظ فى سجلات معبد ناتا .

وقال إبراهيم فى هدوء :

— أما عقد زواجى فمن يحفظ فى المعبد .

ولاحت الدهشة على الوحوه ، وقال إبراهيم :

— فليحفظه عمى مع وثائقه .

ودهب روع أم سارة فقد خشيت أن يطلب إبراهيم أن يحتفظ بالعقد

عنده ، فتضطر أن تعترض عليه مما قد يعكر صفو الليلة ، ولم تشغل سارة رأسها بهذه التفاصيل فقد كانت سعيدة فرحى لأنها ستصبح زوجة لابن عمها الذى شغفها حبا واطمأنت روحها إلى روحه .

وانتهت مراسم الخطبة ، وقفل آزر وإيمتلى وأبناؤهما عائدتين إلى دارهم وصدى غناء الجارية يتردد فى الفضاء وفى جوف سارة :

أنت مولاي ! أنت إلهي ! أنت سيدى !

م فى بيتنا يا حيسى حتى ابتلاج الفجر .

ولم يسم إبراهيم فى بيت عمه حتى ابتلاج الفجر بل سار بحجب أبيه صامتا يفكر فيما قالته امرأة عمه : « أريدك يا إبراهيم أن تبني بيدك بيتا لسارة ، فإن البيت الذى نبنيه بأيدينا ، ونرفع قوائمه بعرقنا ، وانبهار أنفاسنا ، مثل هذا البيت محبة ونهقوا إليه قلوبنا . إن سارة هى أعز ما تملك يا إبراهيم ، وهى وديعة عالية أحب أن تضعها فى بيت تحبه ويتعلق به قوادك »

ورن فى أذنيه صوت أخيه هاران وهو يقول هذا : « اطعنى يا امرأة عمى فإن إبراهيم براء ماهر ، وسيبنى ها البيت الذى تشتهي نفسك » .

وابتسم إبراهيم وابتسم آزر فقد حسب أن زواج اسمه من ابنة أخيه الجميلة الأسرة سيصرفه عن العيب فى الآلهة وعن تسفيه أحلامهم .

وبلغوا الدار فإذا نار مشوية ؛ فاستقوا ينظرون فوجدوا النار تلتهم أصنام الآلهة التى صنعها آزر ، فهرع آزر وإيمتلى وناحور وهاران إلى الماء يطمثون النار ، ووقف إبراهيم ينظر وعلى شفتيه ابتسامة رارية . فلما أخذوا النار وأمرح روعهم دنا إبراهيم من أبيه وقال :

— يا أنت ! إن النار أحق من أصنامك بعبادتك لأنها تحرقها .

فأريد وجه أبيه وقال له في حنى :

— ولماذا لا تعبدها أنت ؟

فقال إبراهيم في هدوء :

— لأن الماء يحمدها .

ووضعت الحقيقة الأئمة لآزر ، فقد أوهمه قلبه أن زواج إبراهيم من ابنة عمه الجميلة سيشغله عن العيب في أصنامهم ، وإذا الأحداث تؤكد له أن اسمه لن يرعوى عما هو فيه ، بل إن سحريته من الآلهة سترداد ضراوة على مر الأيام .

ووسع آزر من خطوه وانطلق لا يلوى على شيء ، وإن كان يحس في فيه طعم المرارة التي سرت في روحه .

جلس إبراهيم وسارة يتناولان فطورهما ، وكان يرنو إليها وهو مغمم بالشوة فجماها الآسر يدعدغ الحواس ويملأ الجوارح بهجة ، بيد أن روحه كانت ظمأى إلى جمال آخر لا يسمو إليه كل ما فى الكون من جمال ، كانت روحه تهفو إلى جمال ذات الله .

وتناول إبراهيم لقيمات يقمن صلبه ثم كف عن الأكل ، فقالت له سارة :
— أنت لا تأكل !

فابتسم ولم يقل شيئا ، فقد اهتدى بتجاربه إلى أن من أكل شهوة نفس أعمى الإله عين قلبه عن رؤية تجليات حقيقة الوجود ..

إنه أحب سارة بكل حلحة من خلجات نفسه ، بكل جارحة من حوارحه ، بكل رفرفة من رفرفات روحه ، إلا أن الحب الذى يكنه للإله يفوق كل حب خفق به قلبه ، إنه يبعث فى روحه سرورا فياضاً يملأ أقطار نفسه بالبهجة والإشراق ، بالفرح الصافي الذى يفوق كل ما فى الوجود من أفراح .

وقام يفتسل لينطلق إلى ملكوت السماء قاصداً الله ، ساريا فى طريقه ، مبتهلا إليه أن يسفر عن وجهه ، حتى يطمئن قلبه بمعرفة السلام . وأسبغ الاعتسال كأنما يريد أن يذيب جسده وأن يفنى بشريته ، لتنتقل روحه حرة تسبح فى نحر النور حتى تنتقى بالجوهر المبر ، سور السموات والأرض .

وودع سارة وغادر البيت المتواضع الذى بناه لها بيديه ، خرج إلى الكون العريض يسوق غنمه وثيرانه وأنعام زوجته ، وقد شغل عنها بكنوز قلبه وغنى نفسه ، والصلة التى بدأ يحسها بين روحه وروح الوجود .

ورأى أشجار النخيل باسقة يعبث الهواء بسعفها وتتدلى منها أعذاق البلع كعناقيد اليواقيت . لقد رأى أشجار النخيل مذقح عينيه للنور ، أما فى هذه اللحظة التى تفتحت فيها عيون قلبه فأبه يراها أنواراً إلهية تبهر الروح . وراح يتلفت حوالبه وهو مشدوه ، فقد تحول الكون جميعه إلى ألواح يحط فيها الإله بقلمه آيات إبداعه وحسن خلقه .

وولى وجهه قبل المشرق ، فرأى الشمس ساطعة ترسل أشعتها إلى الكون فتغمر الأرض والسماء بالنور . وحاول أن يطيل إليها النظر فغشيت عيناه . إن الشمس عظيمة حليلة لا يقوى على صولتها بشر . إن الشمس تربو من عليتها فى كبرياء إلى الأرض ، وإلى الناس ، وإلى كل الوجود . إن الشمس سر الوجود ، كنه الحياة ، ذات اللوات ، روح الأرواح ، بأمرها تدب الروح فى كل ما يخفق بالحياة . فلما رأى الشمس بارعة قال :
— هذا رنى ! هذا أكبر .

وسار حتى بلغ سفح الجبل وهو يفكر فى روحه التى تسرى بين حنبيه ، إنها ظل نور السر الذى يبحث عنه . أممك أن تكون هذه الروح من جوهر الشمس ؟ إنه يحس أن قلبه يتفياً ظل حقيقة أزلية ، أحقا أن الشمس هى هذه الحقيقة ؟ إنه اهتدى إلى أن هذا الكون ربا ، أن تكون الشمس هى ذلك الرب ؟ وراح يصعد فى الجبل ، إن الصعود والهبوط لا يقرانه من الإله الذى عرفه قلبه ورأته روحه . إنه يحس أن ذلك الإله قريب منه أقرب من الشمس ، وأن

محبه لطيفة الطف من محبة الشمس ، وأنه في ارتفاعه يرتفع فوق الشمس ، وأن شروق نوره في القلب يفوق كل أنوار الكواكب والأقمار والشموس . وظل يرقب الشمس من فوق الجبل وهي تنحدر نحو الأفق ، إن الشمس تغرب ولكن نور الإله الذي رآه قلبه لا يعرف الغروب . إن الشمس تغوص في الأفق البعيد ، ولكن نور الإله الذي تجلى لبصيرته يهتق بالرحمات . إن الشمس تحتق وتموت ولكن الإله الذي تجلى لروحه حي لا يموت .

وراح قلبه يحيا سور الكشف عن سر الحق . إن الله الذي يبحث عنه ليس هو الكواكب ولا القمر ولا الشمس . إنه لا يمكن أن يكون مردوخ أو نانا أو شماش أو أية ظاهرة من ظواهر الكون . إنه فوق الكون جميعه ، ومشيته فوق كل مشيئة . فالكواكب والقمر والشمس لا تملك مشيئتها ، إن الله هو خالقها وهو الذي فرص عليها مشيئته وسخرها وقدر منازلها .

وراح ينظر من فوق الجبل فرأى الكون لأول مرة يخفق بالروح الحق ، بالروح الأرضية ، بالروح التي خلقت من سواطع حمائها وأنوار حلالها كل شيء .

إن رب هذا الكون واحد لا إله سواه ، عظيم له ما في السموات وما في الأرض ، لا تأخذه سنة ولا نوم ، هو روح الحياة وسر الأسرار ، فإن كانت أسرار الأزل احتجست عن العقول فسيحات الحلال سترت عنه الأبصار . إنه يدرك كل شيء ولا تدركه العيون .

وحاشت نفس إبراهيم بالرضا وانتشر صدره للإيمان وتألق نور الله على رياض قلبه . . فإذا الكون جميعه ، الكون الذي كان عائباً عنه بالانسجام مع روح الوحد ، يصبح في لحظة ألسة ناطقة بوحداية الله .

كان إبراهيم فوق الجبل لا يكاد يُرى ، إلا أنه كان كإسحاق العيين صغيراً وجوده كبيراً شهوده ، كان ذرة في الكون إلا أن اللمسة الإلهية التي مست روحه جعلت الوجود كله يشق بين جبينه ويحقق به فؤاده .

ولف الظلاف مدينة أور ، وسكنت الوحشة حال معبر ، وجثم على المكان سكون أشبه بسكون الرموس يجعل الحوف ينزع الأهددة من الصدور ، إلا أن إبراهيم كان ممتلئاً أنسا ، فقد تناسق مع كل ما حوله وأصبح يرى كل شيء بوضوح بعد أن أنار الله له المسيل وهداه إلى الرشيد .

وخشع إبراهيم وراح يباحي ربه ويفث زفرات قلبه ثم سجد وعمراته تجرى على خديه وراح يتهل ويسأل الله أن يرى وجهه ليطمئن قلبه .

غمر المكان نور ، وهبت نسائم رقيقة تحمل البرحة ، وسرى في الوجود همس شجي يشرح الصدور كأنه تسبيح الملائكة ، وبد أن الأرض تتأهب لاستقبال وحى السماء . وألقى في روح إبراهيم أن سيلقى ربه ، فعاصت عيناه بالدمع وثبت فؤاده وأرهف حسه وشرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه .

وانجابت عن قلبه الغشاوة وجاءته البينة من ربه فرأى في وصوح مبين أنه ما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب ، وأنه لو تجلى الله للجبل لجعله دكا ، ففخر ساجداً .

وشعر بوحى السماء يصب في صدره والحكمة تملأ حوانحه وأنه يسمع في وضوح ما يوحى إليه : إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري .. إنه أنا الله العزيز الحكيم .. إني أنا الله رب العالمين .. ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسناً ، إن الله غفور شكور . إن الله يعلم غيب السموات

والأرض وهو الرراق ذو القوة المتين .

قل إني أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين . قل إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم . قل إني نهيته أن أعبد الذين تدعون من دون الله .. قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون . قل إنما أدعو ربي ولا أشرك به أحدا . قل إني لا أملك لكم ضرا ولا رشدا .. قل يا أيها الناس إنما أنا لكم نذير مبين . وإن حادلوكم فقل الله أعلم بما تعملون .

قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون ، يقولون لله قل أفلا تذكرون ؟ قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم ، يقولون لله قل أفلا تتقون ؟ قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يحير ولا يحار عليه إن كنتم تعلمون ؟ يقولون لله . قل فأني تسحرون ؟

وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين .

وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين .

قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق .

قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين .

قل إنما أنا نذير وما من إله لا الله الواحد القهار .

قل إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم .

قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير

الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون ؟ قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا

إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكون فيه أفلا تصرون ؟ ومن

رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعنكم

تشكرون .

الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ..
وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حاسبانا .. جعل لكم الأرض قرارا
والسمااء بناء .. الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا .. لكل أمة جعلنا
منسكاً هم ناسكوه .. ليذكروا اسم الله على ما رزقهم . الحمد لله رب
العالمين .

له الحمد فى الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون .. وله الحمد فى
السموات والأرض وعشيا وحين تظهرون .. له ملك السموات والأرض
نحيى ويميت وهو على كل شئ قدير . فسبح بحمد ربك وكن من
الساحدين .. ومن الليل فسبحه وأدبار السجود .

واستعصر لذنبك وسبح بحمد ربك بالعشى والإبكار .. ومن آباء الذين
فسبح وأطراف النهار لعلك ترصى .. وتوكل على الحى الذى لا يموت .
إن هذا هو حق اليقين ، فسبح باسم ربك العظيم .

وراح إبراهيم يقلب وجهه فى ملكوت الله وهو مقعم بالفرح وقد ذهب
عه الحزن ، وظل ينظر وهو مسحور بكنور الحكمة التى أريقت فى فؤاده ،
وهو مبهور بالنور الإلهى الذى تحلى عليه ونفذ إلى قلبه وسكن فيه ليشرق
دائما بالنور ، فقد هداه الله سواء السبيل .

ومرت لحظات مفعمة بالبركات فأحس كأن كل حلاوة الوجود سرت
فى وحدانه ، وأن سلاماً أفرغ عليه ، وأن سكينه أنزلت على قلبه فازداد إيمانا
وتسليما .

ولما أفاق رفع وجهه إلى السماء وقال :

— سبحانه تست إليك وأنا أول المؤمنين .

دخل الإيمان قلب إبراهيم وحبه الله إليه ورينه في فؤاده ، فإذا كل شيء مشرق عارق في النور وإن كانت الليلة حالكة السواد لم يزع في سمائها نجم . وهم بأن يهبط في الجبل مطمئن النفس قريح العين مفعما بالسرور ، فقد أوحى إليه ما أوحى خالق الكون والناس ، وحاكم الكون والناس ، من له ما في السموات وما في الأرض الواحد القهار ، بيد أنه رأى شيئا هائلا معلقا بين السماء والأرض ، فرحف قلبه واستولى عليه خوف شديد ، وزاع بصره وأحس أنه سينهار .

وفر لا يلوى على شيء وراح يعدو ويلهث ، بيد أنه كان يرى ذلك الشيء أينما يولى وجهه معلقا بين السماء والأرض . ولم يدرك أين المفر وذهل عن نفسه بذلك الصرع الذي سلك إلى وجدانه واستد بكل حوارحه وكل خنجة من حبات نفسه .

ووصح لعبيه ذلك الشيء الذي كان يراه أمام عييه أينما يوجه بصره ، وسمعه يقول له في وضوح :

— أنا جبريل رسول رب العالمين إليك ، وأنت إبراهيم رسول الله .

وراد فرع إبراهيم حتى كان يموت من الخوف ، وإذا جبريل يقول له :

— أنا رسول ربك إليك ، وأنت خليل الرحمن .

وحاول إبراهيم أن يصرخ ، أن يفس عن ذلك الخوف الذي استبد به وكاد يكتم أنفاسه ، بيد أنه لم يجد صوته فأحد يجرى هنا وهناك وهو حائر لا يدري ماذا يفعل .

ورد صوت جبريل ملويا في الفضاء :

— أسلمه .

فخبر إبراهيم ساجدا وقال :

— أسلمت لله رب العالمين .

واستمر في سجوده ، ثم رفع رأسه ونظر فلم ير إلا السماء وجبال مغير
وأور الخاشعة في الظلام ، أور التي لم يطلعها بعد النيا العظيم . واستشعر قوة
عظيمة تسرى في روحه ، فإن الله يؤيده بعصره ومن ينصره الله فلا غالب له ،
إنه سيبلغ رسالات ربه ولو كره الكافرون
واندفع من فوق الجبل وهو يقول :

— يا قوم ! إني بريء مما تشركون . إني وجهت وجهي للذي فطر
السموات والأرض حنيئا وما أنا من المشركين .

السحر يتنفس في هدوء ، والناس نيام ، والأحلام تطوف بالدور ، وكل كائنات الوجود تسبح بحمد الله إلا البشر ، فما كان من البشر أحد في تلك اللحظة يسبح باسم ربه العظيم خلا إبراهيم ، كان يصلى لله في محاربة وقد انهمرت من مآقيه الدموع .

وطفق إبراهيم يتהל ويوح ويتأوه حتى بلغت أصواته مسامع سارة ، فهست من فراشها وذهبت إليه ووقفت ترقبه في دهش ، إنه يركع ويسجد ويصلى صلاة لم تسمع بها من قبل . إنه يصلى دون أن يكون أمامه تمثال من تماثيل آلهة القوم ، ويدعو إليها واحدا دون أن يذكر معه سائر الأرباب ، يفعل ذلك وقد غاب عن كل ما حوله وبدأ عليه أن وجوده كله داب في ذلك الإله .

ووقفت لا تبدي حراكا فقد أخذت بذلك الخشوع الذى ران على المكان ، وذلك الصفاء الذى ما كان لها به عهد من قبل . لكم ذهبت إلى المعابد ، وصعدت أبراج الآلهة ، وقدمت القرابين ، وألقت سمعها إلى الإيشاكو والكهان ، وتبقت الصلوات ، بيد أنها في كل ما كان يسها وبين الآلهة والكهان لم تحس مثل ذلك الصفاء ولا ذلك النور الذى غمر المخراب ، قبل أن يتبين الحيط الأبيض من الحيط الأسود من الفجر .

فلما قضيت الصلاة وأنتم إبراهيم تسبيحه دنت منه وقالت ؛

— ماذا تفعل ؟

فقال في هدوء وأثر الدموع في عييه .

— أصلى لله .

— إله غير مردوخ ونانا وشماس وآلهتنا العظام ؟

— إله لا شريك له في ملكه ، سخر لنا ما في السماء وما في الأرض

جميعا .

فقال في إنكار :

— ومردوخ ونانا وشماس وعشتار والآلهة الأخرى ؟

— سحر الشمس والقمر والكواكب والنجوم . كل يجري لأجل

مسمى ، ذلكم الله ربنا .

— من علمك هذا يا إبراهيم ؟

— هداني ربي إلى صراط مستقيم ، دينا قيما .

— ومن أدراك أن ربك هذاك إلى هذا الدين ؟ فقال في إيمان عميق :

— إنما أتبع ما يوحى إلي من ربي ، وقد بعثنى رسولا لأدعو الناس لعبادته

وحده ، وإلى أدعوك إلى الله الذي لا إله إلا هو ..

— أصلاتك تأمرك أن تترك ما يعبد آباؤنا ؟

— إني نيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله ، لما جاءتنى البينات من

ربي .

— أإله واحد لكل هذا الكون ؟ وقد كان لنا إله للقمر ، وإله للشمس ،

وإله للمشتري ، وإلهة للقضاء ، وإلهة للعطف والمحبة والحرب ، وآلهة

كثيرة تطيل أيامنا في الأرض ؟!

— أرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار !
 — كيف يكون في السماء وفي الأرض إله واحد ؟
 — لو كان فيهما إله إلا الله لفسدنا ، والله عيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله .

— إله فوق الشمس وفوق القمر وفوق الكون ؟
 — إنه خالق الكون والناس ، وحاكم الكون والناس ، ومنه الأمر والهي ، وإليه المرجع والمآب . رب السموات والأرض ، الإله الأحد الذي لا إله غيره .

— أيدير كل شيء وحده ؟
 — يدير الأمر يفصل الآيات لعلكم بقاء ربكم توقنون .
 — أو سئلي ربك يا إبراهيم ؟
 — بعد أن نذوق الموت .
 — بعد أن نذوق الموت ننزل إلى الهاوية ، إلى الأرض التي لا رجعة منها .
 — الموق يعثهم الله ثم إليه يرجعون .
 — أإذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون ؟
 — ورنى أئعنن ولتؤن عما عملنم ، هاليوم لا تصله نفس شيئا ولا تحزود إلا ما كنتم تعملون .

— وما جزاء من يؤمن بربك ؟
 — وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان ؟ أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وحنات نجري من تحتها الأنهار
 — وما جزاء من يكفر بربك ؟

— مأواهم جهنم كلما خبت زادهم الله سعيراً .

ونظرت إليه في دهش ، فإن ما يقوله يختلف عن كل ما سمعته من الكهان ورجال الدين . إنه شيء حديد ، شيء يسمو فوق الكون ، يحمل الإنسان أعظم من الكون ، إنه فتح مبين وإن كان يسفه أحلام الآباء والأجداد .
وقالت :

— من علمك هذا يا إبراهيم ؟

— هذا ما علمني ربي إنى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله .
ودنت منه وقالت وهى تجهل أن تهل من فيض النور الذى يشع من عييه
ووجهه :

— أحق هو ؟

فقال إبراهيم فى حماس :

— إى وربى إنه الحق .

وطمع فى أن تؤمن بالله ورسالته فقال لها :

— استعمرى ربي وتولى إليه ، إن ربي قريب محيب .

— أيسمعى إذا دعوته ؟

— ربي يعلم القول فى السماء والأرض وهو السميع العليم ، يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون ، وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ، ويعلم ما فى البر والبحر ، ويعلم ما ينبج فى الأرض وما يخرج منها ، ويعلم حائنة الأعين وما تخفى الصدور .

— لا أدرى ماذا أفعل يا إبراهيم ؟

— اشهدى بالحق يا سارة ، شهد الله أنه لا إله إلا هو .

— أتريد أن أشهد أن لا إله إلا الله ؟

— وأن إبراهيم عبده ورسوله ، أريد أن يطهر الله قلبك ، وأن يهديك الله
ويمشرك صدرك للإسلام .

— أرى الله قبل أن أشهد ، كيف أشهد بالحق ولم يقع بصري عليه ؟

— ربي لا تراه العيون ولا تدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار وهو
اللطيف الخبير .

— لن أشهد قل أن أرى وجهه .

— فله المشرق والمغرب فأبما تولوا فم وجه الله ، لا إله إلا هو كل شيء
هالك إلا وجهه . اشهدى يا سارة بالحق أفغير دين الله تغين ؟ أسلمى يا سارة
فمن أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه جنت عرضها السموات
والأرض أعدت للمتقين .

وما زال يمش حقيقة الله في روح سارة ليشعل الإيمان في قلبها ، ليبر نور
الحق طلام نفسها ، لتحس تجبى الله في ذاتها .

ولم تلبث سارة أن أحست عشاوة الظلمات تشق عن قلبها ، وأبواب
الحياة الروحية تفتح لها ، ونفحات الإنهية تهب عليها ، وأنوار التحجيات
تضيء ما بين حنيها ، والور الإلهي يفيض حتى يعمر عقلها . لقد أراد الله
لها هداية فشرح صدرها للإيمان .

وشخصت بصرها إلى السماء وكانت جميلة رائعة الحسن نهر ملاحظتها
العيون ، بيد أن حمد الروح الذي سرينها أزرى لكل جمال حسي وكل حس
يعمم اجوارح بالبهجة والنشوة .

وقالت :

— رب ! إني ظلمت نفسي .. أشهد أن لا إله أنت وأن إبراهيم عبدك
ورسولك .

وأسلمت مع إبراهيم لله رب العالمين .

وخرج إبراهيم لينذر قومه من قبل أن يأتهم عذاب مبين ، ورأى أن ينذر
عشيرته الأقربين ، وهل هناك أقرب إليه من أبيه وأمه وإخوته ؟ فاطلق إلى
بيت آزر ليقول لآله : إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون .

وبنح الدار واتجه إلى حيث كان أبوه يصنع آلهته فلم يجده ، وعلم أنه خرج
وأن ناحور وهاران ذهبا إلى معبد نانا ليبيعا تماثيل الآلهة التي صنعها آزر .

وقصد إلى حيث كانت أمه صعد في الدرج الداحلي إلى الشرفة التي تطل
على فناء الدار ، وسار حتى دخل على إيمتاني فحياها في رقة وقان :
— يا أماه ، إني أدعوك إلى عبادة الله وحده لا شريك له .

— وآهتنا يا إبراهيم ؟

— إنما تعبدون من دون الله آوثانا وتخلقون إهكا .

— ما بعدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى .

— أتعبدون ما تحتون ؟ يا أماه اعبدوا الله واتقوه ، إن الذين تعبدون من
دون الله لا يملكون لكم رزقا .

— أئنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا ؟

— يا أماه أئتم وآباؤكم في صلال مبين ، تعبدون من دون الله ما لا يملك لكم
ضرا ولا نفعا .

— ألا تخاف غضب آهتنا يا إبراهيم ؟

— وكيف أخاف ما أشرككم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به

عليكم سلطانا ؟ يا أماء إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم .
— أيتها يا إبراهيم أن نعبد ما يعبد آباؤنا ؟ وإننا لفي شك مما تدعونا إليه
مريب .

— يا أماء إن هذا هو الحق اليقين .

— يا بنى إننا في ريب مما تدعونا إليه . وجدنا آباءنا يعبدون مردوخ وناثا
وشماش وآلهتنا الأخرى ، وسنعبد ما وجدنا آباءنا يعبدون .
— يا أماء ما تعبدون من دون الله إلا أسماء سميتوها أنتم وآباؤكم .
— وجدنا آباءنا لها عابدين .

— لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين .

— يا بى إني أخاف عليك غضب الناس ، فددع ما أنت فيه وثب إلى
رشدك وعد إلى دين آباءك .

— يا أماء أأشترى الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة ؟ يا أماء آحشى
الناس والله أحق أن آحشاه ؟ يا أماء إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم
عظيم .

— يا بنى استمع إلى نصحي ، إني أخاف أن يتخطفك الناس . أخاف أن
يبطش بك المروذ .

— يا أماء إني أبلغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين . يا أماء تولى إلى
الله واستغفره من قبل أن يأتي يوم تحادل فيه كل نفس عن نفسها وتوفى كل
نفس ما علمت ، يوم تشهد عليكم ألسنتكم وأيديكم وأرجلكم بما كنتم
تعمرون . يا أماء قولى إني تبت إليك وإني من المسلمين !

— يا إبراهيم لن أتبع إلا ملة آباءى ، ولن أعبد إلا ما كانوا يعبدون .

يا إبراهيم أعرض عن هذا لكى لا يكون عليك حرج ، ولكى تنجو من عذاب الثمروذ وجنوده .. أفلا تتدبر ؟ يا إبراهيم إنا نخاف مما تدعو إليه . نخاف أن يضطهدنا الناس وأن يعذبنا الثمروذ وأن يحل بنا غضب الآلهة ، وإنا برعاء مما تدعو إليه .

— وأنا برىء مما تعملون .

ودار على عقبيه وهو يقول :

— حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وعلى الله فليتوكل المتوكلون . وهبط فى الدرج وهو حزين ، كان يريد أن يهدى من يحب وما كان فى الوجود أحب إليه من أمه ، بيد أن الله لم يشأ لها الهداية فأعرضت عن ابنها وأبت أن تصدق أن ما حاء به هو الحق من عند الله العزيز الحكيم . وسار فى الدار ، وبلغت أذنيه أصوات من عرفة أبيه فقد عاد آرر ليصنع أصنامهم ، فهرع إليه إبراهيم وقال :

— يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يعى عك شيئا ؟ يا أبت إني قد جاءنى من العلم ما لم يأتك فاتبعنى أهدك صراطا سويا ، يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحم عصيا . يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا .

قال :

— أراعب أنت عن آلتى يا إبراهيم ؟ لئن لم تنته لأرجنك واهجرنى مليا .

قال :

— سلام عليك سأستغفر لك ربي إنه كان بى حميا ، وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربي عسى ألا أكون بدعاء ربي شقيئا

فزوج ناحور ملكة أخت سارة ، وتزوج هاران وولد له ابيه لوط . ولم يكتف ناحور بزوجه بل رأت امرأته أن تعطيه جاريتها « روما » لتكون له أمة ، فالقانون والتقاليد تقر منح الزوجة جاريتها لزوجها لتكون له محظية ، وقد كتب ناحور في لوح الزواج أن على روما أن تعمل قدمي روحته الأولى ، وأن تحمل لها مقعدها إلى معبد الإله .

وكان للروحة الأولى أن ترد الجارية إلى مرتبة الإماء إن حاولت مسستها في حب زوجها ، بل كان لها حق بيعها ما لم تصبح أمًا ، أما إذا ولدت طفلا فلأنها تحرر ، وقد أنجبت روما ذرية لناحور فاستحال على ملكة زوجها الأولى أن تردّها إلى مرتبة الإماء أو أن تباعها في السوق بيع الرقيق . وبقي الشرط الذي نص عليه في عقد الزواج ، فكانت روما تغسل لها رجلها وتحمل مقعدها إلى معبد الإله نانا .

ورزق ناحور ولدا وبقي إبراهيم بلا عقب ، فإن سارة لم تنجب له ولم يأت الزواج بشرته الطبيعية . وكان إبراهيم يستطيع أن يطلق سارة ويدفع نصف مئة من الفضة ، أو يتحد زوجة من المرتبة الثانية ، زوجة يشتريها من السوق أو جارية من جوارى سارة تنبها له ، ولكن إبراهيم لم يفكر لا في الطلاق ولا في اتخاذ محظية وإن كان القانون يسمح بذلك الحق وإن كانت تقاليد القوم تقره وتباركه ، فقد كان يحب سارة حبا حمما وما كان

يقدم على شيء يخدش كبرياءها.

كان إبراهيم يحس إلى الولد ، وكان التبنى شائعا في بابل فبنى لوطا ابن أحمه هاران واتخذ ولدًا ، وراح يلقنه منذ نعومة أظفاره عقيدة أن لا إله إلا الله الواحد القهار ، وأن إبراهيم عبده ورسوله .

وذات يوم خرج إبراهيم إلى معبد نانا يعط الناس ويدعوهم إلى الله كما اعتاد أن يفعل منذ أمر أن يبلغ رسالات ربه ، ولكنهم أعرضوا عنه ووضعوا أصابعهم في آذانهم وصدوه عن دعوته مستهزئين به وبإلهه الذي يدعوهم إليه .

فتركهم وسار في شوارع أور بين منازل الأغنياء التي بنيت من الآجر ودكاكين الصياغ الذين حذقوا صناعة الذهب والفضة ، حتى إذا اقترب من نهر ، رأى التحار في عدو ورواح وقد شعوا بدبائهم عن آحرتهم ، فانسمن نرسو في المرفأ يصرع منها ما ورد عليها من أحشاش لسان وحيرات البلاد الأخرى ، ويحمل إليها غلات العراق من القمح والطحين فتسلك بها إلى بلاد بعيدة ، وراء بحر الشمس المشرقة العظيم .

ورأى إبراهيم أن يذهب إلى هؤلاء التجار وأن يدعوهم إلى الله ، فابتدأ حتى جاءهم وقال لهم :

— إنى لكم نذير مبين .. إنى أدعوكم إلى الله الذي له ما في السموات وما في الأرض ، وويل للكافرين من عذاب شديد ، الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ويصدون عن سبيل الله ويغوسها عوجا . أولئك في ضلال بعيد وخف إليه بعضهم بمعونه أن يترسل في دعوته وقالوا :

— إنا كفرنا بما أرسلت به ، وبما لى شئت مما تدعونا إليه مريب .

— أفي الله شك فاطر السموات والأرض ؟ .. يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى .
— إن أت إلا بشر مثلنا تريد أن تصدنا عما كان يعبد آباؤنا ، فأتنا بسُلطان مبین .

— إن أنا إلا بشر مثلكم ، ولكن الله يمس على من يشاء من عباده ، وما كان لي أن آتيكم بسلطان إلا بإذن الله ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون .
وأعرضوا عنه وتركوه قائما وحده ، فرفع عينه إلى السماء وقال :
— رب إنك غفور رحيم .

وخلف النهر وراءه وسار إلى معبد نانا وبرجه الشاخ . وكان معبد نانا ومعبد زوجته نكال والحرم المقدس تدو غارقة في الخور ، وكان رجال من المدينة والريف في طريقهم إلى المعبد لتقديم القرابين والندور من ذهب وفضة وعجول وخراف وقمح وشعير .

وسار إبراهيم في الطريق المقدس وقد جلست على حانبيه العاهرات المقدسات ، وحلف وراءه الرجال والنساء الذين وفدوا على غنارن المعبد من المدن والريف لتقديم الهدايا والندور ، ودخل إلى حيث تقوم أصنام الآلهة وتماثيل الثمردوس كوش الملك الإله ، سبل الآلهة الذين هبطوا من السماء إلى الأرض بعد الطوفان ليمرضوا على الأرض حكم السماء .

وكان في مشكاة تماثل نانا وفي مشكاة أخرى تماثل مردوخ ثم تماثيل أخرى منحوتة من الحجر ، وكان الناس يركعون ويتلون الصلوات ويقدمون القرابين ، فتقدم إبراهيم ثابت الخطو وقال :

— ماذا تعبدون ؟ إيفكا دون الله تريدون ؟ فما طنكم يرب العانين ؟

وتقدم بقلب سليم ، وقال وهو يشير إلى تماثيل آلهتهم :

— ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون ؟

وصوبت إليه نظرات يتطايّر منها الشرر ، إنه لا يكف عن تسفيه أحلامهم

وعيب آلهتهم ، وكان أكثر الناس غضبا الكهان فجاءوا إليه وقالوا :

— وجدنا آباءنا لها عابدين .

— لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين .

— أحقنا بالحق أم أنت من اللاعين ؟

— بل ربكم رب السموات والأرض الذى فطرهن وأنا على ذلكم من

الشاهدين .

ورماه الكهان ينظرة معيظة ، إنه يدعى أن ثم إلها آخر غير مردوح خلق

السموات والأرض فقالوا له :

— إن مردوح هو رب الأرباب وإله الآلهة وفاطر السموات والأرض

وإن نانا وشماش وعشتار والآلهة الأخرى أعوانه وممثلوه ، وأمرهم شورى

بينهم إن أرادوا شيئا أبرموه فى مجمع الآلهة .

— يا قوم إني برىء مما تشركون . إني وجهت وجهى لى فطر

السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين .

والتف قومه حوله يحاجونه ، قالوا له :

— أتكفر بمردوح ؟! فى السماء وهو أميرها الأول ، وفى الأرض هو

عظيمها وكبيرها ، وبين الآلهة هو ربها العظيم ، وعندما يقدر المصائر وهو فى

جلاله ورهته فلا يجرؤ إله على أن ينظر إليه ، ولولاه لما بنيت المدن ولا أقيمت

المواطن .

إنه قادر على أن يخسف الأرض بك أو يصب غضبه من السماء عليك أو يلقى بك إلى الهاوية ، إلى الأرض التي لا رجعة منها .

فقال إبراهيم وهو ثابت الجنان :

— أتحتاجونى فى الله !

وصاح صائح :

— ما أنت إلا بشر مثلنا ، فأنت بآية إن كنت من الصادقين .

وارتفعت الأصوات من كل جانب :

— نريد آية .. نريد آية .

— وحق مردوخ والآلهة جميعا لكن جئتنا بآية لثؤمن بها .

— لن نؤمن بك قبل أن يكلمنا الله أو بآيتنا بآية .

— أرنا ربك يا إبراهيم . نريد أن نرى الله .

— ويل لك يا إبراهيم من غضب الآلهة .

— ويل لك من مردوخ فلن يبارك لك فى حياتك .

— ولئذيقنك غصص الموت .

وجاء لوط يسعى وكان فى ذكى الفؤاد ، فرأى عمه وقد التفت حوله

قومه يخوفونه بغضب آهتهم فخف إليه ، وصك سمعه صوت يهدد عمه :

— لكن لم تنته عما أنت فيه فإن لك معيشة ضنكا ، سيكتب مردوخ عليك

الخراب .

وثارت دماء لوط فى عروقه : إن عمه الحبيب بل أباه الذى تناه وغذاه

بمبادئه يتلقى من قومة التهديد والسخرية والوعيد . لئنه يستطيع أن يفعل شيئا

ليشد أزره ، ورأى عمه بدأ يتكلم فألقى إليه سمعه ، قال إبراهيم :

(أبو الأنبياء)

— أحتاجون في الله وقد هذان ؟ ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربي شيئا ، وسع ربي كل شيء علما ، أفلا تتذكرون ؟ وكيف أخاف ما أشركتكم ولا تخافون أنكم أشركتكم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا ، فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون ؟ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتلون .

يا قوم .. اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . إنما تعبدون من دون الله آوثانا وتخلقون إفكا ، إنا الدين تعدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون . وإن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم وما على الرسول إلا البلاغ المبين .

أو لم يروا كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده ؟ إن ذلك على الله يسير . قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة . إن الله على كل شيء قدير . يعذب من يشاء ويرحم من يشاء وإليه تقلبون . وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير . وساد القوم سكون وراح لوط يتفرس في وجوه الناس وهو مسرور ، كانت حجة عمه قوية أخرست ألسنتهم إلى حين ، بيد أن واحدا منهم قال في عناد :

— مهما تأتينا به من آية لتسحرنا بها ، فما نحن لك بمؤمنين .

وعادت الأصوات ترتفع مرة أخرى قالوا :

— ساحر .

— مجنون .

— كذاب .

فقال إبراهيم في هدوء :

— لي عملى ولكم عملكم .

وصاح كاهن يحرض القوم عليه :

— يا قوم انصروا آلهتكم وليكن يوما عليه عسرا .

فقال إبراهيم :

— يا قوم أأتخذون من دون الله آلهة لا يخلقون شيئا وهم يُخلقون ؟

ولا يملكون لأنفسهم صرا ولا نفعا ، ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا ؟

وعاد الكاهن يصيح :

— بجهنم . كذاب . إن هذا إلا إفك افتراه . انصروا آلهتكم إن كنتم

فاعلين .

وتحرك الناس ليفتكوا بإبراهيم وإذا برجل يقول :

— كفى ما ناله اليوم من خزي ، اتركوه .

وذهب الكاهن إلى إبراهيم ودفعه في صدره وقال :

— كذاب .. كذاب يريد أن يفتنكم ، أن يضلكم عن سبيل آلهتكم .

فقال إبراهيم :

— ربكم ذو رحمة واسعة .

ورفع عينيه إلى السماء وقال :

— رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين .

واغرورت عينا لوط بالدموع . إن إبراهيم يدعوهم إلى الرشاد وهم

يستهترون به ، يدعوهم إلى النجاة وهم يسخرون منه ، يدعوهم إلى العزير

الغفار وهم يدعونه ليكفر بالله ويشرك به ما ليس له به علم ، يدعوهم إلى

الهدى وهم لا يسمعون له ؛ فقد كبر عليهم ما يدعوههم إليه .

و لم يستطع أن يكتم المشاعر التي ما جت في صدره فقال :

— إن إبراهيم لم يكذب ، إنه لكم ناصح أمين ، بل الذين كفروا يكذبون .

فاتجهت الأبصار إلى الفتى تنطق بالهزء والسخرية ، و لم يخف لوط بل هان القوم في عينيه وقال :

— والذين تدعون من دُون الله لا يستطيعون نصركم .. والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير .

فقال قائل :

— كذاب آخر .. كذاب صغير .

فعاد الكاهن يصيح :

— نصحتكم أن تنصروا آلهتكم من الكذاب الكبير قبل أن يفتن الناس فلم تستمعوا إلى نصحي . لئن سحر هذا الفتى إنه يسحركم جميعا .

وقال لوط :

— وما لكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم ؟

فسأله واحد منهم :

— آمنت بما يدعو إليه ؟

فقال لوط :

— آمنت بما أنزل على إبراهيم .

وقال إبراهيم لقومه :

— اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . إنما تعدون من

دون الله أو ثانا وتخلقون إفكا ، إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم
رزقا فابتنوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له ، إليه ترجعون .
وأخذ الناس ينصرفون حتى لم يبق في المعبد إلا إبراهيم وحده ، ولم يصدقه
إلا ابن أخيه الفتى الذى تبناه وأحبه من كل قلبه ، فقد أسلم ولما يدخل الإيمان
في قلبه .

ورفع إبراهيم عينيه إلى السماء وقال :

— رب إنهم يكذبون .

وإذا بصوت كأنما يلقي إلى روحه فيسمعه بوجدانه يقول :

— (فان أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظا إن عليك إلا البلاغ) .

فعاد إلى الدار ومعه لوط ، وقد عزم على أن يستمر في تبليغ رسالات ربه
ليقضى الله أمرا كان مفعولا .

كانت مدينة أور تفص بالناس فقد وفد إليها عباد إله القمر من كل مكان يسوقون الهدايا والنذور ، فعدا عيد « نانا » الكبير ، عيد الإله العظيم الذى تنازل ورضى أن ينزل فى معبده المقدس فى مدينة أور .

كان عباد إله القمر كثيرين ، أكثر من عباد إله الشمس « شماش » وإلهة اللذة والحرب عشتار ، فقد كان شماش وعشتار ولدى نانا ، وما كان للابن أن يسمو إلى مكان أبيه وإن مارى فى ذلك كثيرون وزعموا أن مردوخ تفوق على أبيه « أبا » ونصب فى مجمع الآلهة إلهها على الآلهة أجمعين .

وتدفقت فى شوارع المدينة الأنعام التى أهدتها المدن الأخرى وكبار دافعى الضرائب - فى طريقها إلى حظائر معبد الإله ، وماجت المدينة بالكهنة والكاهنات ، والحدود والقضاة ، وأمناء مخازن الغلال والكتاب ، والأحرار والعبيد ، رجالا ونساء ، وكانوا جميعا يستعدون للاحتفال بالعيد .

وهرع الشبان الواعدون من البلاد الأخرى إلى العاهرات المقدسات اللاتى جلسن على جانبي الطريق المقدس ، يلقون فى حجورهن قطع النقود فيتبعهم ليقدم أجسادهن قربانا لابنة نانا عشتار العطوف إلهة اللذة .

وانطلق ناحور وزوجته وأولاده ، وهاران وزوجته وأولاده إلى بيت آزر ، ليحضوا مساءهم يتسامرون ، ثم يتواعدون على الخروج إلى المعبد لإقامة

الصلاة وتقديم القرابين .

وتلقاهم آزر وإيمتالى بالترحاب وجلسوا جميعا يتسامرون ، ثم قاموا يصلون في معبد البيت الخاص ويدعون الإله أن يطيل في أيامهم على الأرض .
وأتموا صلاتهم وراحت إيمتالى تبتهل :

— نمرود إلهي ، بارك لي فيهم وأطل أعمارهم .

وجاء إبراهيم فسمع أمه وهي تدعو النمرود الملك الذي ألوهه ، وحز في نفسه أن تدعو أمه : نمرود إلهي ! فكيف يكون النمرود إليها وهو بشر مثلها ؟

ودخل إبراهيم عليهم وقال :

— ما تعبدون ؟

قالوا :

— نعبد أصناما فنظل لها عاكفين .

وقال هاران :

— نعبد مردوخ رب الأرباب وإله الآلهة ، من خصه أونو وإنليل بملك أبدي في بابل ، من قال له أبوه « أيا » : « أي بني ! ماذا هناك لا تعرفه وأستطيع أن أعلمك إياه ؟ إن كل ما أعرفه تعرف أنت » . نعبد مردوخ ساحر الآلهة وإله الكهنوت وخالق البشر .

وأضاف آزر :

— ونعبد نانا والآلهة الأخرى التي ترزقنا وتذهب عنا أسقامنا .

قال إبراهيم :

— هل يسمعونكم إذ تدعون ، أو ينفعونكم أو يضرون ؟

قالوا :

— بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون . .

قال :

— أفرأيتم ما كنتم تعبدون ، أنتم وآباؤكم الأقدمون . فإلههم عدولى إلا رب العالمين ، الذى خلقنى فهو يهدين ، والذى هو يطعمنى ويسقئ ، وإذا مرضت فهو يشفين ، والذى يميتنى ثم يحيين ، والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين .

وقال هاران لأخيه إبراهيم :

— يا أخى تعال معنا غدا إلى العيد ، فسترى أن ديننا حسن ، وسترى كيف ندعو : بعلا : مردوخ السيد الكريم ونانا العظيم .

قال إبراهيم :

— أتدعون بعلا وتذرون أحس الخالقين ؟!

واقتربت منه إيمتالى وقالت :

— يا بنى دع ما أنت فيه ، وتعال معنا غدا إلى المعبد تحتفل مع قومك بالعيد إكراما لى .

وكان الليل جن والنجوم بزغت ، فقام إبراهيم فنظر نظرة فى النجوم ، فالتفت فى ذهنه فكرة وقال فى نفسه : : وثائقه لأكيدهن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين . .

وعاد إلى حيث كان أهله وقال :

— إبنى سقيم .

ثم استأذن وانصرف وهو يرقب الصبح .

وفي الفجر دخل الأوريجاللو قدس الأقداس حيث تمثال الإله نانا إله القمر ، فأطلق البحور وركع وتلا صلواته ، وراح الكهنة ينظفون المعبد ويظهرونه للقدامين من كل فج ، ليقدّموا الولاء والخضوع لحامي المدينة .
وقدم الكهان إلى الآلهة اللبن في أواني من المرمر ، ووضعوا لكل إله أمام عرشه الإلهي اثني عشر رغيفا ، وأمام البرج المدرج الذي ينتهي بمزار إله القمر ستة عشر رغيفا ، وجاءوا من مطبخ المعبد بالصحاف الرئيسية عليها الثيران والعجول والخراف ، والتعاج غذيت باللبن ، والطيور ، والدجاج والبط والبيض ، ووضعت جميعا أمام الآلهة .

ثم فتحت أبواب المعبد فدخل السحرة والمغنون والمغنيات يمشون أعماهم ، فراح السحرة يطلقون البحور ، والمغنون والمغنيات يتغنون بأعجاد الآلهة ، ويتلون الصلوات الحارة للإله القمر ، يقولون :

يا رب يا من قدرته الوهابة تمتد بين السماء والأرض ،

ومن يجلب الغيث والمواسم ،

ويسهر على الأحياء ..

وراح آزر يصفي إلى الصلاة بقلب خاشع والدموع تنهمر على خديه ، فقد كان من الصنّاع الذين استدعوا لصع تماثيل الإله في عيده الكبير .

واصطف الناس في شوارع أور ليركعوا لعمود العظم الملك الإله وهو في طريقه إلى معبد نانا ، ليحمل الإله من معبده ويمر به النهر إلى معبد الصلوات .

وغصت الشوارع بالأميلو والموشكينو والعبيد ، برجال القضاء ورجال الدين والكتبة والموظفين ، والتجار ووكلاء الأعمال وتلاميذ المدارس ،

والعيد والإماء . وكان الجود بملابسهم العسكرية والحراب في أيديهم يحافظون على النظام ، ويمنعون تدافع الناس الواقفين حلف ظهورهم حتى لا يضيق الطريق الذى سيمر فيه التمروذ بن كوش .

وعرفت الموسيقى وراح المغنون والمغنيات يشدون ، وأقبل التمروذ في عربته وعلى رأسه تاج الملك ، وقد أرسل شعره على كتفيه وأطلق لحيته ، ويعطى كفه اليسرى جلد ماعز ، وجلس على يسار ناظر القصر وأمين خزائن الملك .

وانطلقت في أثر عربة التمروذ عربات الورراء وقواد الجيش ، وكان الناس كلما مر عليهم الملك الإله يركعون ويدعو كل منهم من أعماق قلبه .
— ألا فليطل الملك عمرى .

وأفعمت القلوب الرقيقة بالخشية ، فارتفعت زفرات الأفئدة نحيبا ، وسالت العبرات تعلن عن الإيمان العميق .

ووقفت عربة التمروذ لدى الباب الذى يؤدى إلى حرم المدينة ، إلى الطريق المقدس ، فنزل منها ومد بصره إلى المعبد في خشوع ، وكان البرج المدرج يهض في الناحية الغربية يرمز شموخه إلى علو مكانة نانا في السماء .

وتقدم التمروذ وخلفه الوزراء ورجال الجيش وكبار موظفى الدولة والعاهرات المقدسات ، فارتفعت الترنيمات والابتهالات . وانطلق الموكب المقدس حتى اجبار الباب الذى تقوم فوقه مساكن موظفى المعبد ، ويقدم في الساحة الواسعة مارا بمحارن المعبد ، فغرف الخدم ، فغرف البخور . فالمطبخ حيث تطهى الضحايا ، فالأنفراد حيث يحبز الخبز للآلهة ، فغرف الكهان والمغنين والمغنيات وموظفى المعبد ، ومن وهين أنفسهم لخدمة إله القمر .

وبلغ الموكب الساحة المقدسة حيث يقوم معبد نانا وأمامه معبد زوجته نكال وبينهما المزار المشترك الحرم المقدس . وكان معبد نانا بسيطا أما معبد نكال فكان أشبه بالقلعة ، جدرانه سميكه وأبراجه محصنة ، زين بتقوش الفسيفساء موشاة بالذهب والفضة والأحجار الكريمة من زمرد وفيروز ومرجان .

ودخل الموكب إلى حيث تمثال مردوخ وأنو وإنليل وأيا ونانا وشماش وعشتار والبعول الكرام ، فارتفعت الأصوات ترتل الصلاة :
يا رب من قدرته الوهابة تمتد بين السماء والأرض ،
ومن يجلب الغيث والمواسم ،
ويسهر على الأحياء ،
ومن يعظم في السماء عالية وصيته ،
ومن يعظم في الأرض عاليه وصيته ،
ومن تسبح له الأرواح السماوية والأرواح الأرضية ،
مشيتك أنت في السماء مشرقة .
سألك أن تكشف لنا مشيتك على الأرض ،
فإن مشيتك تطيل الحياة ، وتبسط لها الرجاء ، وتشمل كل كائن
شمولا عجيبا .

وأنت تجري العدل على قضاء الإنسان ،
وما من أحد ينفذ إلى سرها أو يقيس عليها .
أنت رب الأرباب ، مالك من شبيه ولا نظير .
وكان هاران يردد صلاته مع المصلين في حرارة ، ويتمنى لو كان معهم

أخوه إبراهيم ليرى كم هو متين هذا الدين الذى آمن به الآباء !
 ودخل الثمود فناء المعبد الرئيسى وحده ، وفتح باب قدس الأقداس ،
 فخرج منه الأوريجاللو ، فتقدم من الثمود وحلح عنه التاج وشارات الملك
 والصولجان والحلقة والعصا ذات الأسنان ، وسار حتى وضعها أمام تمثال
 كبير الآلهة مردوخ رب الأرباب ، ثم عاد إلى الثمود فضربه على خده ، وقربه
 من إله القمر ، وشد أذنيه ليركع ، فركع الثمود فى خشوع وهو يردد أنه لم
 يقصر فى حق ألوهيته ، لم يهن رواره ، وأنه عنى بمدينته العظيمة أور ، ولم
 يهدم أسوارها .

ولم يدرك بخلده أنه يتلو مثل هذه الصلاة لمردوخ فى بابل ولأونو وشماش
 وعشتار ، ولكل الآلهة المحليين فى المدن التى تارلوا وأكرموها بالنزول فيها .
 وكان يجتهد لتطفر العبرات من عينيه حتى لا يحل الحراب بالبلاد أو يحيق به
 غضب الآلهة !

وأعيد إلى الثمود التاج وشارات الملك ، ثم انطلق والأوريجاللو إلى قدس
 الأقداس حيث تمثال نانا ، فتقدم الثمود وحمل تمثال الإله ، وخرج
 والأوريجاللو إلى حيث ينتظر الوزراء والقضاة ورجال الدولة والأعيان ،
 وكان هاران بينهم يشرب بعقه لتبارك عيناه برؤية الإله .

خرج الملك والأوريجاللو يحملان بينهما محفة عليها تمثال نانا ، فإذا المكان
 يضح بالابتهالات :

— فليطل نانا العظيم فى عمرى .

يا رب الأرباب مشيتك تطبل الحياة ، وتبسط الرجاء .

وراح هاران يتهل :

— مولای یا رب الأرباب ، یا من قدرته الوهابة تمتد بین السماء والأرض ، خفف غضبك على إبراهیم واشرح صدره لمحبتك ، فإن كنت یا مولای غاضبا علیه فلا تؤاخذنا بذنوبه ، ولا تعذبنا بآثامه . امنحنی یا مولای الحیاة آیاما طويلة ، وضع الخوف من عظمة ألوهیتك فی قلب أبنائی ، واملأ نفوسهم بالحياة الكاملة .

وما خطر على قلب هاراد أن ابنه لوطا كفر بآلته جميعا ، وأنه أسلم وجهه لله رب العالمین .

وسار الملك والأوريجاللو یحملان نانا على المحفة وأصوات التهلیل ترتفع من كل جانب ، وخرجوا من المعبد إلى الساحة الواسعة فإذا الناس یضمون إلى الموكب المقدس ، وألستهم تلهج بالحمد لإله القمر الیدی یحمی مدینتهم . وسار الموكب فی الطريق المقدس حتی وصل إلى برزاً ، ويقع المرفأ على رأس قناة تدحل فیها السمن القادمة من البلاد البعيدة تحمل إلى المعبد الذهب والفضة والأحجار الكريمة والبحور والعلال والمواشى والقرايين .

وكانت ترسو فی المرفأ السفينة المقدسة التي ستحمل الإله نانا إلى معبد الصلوات على الضفة الأخرى من نهر الفرات ، وكان ثم سفن تكاد تغطي سطح الماء ، فأهل أور جميعا وكل من وفد إليها من عباد إله القمر سیذهبون إلى معبد الصلوات لیؤدوا الطقوس المفروضة .

وبلغ الملك والأوريجاللو وینهما الإله المرفأ ، فدخلوا السفينة المقدسة والمفون یرددون الأناشید والناس یتفون بالدعوات حتی لتكاد تبلغ السماء . ثم هرع الناس إلى السفن ، فما انسابت السفينة المقدسة على سطح الماء حتی انطلقت فی أثرها وهي تضج بالابتهالات .

وخلا المرفأ من الناس وبدا كأن ليس في المدينة المقدسة أحد ، فقد ذهب الكهنة والموظفون والعاهرات المقدسات والناس جميعا إلى معبد الصلوات على الضفة الثانية من النهر المقدس .

وخرج إبراهيم من داره حذرا يترقب ، وكانت الشوارع المؤدية إلى المعبد قد خلّت من الناس ، فوسع من خطوه حتى إذا بلغ الساحة الخارجية انسل إلى حيث تماثيل الآلهة وأمامها الأطعمة من خراف وبعاج وثيران ودجاج وبيض وفاكهة كثيرة .

ونظر إلى تماثيل الآلهة المنحوتة من الصخر ، فرأى في وسطهم كبيرهم مردوخ قائما بأذنيه الكبيرتين اللتين تدلان على الحكمة، وقد وضع أمامه طعام كثير وأوان فيها نبيد وخمور ، وكان يحف به نانا وشماس وعشتار وأونو وإيليل وآيا والبعول الآخرون ، ووضعت على عروشهم الإلهية أرعفة الخبر ، وأمامهم أطعمة وأشربة كثيرة .

ورماهم إبراهيم بنظرة ساخرة وقال لهم :

— ألا تأكلون ؟ ما لكم لا تنطقون ؟

وتناول قأسا وراح يضرب الآلهة ويحطمهم رائحا عليهم باليمين حتى جعلهم جذادا ، إلا كبيرهم مردوخ فقد علق الفأس بإحدى أذنيه الكبيرتين اللتين ترمزان إلى الحكمة !

وانسل من المعبد في هدوء وقد تهلل قلبه بالفرح ، فقد حطم أصنامهم وبر بقسمه بعد أن ولّوا مدبرين .

وانتهت مراسم العيد وعادت السفن تتهاذى على النهر ، السفينة المقدسة وبها التمروذ والأوريجاللو وتمثال نانا المصنوع من الذهب الخالص ، وفي أثرها السفن الأخرى وقد فاضت أفئدة من فيها بالسرور وسكنتها طمأنينة عجيبة ، بعد أن أقيمت الصلوات وقدمت القرابين واحترقت الخطايا فزكت النفوس ، كما تحترق أعواد البخور فيعبق المكان بعير يشرح الصدور .

ورست السفن عند مرفأ المعبد ، وعادر التمروذ والأوريجاللو السفينة المقدسة يحملان بينهما محفة عليها تمثال الإله ، وسار الوزراء ورجال القصر وقواد الجيش ورجال الدولة خلف الملك والإله ، وسار الكهنة على جانبي المحفة يرفعونهم وذقونهم الحليمة وملابسهم البيضاء . وانسابت ألحان المزامر والأبواق والدفوف والطبول والصنوج ، وارتفعت أصوات المعينات يرحبن بعودة الإله إلى قدس الأقداس ، إلى معبده الذى تمارل وقبل أن ينزل فيه ليحصى مدينته المقدسة أور الكلدانيين .

شمل الفرح الجميع إذ حالف التوفيق كل الطقوس التى أجريت أيام العيد ، مدرف التمروذ الدموع لما ركع أمام تمثال نانا وكان هذا بشيرا يرضى الآلهة عن أور وأهلها ، وغمرت الأنوار معبد الصلوات ، وتلألأ مسا الإله القمر فى كبد السماء ، وكانت السماء صافية ولم تجرؤ سحابة أن تخفى وجه الإله عن عبيده فى ليلة عيده!

وقابل آزر ابنه هاران فخلل فرحا وضمه إلى صدره وقال له :

— فليطل الإله نانا في عمرك يا بنى .

وانطلق الأب والابن إلى المعبد مع المنطلقين ، وهما يرددان الابتهالات والدعوات في إيمان عميق وخشوع يليق بمقام الإلهين العظيمين : نمرود الملك الإله ، ونانا الإله الأعظم الذى زين الدنيا بولديه فماش وعشتار !
وسار الركب في الطريق المقدس ، عادت العاهرات المقدسات يتخذن أماكنهن على جانبي الطريق يمارسن تضحياتهن بتقديم أجسادهن قربانا لعشتار .

ودخل النمرود والأوريجاللو بحملان محبة الإله إلى المعبد ، وإذا بمنظر ما كان يحظر على بالهما يفاجئهما ويكاد يذهب بصواهما ، فقد أصبحت تماثيل الآلهة كلها جذاذا إلا تماثيل مردوخ فقد ظل سليما كمهدم به ، إلا أن فاسا علقت بإحدى أذنيه اللتين ترمزان إلى الحكمة .

ورأى الناس ما حل بالهتهم فامتلأت قلوبهم بالحقد والغضب ، وكان أكثر الناس حنقا الأوريجاللو والكهنة والكاهنات وموظفو المعبد ، فما حل بالهتهم إنما ينذر بزوال سلطانهم وانقطاع سيل الهدايا المتدفق على مخازن الآلهة .

وفطنوا في مثل لمح البصر إلى أن ما حدث إنما يهددهم في أرزاقهم ، ويمنع تدفق الذهب والفضة والثياب والغنم والماشية والقمح والشعير والبلع والتين وكل الطيبات إلى مخازن المعبد . كانوا أكثر الناس علما بأن الآلهة لا يأكلون شيئا مما يساق إلى معابدهم . وإنما كل هذه الخيرات توزع عليهم هم أنفسهم ، وتحمل إلى بيوتهم وضياعهم .

خافوا أن ينضب ذلك الكثر الثمين ، أن يذهب سلطانهم الذى يمكنهم من

أن يسترقوا الناس ويسرقوهم ، فكانت ثورتهم عارمة فصاحوا مزجهرين :
— من فعل هذا بآلهتنا ؟ إنه لمس الظالمين .

ونظر آزر إلى هاران وهو يشعر بالقلق ، وإذا ما ارتسم على وجه ابنه يؤكد مخاوفه ، فاشتد وجيب قلبه وراح يتلفت ويقلب وجهه في وجوه الغاضبين الموتورين .

وقال الثمروذ في غضب وقد أحزنه أن تمثاله تحطم مع ما تحطم من التماثيل :
— لا بد أن أعرف من فعل هذا بآلهتنا .

وتقدم بعض الناس وقالوا وهم يسجدون :

— أيها الملك المعظم .. سمعنا قتي يذكرهم يقال له إبراهيم .

ونظر هاران إلى أبيه فوجده يترنخ ، فلف دراعه حوله وراح يعاونه على أن يشق طريقه بين الجموع النائرة التي كانت تتوعد إبراهيم بالويل والثبور .
وقال الثمروذ :

— فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون .

وانطلق الجنود إلى بيت إبراهيم وفي أثرهم آزر وهاران . وكان آزر يشفق على ابنه الذي ألقى يديه إلى التهلكة لما تحدى السادة البعول ، وسخر من كبيرهم مردوخ إله الآلهة ورب الأرباب . وكان هاران يعتب على أخيه الذي لم يستمع إلى نصحه ، ولو فعل وخرج معهم لرضيت عنه الآلهة وأطالت في عمره ، ولما كتب عليه مردوخ الخراب .

وأيقن هاران أن أخاه لا محالة هالك ، وأن ربه الذي كان يدعوهم للإيمان به لن يستطيع أن ينجيه من الثمروذ وجوده ، ومن الشعب النائر الذي يطالب برأسه .

وقبض الجنود على إبراهيم وارسم على وجهه سارة الملح ، ورأى لوط ما
نزل بامرأة عمه الحبيب فدنا منها وقال :
— أتعلمين أن إبراهيم مرسل من ربه ؟
— نعم .

— ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون ، إن ربه لن يتخلى عنه .
وانطلق الجنود بإبراهيم وآزر وهاران ولوط وناحور وأهل بيتهم ، والناس
من حولهم يزمجرون .

ورأى أحد الكهنة إبراهيم وهو بين الجنود فهجم عليه وهو يصيح :
— انصروا اهتكم .
وأراد الناس أن يفتكوا به إلا أن الجود حالوا بينهم وبه . وراح لوط يدعو
الله قائلا :

— ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير ، ربنا نجنا من القوم الظالمين .
وألقي إبراهيم في السجن حتى تحين محاكمته على أعين الناس .

* * *

وانعقدت المحكمة في ساحة المعبد وكان يرأسها قاضيان وإحدى كاهنات
معبد نانا . وجلس الثرود يحف به ووراؤه ورجال الدين ورجال الدولة ،
وعن يمين المحكمة جلس الشهود ، وعن يسارها المهكمون وكانوا من الرجال
والنساء وشيوخ المدينة .

وجيء بإبراهيم من سجنه ، ونادى القاضى على الشاهد الأول فمثل أمام
المحكمة ، وقال له القاضى :
— أقسم أن تقول الحق ..

— أقسم بمردوخ العظيم إله العدل أن أقول الحق . .

— أتعلم أنه لو ثبت عليك الكذب بعد أداء اليمين لحكم عليك بالموت ؟
— أعلم .

— حسن . قل لنا ما تعلم عن تحطيم آلهتنا . أرأيت إبراهيم وهو يحطمها ؟

— لا ، ولكن في أحد الأيام إذ كنت في المعبد جاء إبراهيم وقال لنا : « ما

هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون » ؟ قلنا له : « وجدنا آباءنا لها عابدين »
قال : « لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين » .

وأخذ الشهود يلقون بشهادتهم ، وسارة ولوط وإيمتالي وآزر وناحور
وهاران الكبير يصفون ، وهم جميعا وجلون ، إيمتالي وآزر في كرب شديد ،
وهاران وناحور وأزواجهما وأولادهما غلب عليهم اليأس ، أما سارة ولوط
فكادا يوءان لولا أن ربط الله على قلبيهما .

ونودي على إبراهيم فقام مهيبا وتقدم رافع الرأس ثابت الخطو ، حتى إن
العمروذ اعتدل ولاح في وجهه الاهتمام الشديد .

وقال القاضي الجالس في الوسط :

— أنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم ؟

فأشار إبراهيم إلى مردوخ وقال :

— بل فعله كبيرهم هذا ، فاسألوهم إن كانوا ينطقون .

ورجع المخلفون إلى أنفسهم وراحوا يتشاورون فقال أحدهم :

— لقد صدق ، إن مردوخ رب الأرباب وإله الآلهة وخالق الناس كره أن

يعبد معه غيره ففعل ما فعل . إن ما حدث إن هو إلا ندير منه ، آية من آياته ،
دعوة إلى عبادته وحده .

وقال آخر :

— وهل نعبد إلا إياه ؟ ما الآلهة الأخرى إلا ظل له .

— إن ما يقوله إبراهيم حق .

— إنكم أنتم الظالمون .

ثم نكسوا على رؤوسهم :

— لقد علمت ما هؤلاء ينطقون .

قال :

— أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئا ولا يضركم ؟ أف لكم ولما

تعبدون من دون الله ، أفلا تعقلون ؟

وأرسل الحمروذ في طلبه فسار إليه جليلا مهيبا ، حتى إذا بلغ الحمروذ وقف منتصب القامة ولم يخر ساجدا .

وسرت مهمة بين الوزراء ورجال الدولة ورجال الدين والناس أجمعين ، وانتاب آزر وإيمتالي الملح ، وأحس هاران وناحور وأزواجهما وأولادهما الحزى ، بيد أن لوطا وسارة أحسا شيئا من الاعتزاز وإن غلف الحزن قلوبهما . وكم الحمروذ غيظه وقال :

— من ربك الذى تدعو إليه ؟

— رب السموات والأرض وما بينهما ، فاعبده واصطبر لعبادته .

وقال كبير الوزراء فى إنكار :

— إله غير الحمروذ ؟ إنه رب السموات والأرض وما بينهما ، إنه إلهنا

العظيم .

ووجه الحمروذ الخطاب إلى إبراهيم :

— لماذا لا تعبد ما يعبد قومك ؟

— لقد رأيت النار تلتهم آلهتكم ، فكيف أعبد ما تأكله النار ؟

— فلماذا لا تعبد النار ؟

— أولى من عبادة النار أن أعبد الماء الذى يطفئها .

— فاعبد الماء إذن .

— أولى من عبادة الماء أن أعبد السحاب الذى يحمله .

— إذن تعبد السحاب .

— أولى من عبادة السحاب أن أعبد الريح التى تبدده ونسره به من فضاء إلى

فضاء .

— فما بالك لا تعبد الريح ؟

— إن الإنسان يحتويها بأنفاسه ، فهو إذن أحق منها بالعبادة .

وحاج الثمروذ لإبراهيم فى ربه وقال :

— إن كنت فى رية من أنى ربك ، فقل لى من ربك ؟

قال إبراهيم :

— رى الذى يحيى ويميت .

فقال الثمروذ :

— أنا أحيى وأميت .

فسأله إبراهيم :

— كيف تحى وتميت ؟

قال :

— آخذ الرجلين قد استوجبا القتل فى حكمى ، فأقتل أحدهما فأكون قد

أنته ، وأعفو عن الآخر فأتركه فأكون قد أحيتنه .

قال إبراهيم :

— فإن الله يأتي بالشمس من المشرق ، فأت بها من المغرب .

فبهت الذي كفر ، وساد الصمت ، وأخذ آزر يبصر إلى إسمتلى في يأس فقد حكم إبراهيم على نفسه بالموت ؛ تحدى الآلهة وجعل الأصنام جذاذا وألزم الحجة الملك الإله .

والتقت عينا سارة بعيني لوط ، كان في أعينهما أسى بيد أنها التمتع بيريق الانتصار .

إن إبراهيم وهو في محنته ينصر ربه ، وما كان ربه ليتخلى عمن ينصره . وعاد المحلفون يتشاورون . لقد كفر إبراهيم بآهة آبائه وسخر منهم لما أشار إلى مردوخ وقال : بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون . ولم يكتب بذلك بل تناول على التمرود الملك الإله . وقر رأيهم على أمر فقالوا : — احرقوه وانصروا آهتكم إن كنتم فاعلين .

واسهات إسمتلى وهكى آزر ، وحف هاران الكبير يشد أزر أخيه ويواسيه ، وعلا الإظلام وجه هاران الصغير فقد لطح أخوه إبراهيم أسرته بالعار وأتى عما لم يأت به أحد من قومه من قبل .

وجاء الجنود فأحلبوا إبراهيم وعادوا به إلى السحن ، وانصرفت سارة وهي تكاد تموت كمدا ، وسار إلى جوارها لوط وهو حزين ولكنه لم يقنط من رحمة ربه ، فكان يرفع عينيه إلى السماء ويدعو الله سرا أن أدخل رسولك في رحمتك ، هايت يا رب لا تصيب أجر المحسنين .

عكف المحاثون على صنع أصنام للآلهة بدل الأصنام التي جعلها إبراهيم جداذا ، وكانوا يعملون ليل نهار خشية أن تزل عليهم الآلهة كسفا من السماء أو يحرق بهم غضبا .

وراح السحرة والكهان يقيمون المراسم في معبد الإله نانا إله القمر ، ويحضون على تقديم القرابين حتى ترضى الآلهة ويذهب عنها غضبها الذي أثاره إبراهيم بما فعل

ودأب فرق المعنن والمعياب على ترديد الأناشيد ، ولم تنقطع الصلوات آناء الليل وأطراف النهار ، ودبت الحياة في مطبخ المعد ، فقد رادت القرابين على ما كان يتصور حتى بلغ نصب كل فتاة من بنات الهوى صلع خروف . وتقدم الرجال والساء إلى تمثال مردوخ في خشوع وركعواله ، وراح كل واحد منهم يتاجيه :

إلهي أنا برىء مما فعل إبراهيم .

يارب الأرباب لمن عافيتي لأجمعن خطبا لإبراهيم .

يا إله الحكمة يا إله العدل يا خالق البشر ، أطل في أيامي على الأرض حتى أثار لعزتك وأنصرك وأنتقم لك ممن سحر من جلالك على أعين الناس . وذهبوا إلى التماثيل التي راغ عنها إبراهيم بالبحر وأحدوا يتاجونها وقد فاضت أعينهم بالدموع :

أيها الآلهة العظام لن نال ذلك الجاحد بكم من تماثيلكم ،
 إن لجوكم عالية في السماء تبرغ علينا بورها وترسل إلينا رحمتها .
 أيها الآلهة العظام في السماء ، لا تحملوا في قلوبكم
 المقدسة غضبا علينا ، فقد أقسمنا لنصرنكم ولنحرقن من فعل بكم ما
 أوجع قلوبنا وطعننا في أعز مقدساتنا .

أيها الأرباب قروا عينا فساعة الانتقام دنت ، ولجمعن له خطيا ما جمع
 لأحد قبله ولن يجمع لأحد بعده .

أيها الآلهة العالية في السماء ، إن النار لن تبرد في
 صدورنا حتى تلتهم ألسنة النار ذلك الذي اعتدى عليكم
 دون أن يخشى بطشكم ، وغاب عنه أنكم ستأروون منه بأيدينا .
 شكرا لكم أيها الأرباب أن جعلتم أيدينا هي العليا ولم تمكنوه أن يفر ما .
 شكرا لكم أيها الأرباب أن كشفتم لنا مشيبتكم على الأرض ، ومشيتكم
 في السماء مشرقة .

وحاء أزر يمشى على استحياء يحمل تماثيل الآلهة التي صنعها ويتلف في
 خوف . لقد كانت خشيته من الناس أشد من خشيته من الآلهة ، وإن كان
 يحاول أن يقع نفسه أن مردوخ وحده هو الذي يستطيع أن يكتب عليه
 الخراب .

وكان ذابلا حزينا فسبقه بأهله النار كما كسبت يده ، وهو لا يقر
 إبراهيم على ما فعل ولكنه أبه ، قلعة كبدته ، فليس كان حنق عليه لتسفيه آلهتهم ،
 إنه بصحة منه يؤديه ما يريه .

وكان ذابلا حزينا لأن نظرت الناس إليه فيها عداوة وتحقير . إنه مثلهم

يؤمن بآلهة آبائه ، وقد يكون أشد منهم تعصبا لها ، ولكن ما فعله إبراهيم جعله هدفا لسخريتهم ولزراية الناس أيما سلك في شوارع أور . وتعرفت عليه إحدى عاهرات المعبد وكانت تشتري منه تماثيل عشتار لتبيعها لمن يعاونونها على تقديم جسدها قربانا إلى إلهة اللذة العطوف ، فقامت إليه . وراها آزر وهي تقل نحوه فاغتصب ابتسامة ، فلو أنها اشترت منه تماثالا لقضت على المقاطعة التي فرضها عليه قومه دون ذنب جهه إلا أن يكون إيجابه لإبراهيم ذبا لا يغتفر .

وأصبحت العاهرة أمامه وجها لوجه ، وكانت بأسرة الوجه يشع من عينيها الغضب ، فنظرت إليه شررا وبصقت على وجهه ، فأطرق آزر في أسى وتدللت يده بتماثيله وانسحب من المعبد وهو حزين ، يفكر في البلاء الذي نزل به مدحاهم إبراهيم يدعوهم إلى إلهه ، ويعيب آلهتهم ويحطم أصنامهم . ولو اقتصر الأمر على مقاطعة الناس للتماثيل التي يصنعها هان الأمر ، فهو يستطيع أن يعيش من الأرباح التي يحصل عليها من تجارته هو ولوجال ، أو من الفوائد التي يقدرها القانون بعشرين في المائة على القروض التي يقرضها الناس ، ولكن الأمر أبعد من الخبز وحاجات الحسد ، إنه العداوة القاسية التي انظورت عليها قلوب الناس .

* * *

وراح الباعون يسون بنيانا ضخما لتوقد فيه النار التي سيلقى فيها إبراهيم ، وكان أساس كلما مروا بهم باركوهم وحشوههم على العمل ليطفئوا بالنار نار الحق التي اشتعلت في صدورهم . ولما تم البيان أقبل الرجال والنساء شيوفا وشبابا والكهنة والكاهنات وبات الهوى ، أقبلوا من كل فج يحملون صلاب

الخطب من أصناف الخشب ليوموا بذورهم التي تذورها للآلهة .
ثم أشعلوا النار في كل ناحية من الخطب فاندلعت ألسنة اللهب إلى السماء ، حتى كان الطير من شدة وهجها وحرها يحترق إدامر بها . وصارت النار جميعا تشوى وجوه من يدنون منها ، فأخذ الناس يتشاورون فيما يفعلون ليلقوا بإبراهيم في ذلك الأتون دون أن يصابوا هم بسوء . فاهتدوا إلى أن يصعروا مسجنيقا يقدفوه به في الحميم .

وجاء الملائكة ينظرون ، وجاءت سارة ولوط وآزر وإيمتلى وهاران وناحور وقومهم ، وحاء التمرود ووزراؤه وجلسوا على البعد ينظرون ، وكان العرق يتفصد من وجوههم ، فإن لفح النار كان يسرى في جنبات أور ، وكان الدخان يحجب المعد والبرج المدرج وجمال معير .

وحىء إبراهيم من سحبه فصيح المكان هتافات السحط والوعيد ، وتعقبت به عيون إيمتلى وآزر وإخوته وفاصت من عيونهم الدموع ، وخفق قلب سارة وتشبثت بلوط أن تنهار .

ورفع إبراهيم رأسه إلى السماء وقال :

— اللهم أنت الواحد في السماء والأرض ، ليس في الأرض أحد يعبدك عبرى . لا إله إلا أنت سبحانك رب العالمين ، لك الحمد ولت الملك لا شريك لك

وكانت سارة قد آمنت برب إبراهيم ، وكان لوط قد تمقى عن عمه تعالىم ديه ، ولكن أحدا منهما لم يكن يعبد الله بعد عادة إبراهيم إياه .

ووضع إبراهيم في المنحيق وأطلق في الهواء فوق في الجحيم ، وارتفعت صيحات الفرخ تشق عان السماء ، وضاعت فيها أنات الأسى التي انطلقت

من قلوب إيمتالي وآزر وسارة ولوط .

ومرت الساعات وألسنة النار تتراقص ، ثم أخذت تخفت رويدا رويدا .
واقترب رجل من الحميم ينظر فصاح في فزع :

— رأيت إبراهيم حيا في النار .. رأيت إبراهيم حيا في النار ..

وسرت الصيحة بين الناس سريان النار في الهشيم ، وتجاوبوها في دهشة
حتى بلغت الثمروذ .

وضمت سارة لوطا إلى صدرها في فرح ، وصاح لوط وهزه السرور :
— إنها آية .. آية من ربه .

وقام الثمروذ فركب عربته وانطلق في أثره رجال دولته ، كان في طريقه إلى
برج إلهه نانا ليرى من موقعه حقيقة ذلك البأ الذي انتشر بين الناس .
وبعد الثمروذ قمة البرج وبظر فإذا إبراهيم قاعدا في النار حيا ، عذهل ، إنه
لا يصدق ما يرى فإن النار التي أجمعت كانت تكفي لتأني على أهل أور
جميعا .

وسمع أخوه هاران ما ذاع بين الناس فلم يفرح . فإنه إن كان ما قيل حقا
فهذا دليل على قلرة إله إبراهيم إدنجاه من نار كانت تشوى الطير التي تمر بها ،
وإنه لما يثير حقه أن يفعل إله إبراهيم ما لا يقدر آلمته على فعله .

وخرج إبراهيم من النار ولم تحرق إلا وثاقه ، وصاحت سارة من الفرح
وقال لوط في ابتهاج :

— كانوا يسألونه أن يأتي بآية ليصدقوه ، وها هي دى أعظم آية ، إسم
سيؤمنون . ليؤمنن جميعا .

وانطلقت إيمتالي نحو إبراهيم تصيح وتغسل الدموع وجهها :

— ابني .. ابني الحبيب .

إلا أن الجنود حالوا بينها وبينه إذ كان في طريقه إلى التمروذ .

وذهب إلى حيث كان التمروذ مرفوع الرأس ثابت الجنان يردد ما كان يقوله وهو في النار : « حسبي الله ونعم الوكيل .. حسبي الله ونعم الوكيل » وقد هانت في عينيه قوى الأرض جميعا بعد أن رأى قدرة الله . إنه يسير وروح القدس معه أيما سار ، وتحقق بين جنبيه قوة روحية هائلة ، قوة تيسر له أن يتحدى جباري الأرض أجمعين .

وراح التمروذ الملك الإله الذي يجر الناس سجدا تحت قدميه يقلب نظره فيه وهو مشدوه ، وقد تقاصرت نفسه بعد أن هبت عليه ريح الخوف ، فدلّت الخارج من النار عليه مهابة وحلال وإشراق تغنو لها الحياه .

ولم يصرح روع التمروذ وراح يرقب إبراهيم وهو مأخوذ ثم قال :

— ما أعظم ربك يا إبراهيم ؟ كيف خرجت سالما من هذا الجحيم .

— أوحى إلى ربّي أنه قال : يا نار كوني بردا وسلاما على إبراهيم ، فكانت

كما أمرها ربّي .

وخشى الكهان أن يؤمن التمروذ بإله إبراهيم فتذهب ريجهم ويمحق

سلطانهم فقالوا :

— خرج منها بسحره . هذا سحر مستمر .

ولم يأبه التمروذ بما قالوا فقد رأى آية لا يستطيع أن ينكرها فقال :

— نعم الرب ربك يا إبراهيم . إني دابح له أربعة آلاف بقرة .

— إذا لا يقبل الله منك ما دمت على شيء من ذلك هذا حتى تعارقه إلى

— يا إبراهيم لا أستطيع ترك ملكي ، ولكني سوف أذبحها له .

وورمت أنوف الأوريجاللو ورجال الدين فقالوا :

— هذا سحر.. سحر مستمر.. سحر مبین، مهما تأتينا به من آية لتسحرنا

بها فما نحن لك بمؤمنين .

وصاح صائح منهم :

— انصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين .

وتحركوا ليفتكوا بإبراهيم ، فأشار الثمروذ بيده أن قفوا وقال :

— اتركوه .

وكفروا بآية الله وأعرضوا عنها وراحوا يؤكدون أن إبراهيم ما خرج من

النار إلا بسحره المبین .

وذهب لوط إلى أبيه هاران وقال :

— أبي ! آمن بما أنزل إلى إبراهيم من ربه .

والتفت إلى آزر وإيمتالي وعمه ناحور وقال :

— قولوا آمنا بالله وما أنزل إلى إبراهيم .

فقال هاران في كبرياء :

— لن تؤمن حتى تؤتي مثل ما أوتي.

وانصرف هاران وهو يزفر نار الحقد التي تأكل صدره ، وقد استولت

عليه فكرة أنه إذا كان إله إبراهيم قادرا على أن ينجيه من النار ، فإن آلهته قادرة

على أن تجعل النار بردا وسلاما على هاران .

واطلق إلى المعبد وهو محموم بعد أن اغتسل وتطهر . وذهب إلى صنم

مردوخ وراح يصلي في حرارة ويتهل إليه أن يأمر البار أن تكون بردا وسلاما

عليه كما أمرها رب إبراهيم فكانت بردا وسلاما عليه .

وظل يتהל إلى الآلهة جميعا لا يرقأ له دمع ويقول في حرارة :

— أيها الآلهة ، أيها السادة البعول ، امنحوني مثل ما منح إله إبراهيم أخى .. اجعلوا النار بردا وسلاما على كات بردا وسلاما على أخى .. أيها السادة البعول لنكن مشيتكم في الأرض مشرقة كما هي في السماء مشرقة . وخرج هاران من المعبد وقد استولت عليه الفكرة وملكت كل حواسه ، كان يريد أن يعلن في الملأ أنه سيدخل النار ويخرج منها سالما بإذن آلهته ، ليؤكد لضعاف الإيمان أن آلهته قادرة على أن تجعل النار بردا وسلاما عليه كما جعل رب إبراهيم النار بردا وسلاما على أخيه ، بيد أنه آثر أن يقوم بالتجربة وحده بعيدا عن العيون قبل أن يعلن على الملأ ذلك الامتحان .

وفي جنح الليل سلك طريقا قفرا ، وكان القمر يسطع فأحس راحه فإن إلهه معه يبارك ما هو مقدم عليه .

وجمع هاران حطباً وأشعل فيه النار ثم ألقى بنفسه فيها . فليسته النار فصرخ وخرج منها يعدو ويصرخ في فزع ، ثم سقط على الأرض يتلوى ويثن حتى فاضت روحه .. ونور القمر يغمر جثته التي همدت .

جلس آزر مطرقا حزينا بعد أن أنزل به مردوخ الخراب ، جلس يزمر حسرة على ابنه هاران الذي أراد أن يؤتى ما أوتى أخوه إبراهيم فراح يمتحن قدرة آلهته ، فراح طعمة النيران .

لم تطل أيام ابنه هاران على الأرض بل ذهب إلى العالم السفلى إلى الأرض التي لا رجعة منها . ولم تحتمل إيمتالي العجور قسوة القدر فمات حزنا على ابها ، وذهبت إلى العالم السفلى وتركت وحده يعيش على الذكريات ، ويقاسى مرارة الوحدة التي اشتدت وطأتها عليه لما أصر قومه على مقاطعته وإبداء العداوة له .

لقد نبهه الناس لأن ابنه إبراهيم كفر بالآلهة وحطم أصنامها ، نبذوه لأن ابنه سخر من الآلهة جميعا على أعينهم . ولم يذكر الذين ظلموه أن ابنه الآخر هاران ضحى بنفسه ليدلل على قدرة آلهتهم ، وأنه كان أكثرهم إيمانا بالسادة البعول الكرام .

ونسى آزر ولم يخطر على باله أن كهان أورور رجال الدين فيها حققوا على هاران حقدهم على أخيه . فقد خرج إبراهيم من النار معلما على رعوس الأشهاد قدرة إلهه التي ما كانت تخطر على قلب شئ ، بينما تردى هاران في النار فجاء بدليل مبين على عجز آلهتهم وهوان أمرها .

قال الكهان إن بيت آزر حلت به اللعنات ، وأن هاران احترق بسبب هذه

اللعنات ، وأن الآلهة أبت أن تمد أيديها إلى هاران لأنه تدنس بدعوة إبراهيم فتركت النار تلتهمه ولم تأمرها أن تكون بردا وسلاما عليه .

وصدق الناس هذه الدعوى حتى آزر نفسه صدقها ، ألم يحترق هاران ؟ ألم تمت إيمتالي حرنا عليه ؟ لقد تجلت قدرة مردوخ إذ كتب عليه الخراب ! وسكن الناس إلى ما يدعيه الكهان ولم يطلبوا منهم أن يلقوا بأنفسهم في الجحيم وأن يخرجوا منها سالمين بسلطان آلهتهم أو بسحر مستمر ، وهم الأطهار الأبرار الذين لم تحمل عليهم اللعنات بسبب دعوة إبراهيم .

وبات آزر بها لأفكاره مذمات هاران وحملت إيمتالي على الأعناق . كان يرتجف من غضب آلهته فإن إبراهيم ما يزال على عداوته لهم ، بل وزادت عداوته ضراوة بعد أن خرج سالما من النار التي ألقوه فيها .

وقد أعلت سارة ابنة أحميه إيمانها برب إبراهيم وصارت تقضى سهارها وليدها في المحراب تدعو رها بصوتها الرحيم حتى خشى الجيران أن تفتن أباؤهم . وآمن له لوط على الرغم من أن أباه مات في سبيل إعلاء كلمة آلهته . وآمن المستضعفون من الناس سرا بما جاء به إبراهيم ، ترى ماذا يجبق به من خراب بعد ما حل به ؟ وماذا تفعل الآلهة به أيضا لتعلن عن غضبها ؟

كان آزر كالغريق الذي يجاهد ليتشبث بأى شيء ، لم يجد أمامه إلا أن يظهر الخضوع لآلهته وأن يفعل ما يسكن غضبها . فكر أن يخرج إلى المعبد وأن يقدم القرابين للآلهة حتى ترضى ، ولكنه تذكر العداوة التي يستقبل بها كلما اطلق إلى المعبد فارتعدت فرائصه . إن تحقير الناس إياه أليم لا يطاق حتى ولو كان في سبيل الآلهة !

فلم يكن أمامه إلا أن يذهب إلى معبده الخاص يركي ويتعجب للآلهة عسى

أن ترق له وتعفو عنه . قد دخل المحراب وركع خاشعا لمردوخ ونانا وشماش وعشتار وإلليل وأنو وأيا وكل من يعرف ومن لا يعرف من الآلهة ، وانبعث الصلاة من قلبه حارة والابتهاالات مجلجلة .

وعكف على صلاته وبكائه ودعواته حتى نال منه الجهد .

كان يرجو أن يدرأ غضب الآلهة بصلاته ونسكه ، أن يرفعوا عنه مقتهم وغضبهم ، أن يدعوا أيامه الباقية على الأرض تنقضى بسلام وكفاه ما قاسى من موت العزيزين هاران وإيمتالى !

وجاء إبراهيم يسعى إليه فهو مذ مات هاران وأمه لا يفارق أباه بل يؤنسه في وحدته ويبره ويحفض له جناح الذل من الرحمة ولا يقول له إلا قولا معروفا .

وبقى إبراهيم مع أبيه إلى أن صعد إلى غرفته لينام ، فخرج إلى ملكوت الله يفكر ويتدبر آياته ، ويحس ذلك التناغم بينه وبين الكون الذى يحسه كلما خرج إلى الخلاء .

وتذكر ما كان بينه وبين حده ناحور إلى أن مات ، وما كان بينه وبين أخيه هاران حتى ذهب إلى الله ، وما كان بينه وبين أمه حتى فاضت روحها بين يديه .

مات ناحور وهاران وإيمتالى . مات جده وأخوه وأمه ، وسيلحق بهم حين يأذن الله أبوه وزوجه ، ثم يكون يوم يذهب فيه هو نفسه إلى الرفيق الأعلى ، كل الناس يفوقون الموت .

الموت ؟ وماذا بعد الموت ؟ البعث ! فالملوك يبعثهم الله وإليه يرجعون . سيحيى يوم يبعث الله فيه الناس جميعا فينبئهم بما عملوا ، فقد أوحى الله إليه (أي الأنبياء)

أن « ما خلق الناس ولا بعثهم إلا كنفس واحدة » .

لقد آمن بما أوحى الله إليه ، آمن بأن الله هو الذى يحيى ويميت وأنه قادر على أن يحيى العظام وهى رميم . وأنه إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ، فراح يسبح باسم ربه الأعلى ، الذى خلق فسوى ، والذى قدر فهدى ، والذى أخرج المرعى ، فجعله غثاء أحوى ، فأحس أن الكون كله يسبح معه الله ويقدم له .

واتسعت الرؤية أمام بصيرته ، واجتازت روحه حدود نفسه فإذا بها تتحد فى روح الكون وتتسق مع حولها ، وترهف السمع لما يلقى فيها ، لما يوحى إليها . فذكر إن نفعت الذكرى ، سيدكر من يخشى ، ويتجسها الأشتى ، الذى يصل النار الكبرى ، ثم لا يموت فيها ولا يحيى ، قد أفلح من تركى ، وذكر اسم ربه فصلى ، بل تؤثر الحياة الدنيا ، والآخرة خير وأبقى . وامتلأت نفسه بالأسس إذ يناجى ربه ويتلقى منه ما يوحى إليه ، فقال :
— رب أرنى كيف تحبى الموتى .

قال :

— أو لم تؤمن ؟

قال :

— بلى ، ولكن لطمعن قلبى .

قال :

— فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ، ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ، ثم ادعهن يأتينك سمياً .

وأخذ إبراهيم أربعة من الطير ، وانطلق إلى جبل مغير فذبحها وقطع كلا

منها أربعة أحرء ، ثم جعل كل جبل من الجبال جزءا وعادا إلى الوادى ودعا الطير باسم الله ، فإذا تأتى إليه سعيًا ترعرع بأجنحتها في الهواء . فتهلّل قلب إبراهيم بالفرح ، لم ير كيف نفخت الروح في أشلاء الطير ، ولكنه رأى أثر القدرة ، فما كانت جبال مغير إذا تحيل لها الله لتستقر في مكانها .

واطمأن قلب إبراهيم وزاده الله إيمانًا على إيمان ، فانطلق وقد أشرق النور في روحه يذكّر الناس إن نفعت الذكرى ويقول لهم : قد أفلح من تزكى ، وذكر اسم ربه فصلى ، وأن الله عزيز حكيم .

وعاد إلى من آمنوا بيصرهم في أمر دينهم ، ويبلغهم ما أوحى إليه ويقول لهم :

— على العاقل ، ما لم يكن مغلوبا على عقله ، أن يكون له ساعات : ساعة يناحى فيها ربه ، وساعة يفكر فيها في صنع الله عز وجل ، وساعة يحاسب فيها نفسه فيما قدم وأخر ، وساعة يخلو فيها لحاجته من الحلال في المطعم والمشرب .

وعلى العاقل ألا يكون طاعا إلا في ثلاث : تزود لمعاده ، أو فرقة لمعاشه ، أو لذة في غير محرم .

وعلى العاقل أن يكون بصيرا بزمانه ، مقبلا على شانه ، حافظا للسانه . ومن حسب كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه .

وكان يذهب إلى المعبود وإلى الأسواق يدعو الناس إلى الله ، كانوا من قبل يقولون : لو يأتينا بآية من ربه وقد جاءتهم الآية ظاهرة باهرة ، ولكن الكهنة طمسوا عقولهم وأوهموهم أن ما حدث إن هو إلا سحر مستمر ، أفئاتون السحر وأنهم تبصرون ؟

وكان إبراهيم أوها حليما تنهر دموعه إذا ابتهل إلى الله ، ولكنه ما كان يدعو الله قط أن يأخذ قومه بذنوبهم ، بل كان يستعفر لهم ويلتمس لهم المعاذير .

واتخذ قومه هزوا وسخروا منه ، ولما ضاقوا به أخذوا يأتهمون به ليقتلوه أو ليخرجوه من ديارهم . وكان الكهنة ورجال الدين أشد الناس عداوة له ، وما كانت عداوتهم له غيرة على آلهتهم وما نالها من تحقير ، بل كانت خوفا على سلطانهم وأن يجف نهر الخيرات المتدفق إلى خزائهم ويخارنهم ودورهم وضياعهم .

وجاءه وفد منهم وقالوا له :

— اخرج من ديارنا .

فقال في ثبات :

— لا أفعل حتى يأمرني ربي .

فقالوا في غيظ شديد :

— لنخرجن أو لنقتلك .

— لن أخرج إلا أن يأمرني ربي .

وأوحى الله إليه أن اخرج من البلدة الطالم أهلها ، فراح يتأهب للهجرة ويجمع عبيده ومواشيه ، وبلغ آزر أن إبراهيم خارج من أور فذهب إليه يطلب منه أن يحمله معه ، فلم يعد يطبق الوحدة التي يحياها ولا عداوة قومه ولا نظرات الاحتقار والزرابة التي تصوب إليه كلما سلك طريقا من طرق أور .

وراح لوط يتأهب للخروج مع عمه ، فتشبثت به أمه وتوسلت إليه أن يبقى معها بعد أن ذهب أبوه إلى الأرض التي لا رجعة منها ، ولكنه رفض طلبها وقال في إيمان عميق :

— إني مهاجر إلى ربى وهو العزيز الحكيم .

انطلقت قافلة الإيمان في رحاب الله ، محلفة وراءها أور الكلدانيين بطرقاتها ومبانيها وبرحها العظيم الذى علا في السماء يخلد عظمة البشر ويشدهم إلى الأرض ، ولا يخلق بهم في رحاب السماء .

وانساب المؤمنون على ضعة الفرات ، وكانت الحقول تمتد إلى مدى البصر إلى الآفاق البعيدة المغلفة بالجهول ، وكان النهر يتدفق بنعمة الله وصوت خريره في أرواح المؤمنين تسبيح ، وكانت السماء صاحبة والشمس ترسل أشعتها الحارة فيتصعد العرق من الجباه وتمن الأجساد من التعب ، ولكن إشرقة النور التى تعم القلوب كانت تحوّل كل مشقة إلى رضا وحبور ، فقد كانوا جميعا مطلّقين في سبيل الله .. إلا آزر فقد خرج فرارا من الرماية والاحتقار ونظرات العداوة التى تطل من عيون الناس ..

كان إبراهيم يسرى في ملكوت الله سريان الروح القوية المؤمنة ؛ وكانت سارة تتألق في جمالها الذى يهر العيون وقد أضفى عليها إيمانها جلالا يفوق كل جمال ؛ وكان لوط شاهبا قويا ، ولكن القوة التى أمده الله بها بعد أن أسلم له وجهه تفوق كل قوة فهى قوة الروح التى تأتى بما يعجز عنه البشر ، وكان العبيد الذين آموا يستشعرون من العزة والحرية بما لم ينعم به الأحرار ، فلم يعد رجاؤهم مشدودا إلى الأرض به ارتفع وسما إلى ما فوق السموات .

وأقبل الليل وخفت حرارة النهار وهبت نسائم ندية أنعشت العموس

والقافلة تجدد في السير . وما زال الناس في سيرهم حتى أشرقت الشمس فنزلوا عن رواحلهم ونصبوا الخيام وأسلموا أجسامهم للرقاد . ناموا ملء عيونهم وما فكر أحدهم في الدار التي غادرها ولا في الفراش الوثير الذي هجره ، فقد أقام كل منهم في قلبه بيتا لله ، بيتا لا ترتفع إليه بيوت الدنيا بما فيها من رياض وزينة ومتاع .

ورقدت الأنعام والأعنام بالقرب من الخيام . إنها كل ما حرجوا به من المدينة ولكمهم كانوا يحسون أنهم أعنياء . فإن أرض الله الواسعة لهم ، ومياه النهر التي تجري بالخمرات ملك أيمانهم ، وكواكب السماء سحرت لهم ، فهم مذخرجوا من أور في ضيافة الله .

وقاموا للصلاة واصطفوا جميعا خلف إبراهيم ، إلا آزر فقد انتبذ مكانا قصيا وراح يفكر فيما كان بينه وبين ابنه ، حتى إذا طافت بدهه ذكرى ذلك اليوم الذي اشتعلت فيه النار في آفته أطرق مليا وأصاح سمعه لما كان بينه وبين إبراهيم من حوار :

— يا أبت إن البار أحق بعبادتك من أصنامك لأنها تحرقها .

— فلماذا لا تعبد النار ؟

— لأني لا أحسب البار إلها ، لأن الماء يحمدها .

— فلماذا لا تعبد الماء ؟

— لأني لا أحسب الماء إلها ، لأن الأرض تبتلعه .

— فلماذا لا تعبد الأرض ؟

— لأني لا أحسب الأرض إلها ، لأن الشمس تخففها وتشر على الكون

كله أشعتها .

— فلماذا لا تعبد الشمس ؟

— لأنى لا أحسب الشمس إلها ، لأن الظلام يحجبها .

— فلماذا لا تعبد ما نعبد ؟ لماذا لا تعبد القمر ؟ لماذا لا تعبد المشتري ؟

— لأنى لا أحسب القمر والجوهر والكواكب التى تظهر فى الظلام آلهة ،

لأنها تحجب عند طلوع النهار ، وإنما الإله القدير على كل شيء هو خالق الشمس والقمر والكواكب والأرض وما عليها وخالقى وهادى إلى الحق المبين .

• وراح آزر ينظر إلى المصلين وهو يعجب فى نفسه كيف آمن هؤلاء بما يدعو إليه إبراهيم ؟ كيف أساعت عقولهم أن يعبدوا إلها لا يرونها وليس له رمز فى السماء كمردوخ ونانا وشمش وعشتار والآلهة الأخرى ؟ إنه عندما يناجى مردوخ يتمثل له فى خياله وهو جالس على عرشه وقد كبرت أذناه اللتان ترمزان إلى حكمته . وعندما يناجى نانا يراه أمام عينيه هلالا دائما أبدا ، ويعكس فى أعماقه أنه هو الذى يقيس الزمن وهو الذى ينهى الأيام والشهور والسنين للملوك المذنبين بالدموع والتأوهات !

وعندما يناجى شماش وعشتار ولدى الإله القمر فهو يعرف من يناجى ، وهو عندما يرفع عينيه إلى شماش فإنه يرفعهما إلى القاضى الأعظم الذى أنجب إليهن جليلين هما كئو وميشار : العدالة والحق ، وهل هناك أجل من العدالة والحق ! إن شماش يظلم تحت قدمه ويملى على أنبائه الملوك والآلهة قوانين العدالة .

ترى ماذا يرى الذين آمنوا بإله إبراهيم عندما يرفعون أبصارهم إلى السماء ؟ لقد قلب وجهه فى السماء فلم يرف فيها إلا آلهته وآلهة قومه ، ولم ير

إلا القمر والشمس والكواكب ، كيف يريد إبراهيم منه أن يجحد عن آلهته التي يراها ويعيش في كنفها إلى إله لا يراه .

لو أن إبراهيم دعاه إلى عبادة النار أو الماء أو الأرض أو النجوم أو الشمس أو القمر لاستجاب له ، فهذه آلهة ترى ؛ أما ذلك الذي يدعو إليه فما عرفه أحد من الآباء والأجداد .

وذكر آزر أن رجلا من المؤمنين مما يدعو إليه ابنه قال له : إن الله طهر الأرض مرتين : مرة بالطوفان ومرة بالنار التي أججت ليلقى فيها ابنه المبارك . ودعاه أن يسارع للإيمان والأرض ما تزال طاهرة قبل أن يعود الفساد فيدب فيها مرة أخرى ، مثلما استشرى بعد الطوفان .

وراح يفكر في هذه القولة ؛ إنه يعلم أن الملوك الآلهة هبطوا إلى الأرض بعد الطوفان ليحكموا الشعوب باسم الآلهة الذين في السماء ، ومنذ ذلك الوقت والملوك الآلهة يمارسون سلطانهم . فأين ذلك الفساد الذي يتحدث عنه ؟ وقال له الرجل إنه جاء في صحف إبراهيم أن الله يقول للمروء ومن على شاكلته : أيها الملك المسلط المبني المغرور ، إن لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها إلى بعض ولكن بعثتك لترد عني دعوة المظلوم ، فإني لا أردها وإن كانت من كافر .

إله إبراهيم هو الذي بعث الملوك الآلهة ليحكموا بين الناس ؟ إن كان هو الذي بعثهم فمادا فعل آلهتنا ؟ إن آلهتنا اجتمعوا في مجتمعهم بعد الطوفان وأنزلوا الملكية من السماء ، وما كان للملوك الآلهة أن يظلموا فإن كل ما يفعلونه عدل ، عدل إلهي ، ووصف إبراهيم إياهم بالغرور والظلم وصف جفافه الإنصاف .

وخطر له بعد أن استراح إلى ما وصل إليه حاصر أقلقه . إن التمروذ المثلث الإله ذبح لإله إبراهيم أربعة آلاف بقرة ، أكان يضحى بكل هذه الأبقار إن لم يكن إله إبراهيم عظيما يستحق هذه التصحية ؟! ووسوست أقوال الكهان في صدره : إن إبراهيم سحر الناس وخرج من النار بسحره ، وسحر التمروذ حتى جعله يدبح الأبقار . واستراح إلى همرات الشيطان . فأبوه ناحور كان عالما بالسحر وأسرار النجوم ، فلعل إبراهيم تعلم السحر من جده على غفله مه كما تعلم منه النظر في النجوم !

وعاد فكره إلى لقلق الذى أصبح يساوره منذ جاء إبراهيم بدعوة توحيد الآلهة جميعا ، فقد تبادر إلى ذهنه سؤال حائر لم يعرف له جوابا : إذا كان إبراهيم سحرهم حقا فلماذا لم يعاقبوه تهمة السحر والقانون يحكم بإعدام من يمارس السحر .

لو خلى التمروذ بين الكهنة وبين إبراهيم لقتلوه ، ولكن التمروذ حال بينهم وبينه ، إن كان التمروذ قد أجاره أو ليس هو لها لا يشين أفعاله خطأ ولا يجانبه الصواب ؟ أو يقدر إبراهيم إن كان ساحرا أن يسحر إليها؟ إن آزر في حيرة لا يدري ما يفعل . أيؤمن بما يدعو إليه ابه ويكسر دينه ودين آبائه ، أم يظل على دينه وعبادة آفته السادة البعول العظام ؟

واستأنفت قافلة الإيمان رحلتها وقد أسلم كل من فيها قلبه لله ، فلم يعد لأحد منهم عذبة إلا رضى ربه . كانت سعادتهم عامرة فهم مهاجرون إلى الله . ولم يكن بأسر الوحشة إلا آزر ، فقد سار في نفس هذه الطريق يوم استدعاه الأوريجاللو في بابس ليصنع تمثالا للإله مردوخ في عبده الكبير ، وكان وقتئذ مشرح الصدر يعرف مواقع قدميه ، وما يكدر صموه إلا رؤيا أبيه التى

رآها في كبد الأضحية ، ليلة رأى أصنام الآلهة تتكفأ على وجوهها .

كان في ذلك الحين تطوف به موجة من الرهبة ، الرهبة من المجهول ، أما اليوم فقد وقع ما كان يخشاه وعاش حتى رأى تأويل رؤيا أبيه ناحور ، عاش حتى رأى ابنه إبراهيم يحطم أصنام الآلهة يمينه ، وقاسى بسبب ذلك من غضب الآلهة وكتب عليه مردوح الخراب فاحترق هاران وماتت إيمتلى ، وها هو ذا يهيم على وجهه مع أناس آمنوا لآبائه وكفروا بدين آباءه الأولين . وتذكر أن أباه قال له إنه رأى نورا يخرج من ظهره يبر السماء ، ولم يشأ أن يصدق أن ما رآه ناحور رؤيا صادقة وأن إبراهيم مبارك ، بل راح يؤكد لنفسه أن ما رآه أبوه يخرج من ظهره إن هو إلا نار خرجت لتحرق آلهة السماء . ومرت القافلة ببابل ولاحت للعيون المدينة التي بنيت فوق الربوة ببرجها المائل المدرج ، فصغرت نفس آزر في عينيهِ وراح ينهل إلى رب الأرباب في حرارة أن يرفع عنه غضبه ، بينما نظر إبراهيم ومن معه إلى المدينة العظيمة في اردراء ، فإن بيوت الله التي شيدها في قلوبهم أروع وأرحب وأتمن من كل بيوت الأرض .

وضربت القافلة خيامها بأرض مدينة سفروايم ، ولما استراح أهلها من تعب الرحلة دخلوا المدينة يتزودون من أسواقها ويمتثلون سقايتهم من آبارها . وراحوا يتلفنون حولهم فهذه أول مرة يرى فيها إبراهيم وسارة ولوط تلك المدينة . وانطلق آزر وهم خلفه فوجدوا أنفسهم أمام معد من معابد القوم ارتفع برجه وغص بالناس .

وسار آزر إلى حيث قام المديح ، وإذا خلق كثير يتعبدون وإذا المراسيم تحرى في خشوع ، وأصوات المغنين ترتفع بالتراتيل ، والدموع تفيض من العيون .

ودار إبراهيم على عقبيه لينصرف وإذا بمسارة تهتف به :

— إبراهيم ! انظر .

ونظر إبراهيم فإذا برجل يعترف بما ارتكب من المعاصي ثم يقدم ابنه البكر ليذبح قربانا للآلهة . وتقدم الكاهن فأمسك بالصبي وذبحه وهو يرتل الدعوات ، والموسيقيون ينفخون في المزامير وينقرون على الدفوف والطبول ، والعرافون يطنقون البخور .

والتفت عينا إبراهيم بعيني أبيه وكان يملو على آزر الإيمان العميق وكأنما كانت عيناه تقولان لابنه : أرايت إيمان قومنا بآلهتهم ؟ لقد بلغ بهم الإيمان حدا جعل الأب يذبح ابنه البكر على مذابح الآلهة تكفيرا عن معصية ارتكباها . أقلو كانت سارة أنجبت لك ولدا أكت تذبحه قربانا لإلهك ، لربك الواحد الذي تدعو إليه ؟

كانت نظرات آزر تنطق بالإيمان بآلهته ، فقد خامره الشك شيئا في أمرها بعد ما سمعه من إبراهيم وما رآه من تحطيمه لأصنامها ، أما ما يجري الآن عند مذبح الإله في سفراويم فقد أعاد إليه إيمانه . إن آلهته ما تزال عظيمة جليلة حتى إن المرء ليتقرب إليها يذبح ابنه البكر عن طيب خاطر . وتذكر هاران الذي احترق ليدلل على قدرة آلهته فلم يحصر الحزن قلبه بل عمره الرضا . إن تضحية هاران لآلهته تفوق تضحيه هذا المؤمن عميق الإيمان الذي يقدم فلذة كبده زلفى للآلهة ، فقد قدم هاران نفسه وليس شخصا سواه على مذبح الأرباب ، تضحيته تفوق كل تضحية تخطر على البال .

وَقَرَّ عَزْمُ آرَارُ أَنْ يَبْقَى عَلَى دِينِ آبَائِهِ ، أَنْ يَظَلَّ مُؤْمِماً بِأَرْبَابِهِ حَتَّى لَا تَذْهَبَ
تَضْحِيَةُ هَارَانَ الْحَبِيبِ هَبَاءً ، وَرَاحَ يَطْمَئِنُّ نَفْسَهُ أَنَّ الْآلِهَةَ سَتَرْضَى عَنْهُ ، فَإِنْ
كَانَ مُرْدُوخٌ قَدْ كَتَبَ عَلَيْهِ الْخُرَابُ فَمَا فَعَلَ ذَلِكَ إِلَّا اِسْتِقَاماً لِمَا فَعَلَهُ إِبْرَاهِيمُ ،
وَلِتُحَرِّينَهُ الْآلِهَةُ خَيْرًا بِمَا قَدَّمَ هَارَانَ .

وامتطى المؤمنون روحهم واستأنفوا رحلتهم ، وأثارت الأنعام والأعنام
القع حتى كادت تحتجب الرؤية .

وكان إبراهيم هادئ النفس منشرح الصدر فقد صار الكون كله معدا ،
فأينما يولى وجهه فم وجه الله .

ورأى في طريقه الثيران تحرث الأرض ، والفلاحين يسدرون الحب .
والمياه تترقق في القنوات كاللجين وتسرى سريان الروح ، وأشجار النخيل
سامقة رائعة تنطق بحلال الله . إنها أروع من أبراج المعابد التي تخال أياها ثم ما
تليت أن تنهار . إن أشجار النخيل — أبراج الله — ستبقى في جلالها ما دامت
الأرض والسماء تسبح بحمد الله وتقدس له .

وصرب المؤمنون في اليباء حيث الفضاء لا يحد ، الفضاء النقي الذي
يفصل الأرواح . فراحوا يملئون دواتهم بروح الكون قبل أن يملئوا صدورهم
بتقاء الهواء ، فقد أمدتهم إيمانهم برحابة روحية جعلتهم يتحدون مع روح
الوجود ، ويتهللون بالفرح كلما وقعت أعينهم على ما في الكون من كائنات .
ومروا بالآبار الحمر آبار النمط في حث ، ثم هبطوا إلى بساط سدسي أخضر
وشئى بالبرجد والياقوت والمرجان ، ودبت الحياة في الكون وارتفع نبضها .
فالأنعام والأعنام ترعى في مراعى الله ، والعبيد والرجال يملئون سقائهم من
المياه الجارية ، والسماء يتفيا ن ظلال الأشجار وينعمن برطب الهواء .

وحلس آزر يلتقط أنفاسه ويحن إلى الاستقرار . إنه في طريقه إلى حاران مدينة القيظ والحر اللامع فلن يكون المقام فيها هيبا لنا ، ولكنه مع ذلك يرجو أن يبلغها ليستريح من وعناء الطريق .

لقد عادر أور لينجو من نظرات العداوة التي يرشق بها قومه ، فقد كان لسمع تلك النظرات ألما على روحه حتى هان عليه أن يهاجر من وطنه ، بيد أن قسوة الرحلة فاقت كل ما كان يتصوره .

كان يخفف من آلامه أن حاران مثلها مثل أور مقر لعبادة الإله القمر ، وإن كان يعبد في حاران باسم الإله سين وفي بلده باسم الإله « نانا » . إنه هو نفسه الذي يحبه ويقدم له الخضوع والولاء ويرفع إليه الدعوات ويتزلف إليه بالقرايين . إنه يحس أنسا كلما كان في حضرته ، وسواء عليه أعبده في أور باسم نانا أم في حاران باسم سين ، أم في سيباء حيث أقيم له معبد هائل يليق مقامه واشتق من اسمه اسمها لتتقدس أراضيها .

إن إلهه القمر يعبد في كل بقاع الأرض التي يعرفها ، فكيف يسفه إلهه أحلام كل هذه الأمم ويظمن في معتقدات كل هذه الشعوب ؟ إن ضياء إلهه لطيف ينزل الأمن بالقلوب ويشرح الصدور ، أما نور رب إبراهيم فإنه يشرق في قلبه ، وكيف يشرق في قلبه نور لم تر عيناه له شروقا؟!

وعاود آزر التلقق ، أبتكره إبراهيم في حارب يعبد إلهه كما يشاء أم يحول إليه ويرى عبادته كما فعل في أور ؟ وهل يفعل إبراهيم في حاران ما فعله في أور فيسخر من آلهة القوم على أعين الناس ؟

وبرل بقلب آزر هم شديد : إن كل الدلائل تشير إلى أن إبراهيم لن يتوانى في تليع رسالات ربه ، وقد ازداد صلابة وعزم بعد أن خرج سالما من النار

التي ألقوه فيها ولم تحرق إلا وثاقه .

إن حاران مدينة من مدن القوافل وهي مفتاح الطريق بين الشرق والغرب ، وما جاء إبراهيم إليها إلا ليدعو العاديين إليها والرائحين منها إلى ديه ، إلى عبادة إلهه . إنه ما جاء إليها إلا ليعرض نفسه على القنائين يدعوهم إلى رب العالمين .

واربذ وجه آرر ، فلو أنه اهتدى إلى ما وضح لعينه الساعة لما غادر أور وما ترك وطنه ، إنه فر من نظرات العداوة من قومه إلى نظرات قد تكون أشد ضراوة وشراسة منها . إن قومه كانوا يعرفون له أنه كرس حياته لصنع تماثيل الآلهة . أما أهل حاران فلا يعرفون عنه شيئا . إنه كالمستجير من الرمضاء بالنار .

وارتجف فرقا فهو شيخ كبير لا يستطيع احتمال التعذيب ، إنه يريد أن يمضى ما تبقى من أيامه على الأرض في سلام ، ولكن كل الدلائل تشير إلى أن مردوخ قد كتب عليه الخراب وأن كل الآلهة ما ترال غاضبة عليه من جراء ما فعل بها إبراهيم .

وراحت القافلة ترقى جبال بادام آرام ، وكانت صحورها صلبة فكأت الرواحل تسير في بطاء شديد ، وأخذ الرجال والعبيد يدفعون الأنعام والأعنام في شعاب الجبال دفعا ، ولمح إبراهيم حملا حديث الولادة يجهد ليلحق بأمه ، فهبط من على راحلته وأخذ الحمل بين ذراعيه وضمه إلى صدره في حنان ، ثم عاد به إلى راحلته وهو يمسح على ظهره بيده وينظر إليه بعينين يشع منهما العطف والحب . كان قلب إبراهيم كبيرا يفيض بالحنان على كل من حوله .

وانسابت القافلة في الأرض الفضاء بين دجلة والفرات ، وظهرت على البعد مدينة حاران ، ولاح معبد الإله القمر على ربوة عالية كأنه منار في وسط الصحراء ، وارتفع برجه المدرج في خيلاء يحلد براعة الإنسان .

وتهلل قلب آرر فقد صار الآن في كنف إله يستطيع أن يرى تمثاله وهو ينجيه ، إله له مذبح يستطيع أن يذبح عليه ما يتقرب به إليه . لقد سمع من إبراهيم أن الكون كله معبد لإلهه ، وأن الأرض مسحد وظهر ، وأن السماء آية من آياته ، وأن كل ما فيها من نجوم وكواكب وأقمار وشموس تسبح له ، وأنه فوقها جميعا وليس في الأرض ولا في السماء مشيئة إلا مشيئته ، ولكنه لا يستطيع أن يتصور معبد بلا حدران ولا كهنة ولا معنين ولا مغنيات ولا مراسيم ولا تماثيل ترمز إلى الآفة جميعا !

ستشهد عبياء عما قليل برؤية إلهه ، وتشرب أذنائه ألحان المغنين والمغنيات ، وتشم أنفه رائحة البخور . رائحة الخطايا التي تحترق على مذبح الإله لتزكو وتنقلب إلى عبير .

سيرى عما قليل أسمى تضحية : تضحية فتيات المعبد بأجسادهن متحلمات كل فسوة وامتهان في سبيل إضاء عشتار الإلهة العطوف ! ودخلت القافلة مدينة حاران في الليل ، وانطلقت إلى أقرب بئر ، فحفر السوة وقد حمل جرارهن على رءوسهن ونزلن في الدرج الذي يقود إليها وتزاحن حول الماء .

وحاء الرعاة يتدافعون ليمسوا أجران الماء لسقي الخمال والثيران والأعنام ، ورأى إبراهيم النساء وهن يرسوسن بأساورهن وحلائلهن ويمشققن طريقهن بين الرجال فأمر عبده أن يمسواهن جرارهن ، وأن يسقوا أغنامهن .

قبل أن يملئوا سقاياتهم أو يرووا ما معهم من إبل وأبقار وأغنام .

وضرب إبراهيم خيامه بين الدأوة والحضارة ليهض بالرسالة التي بعثه بها ربه ، كانت حاران عاصمة بالدور والبيوت الواسعة إلا أن إبراهيم هجر المياني التي نحد من تأملاته ، وعزم أن يعيش على حافة المدينة ليكون بعيدا عن عادات قومه وتقاليدهم التي استقرت في ضمائرهم ، بعيدا عن عقائدهم التي أفسدها الكهان ورجال التشريع !

إن رجال الدين يعيشون بين جدران المعابد ، أما الأنبياء فيسبحون في مملكة الله يدعون الناس إلى التحرر من قيود الناس وعبادة الناس . يدعونهم إلى التخلص من إसार الأوامر الحامدة والشعائر الزائفة إلى حيث رحابة الإيمان . كانت خيام إبراهيم على طريق القوافل المنطلقة بتجارة بابل إلى الشام والحجاز ومصر والعائدة إليها بخيرات تلك الأقاليم ، وكان إبراهيم إذا جن الليل يوقد نارا يدعوها الضيفان إلى طعامه . فلم يأكل إبراهيم وحده مذبح من أور بل كانت مواعده عامرة أبدا بالعادين والرائحين وأثناء السبيل .

وكان إبراهيم يدعو كل من نزل خيامه إلى الله ، وكان التجار أكثر الناس فهما لرسالته فقد كفروا في قرارة أنفسهم بأنهم المحلين الذين ما كانوا يرفعونهم في ترحالهم . إنهم كانوا أكثر الناس حاجة إلى إله يرفعهم في سفرهم في الفيافي والقفار والجبال ، وإله إبراهيم الذي يدعوهم إليه موجود في كل مكان وهو أقرب إليهم من حل الوريد . ولكن أشعاهم يجمع أنال واحتكر التجارة ورفع الأسعار وخدع البسطاء وغش السلع وتطعيف الكيس والورن ، كل أولئك صدهم عن ذلك الدين الذي يريد أن يحاسبهم على كل ما يفعلون في الدنيا ويهددهم بالحساب بعد الموت يوم يعيشون .

وكان آزر ينسل من خيام ابنه وهو يترقب إلى معبد الإله سين ، حيث يركع أمام مردوخ وإله القمر والآلهة الأخرى يردد الصلوات في إيمان عميق والدموع تنهمر من عينه ، وكان يقدم الأضحيات في الفجر والمساء لعل مردوخ يرضى عنه ويمحو الخراب الذي كتبه عليه في لوح قدره .

وكان إذا سأله ابنه أين كان لا يجزؤ أن يقول له إنه كان يصلى في معبد آفته ، فإن إبراهيم كان يدعوه إلى دينه كلما جلسا معا ، فكان يقول كنت في السوق أتسلى بمشاهدة حلقات بيع العبيد ، وكثيرا ما كان يعود من الأسواق وقد اشترى بعض العبيد ليستمر ما يفعله في غفلة من المؤمنين . فما كان في خيام إبراهيم من يعبد الأصنام غيره .

وحلس إبراهيم وآزر ذات ليلة يتحاوران بعد أن انصرف الضيوف المكرمون ، قال إبراهيم :

— يا أبت إنى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك فاتبعنى أهدك صراطا سويا .

يا أبت ما ظنك برب العالمين ؟

يا أبت كتب رى على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءا بجهالة ثم تاب

من بعده وأصلح فإنه غفور رحيم .

يا أبت إن رى عظيم ، وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ، ويعلم ما في

البر والبحر ، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ، ولا حبة في ظلمات الأرض

ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين .

يا أبت سبح باسم ربك الأعلى .

فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون . وله الحمد في السموات

والأرض وعشيا وحين تظهرون .

وكان آزر ينظر إلى ابنه وهو مشدوه ولا يدري من علمه ذلك العلم ومن
بث في قلبه عداوته المريرة لآلهة قومه آلهة آبائه الأولين . وانتشر في صدره
القنق ولم يشرح الله صدره للإيمان . واستمر إبراهيم يدعوه في رقة إلى دينه إلى
الإيمان برب السموات والأرض وما بينهما حتى قال آزر :

— آمنت لك يا إبراهيم .

فقال إبراهيم في فرح :

— قل يا أبت أشهد أن لا إله إلا الله وأن إبراهيم عبده ورسوله .

ولم يشأ آزر أن ينطق بالشهادة فقال له :

— ألم تقل لي يا إبراهيم في أوّل سلام عليك سأستغفر لك ربي إنه كان بي

خفيا ؟

— نعم يا أبتاه !

— اذهب واستغفر لي ربك .

وقام إبراهيم إلى المحرب يصلي وهو مروح فقد كان إيمان آزر وإسلامه أحب

شيء إلى نفسه ، وراح يدعو الله والدموع تفيض من عييه :

— رب هب لي حكما وألحقني بالصالحين ، واجعل لي لسان صدق في

الآخرين ، واجعلني من ورثة جنة النعيم ، واغفر لأبي إنه كان من الضالين ،

ولا تحزني يوم يعثون ، يوم لا ينفع مال ولا بنون . إلا من أتى الله بقلب سليم .

بدأ الضوء يتشر في الأفق الشرقى فدبت الحياة في خيام إبراهيم ، وقامت سارة تتوضأ ، وذهب إبراهيم يوقظ آزر ويهزه في رفق ويدعوه للصلاة .

وفتح آزر عينيه ولما رأى ابنه قال له :

— إني قائم .. استغفر لي ربك .

فقال إبراهيم وهو ينظر إلى أبيه في حب :

— لأستغفركم لك ولا أملك لك من الله من شيء .

وأسرع إبراهيم إلى حيث كان لوط وسارة والمؤمنون وراحوا جميعا يدعون

الله في عماية الصبح :

— ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير ، ربنا لا تجعلنا فتنة للدين

كفروا واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم .

وراحوا يصلون في خشوع وقد غابوا عن كل ما حولهم . كانوا بين يدي

الله يحاولون أن يتصلوا بروح الكون ، بدات النوات ، برب السموات

والأرض . وانتبه آزر فرصة اشغاهم عنه بالصلاة فانسل من الخيام وهو

يتلفت واطلق إلى المدينة يسعى .

وقضيت الصلاة وراح الرجال والعبد يرعون الماشية والغنم ، ثم ذهبوا

إلى المعبد يجادلون الكهان ويدعون الناس إلى دينهم ، فقد أصبحت حاران

مسرحا للنصران بين الدين الجديد ودين الآباء والأجداد ، بين رجال أحرار

أسلموا وجوههم لله رب العالمين ورجال يتاجرون بالدين ويرون في زوال سلطان مردوخ ومين وشماش وعشتار والآهة الأخرى زوالا لنفوذهم ، وانقطاع سيل الخيرات المتدفق إلى محازن المعابد وضياح الكهنة من أراضي الأغنياء وجيوب السذج .

ودخل إبراهيم ومن معه الحرم المقدس في معبد الإله سين إله القمر ، وكانت العاهرات المقدسات على جانبي الطريق ينظرن إلى إبراهيم ومن معه في ضيق وتنطلق ألستهن بالهراء والسحرية . وانطلق المؤمنون في طريقهم لا يحفلون بهم ، وكانوا على يقين أن هذه الدعارة ستقضى يوم تذهب أيام الآهة الذين يتقرب إليهم عبادهم بالبغاء وتدئس الجسد .

وانسابوا إلى المعبد وكان الكهان يطلقون البخور ويتلون صلواتهم ويقدمون القرابين للآهة ، وكان المغنون والمغنيات يرتلون الأناشيد والموسيقيون يعزفون الألحان المقدسة . ولما دخل عليهم إبراهيم ومن معه حفتت الموسيقى وزاغت العيون ولاح في وجوه الكهان غصب وخوف وضيق ، كان المؤمنون أشد رهبة في صدورهم من الله ذلك بأنهم قوم لا يفقهون .

وراح الكهان ورجال الدين يجمعون أنفسهم التي ذهبت شماعا ويتأهبون للرد على ما يقول إبراهيم ، إنه جعل الآهة إلهها واحدا وبرهه عن صفات آهتهم ، ورنث في آذانهم أقواله : هو الله الذي لا إله إلا هو انتك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر ، سبحانه الله عما يشركون . هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما السموات والأرض وهو العزيز الحكيم .

ونظر إبراهيم فإذا بأبيه آزر راعع أمام تمثال سين يؤدي صلاته والدموع تهرس من عينيه . إن أباه لم ينس إلهه فلا يزال يعبد إله القمر بعد أن استغفر له ربه ، إنه ما استغفر له الله إلا بعد أن وعده بأنه سيسلم وجهه لله رب العالمين ، وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه ، وقد تبين له الآن أنه عدو لله يقول بلسانه ما ليس في قلبه ، إنه لا يزال على كفره ينسل من الحيام ليعكف على عبادة أصنامهم التي لا تملك له نفعاً ولا صراً .

وأغلق إبراهيم قلبه دون أبيه . إنه يحبه إلا أن حبه ربه أعظم من حبه أباه . إنه يحس مرارة لأنه صدق أباه فاستغفر له ربه وما كان أبوه يستحق الاستغفار بعد أن اشترى الضلالة بالهدى والعذاب بالمعفر . كان يخفف عن إبراهيم أنه قال لأبيه : لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شيء .

واشتد الجدل بين الكهنة والمؤمنين ، وضاق رجال الدين والمتعصبون لآلهتهم بحجج إبراهيم وسحرية من معه بأربابهم ، فأطلت البغضاء من عيونهم وبدأت العداوة من صدورهم ، وأحس إبراهيم ومن معه أن الأمر يتطور إلى قتال بينهم وبين من في المعبد فقالوا :

— إيا ربنا منكم ومما تعبدون من دون الله ، كفربا بكم وبدأ بينا وبينكم العداوة والعصاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده .

وعاد إبراهيم ومن معه إلى حياهم ، ورأى أباه يرقد في ظل خيمة فتذكر إبراهيم ما كان يفعل كلنا وقف في المحراب منذ وعده أبوه بالإسلام . كان يسأل ربه والدموع تفيض من عينيه أن يغفر له لأنه كان من الصالحين .

كان من الصالحين ؟ إنه ما يزال ضالاً ، إنه ما يزال يركع لآلهته ، إنه لا يستحق الاستغفار . وذهب إبراهيم إلى محرابه يعتذر إلى الله عما كان منه

وراح يدعو :

— يا رب إني برىء من أئى .. برىء مما فعل أئى .. برىء من المشركين .
ورفع آزر عينيه وهو ممدد فى ظل حيمته فرأى إبراهيم يبتهل إلى ربه فامتلاً
حزناً ، لقد ندره للمعبد يوم حملت به إيمتالى ، ونذر لآلته إن جاء ما فى بطن
زوجه أئى أن يلحقها « بالحاجوم » لتكون عازقة على القيثار للإله سى .
إنه يمتلى أئى كلما وقعت عيناه على بنات الهوى بالمعبد ، فقد كانت عاية
أمانيه أن يهب إحدى بناته للآلهة ، إلا أنه لم يرزق إلا ذكورا ؛ إبراهيم وناحور
وهاران . وما يزيد فى أساه أن إبراهيم كفر بآله آباءه الأولين وجعله هزوا بين
قومه يسود وجهه كلما التفت عيناه بأعين الناس ، فما أقسى نظرات التحقير
التي تصوب إليه وإن كان لا يزال قائما على دين قومه .

إنه يذهب إلى المعبد ليؤكد للملأ أنه ما يزال على دينه وأنه برىء مما جاء به
إبراهيم ؛ ولكن ماذا يفيد ذهابه إلى الحرم المقدس ؟ ماذا تفيد دموعه وصلواته
وقراينه إذا كان إبراهيم يأتى كل يوم إلى المعبد يقول للمصلين : ما هذه التماثيل
التي أنتم لها عاكفون ؟ .. ماذا تعبدون ؟ أفكأ آهة دون الله تزبدون ؟

وماذا تفيد صلاته ودموعه وقراينه إذا كان إبراهيم يقف فى طريق القوافل
يدعو الناس إلى إلهه الذى يزعم أنه واحد قهار ، له ما فى السموات وما فى
الأرض ، وأنه رب العالمين ! مرض آزر ولزم حيمته وعجز عن أن يذهب إلى
آفته ، وراح يتلفت يبحث عن صديق ما يزال على دينه ليقرّب عنه القرايين
إلى مردوح ويلتمس منه أن يظيل أيامه على الأرض ، إلا أنه لم يجد فيس حوله
من هو على دينه ، فقد جاء إبراهيم بما فرق بين الأب وبنه وبين الزوج وزوجه
وبين الصديق وصديقه . إن لوطا وسارة والعبيد والضعفاء آمنوا جميعا له .

ولكن ابنه ناحور جاء إلى حاران واعتزلهم ، لئنه يستطيع أن يبحث في طلب ناحور .

واشتد بأزر المرض ودخل عليه إبراهيم يتوسل إليه أن يؤمن قبل أن يلقى ربه ليفوز بجنت النعيم . كان إبراهيم يتسمى بكل حارحة من جوارحه أن يهدى أبوه ، أن يموت على الإيمان ، أن يهديه الله الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعم عليهم .

ولكن آزر وضع أصابعه في أذنيه ورفض أن يصغى إلى ما يدعوه إليه ابنه ، إنه في شك مريب من أنه سيبحث بعد أن يموت ، وأنه سيحاسب على ما اقترف من أعمال في دنياه . وأن من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى ، ومن كفر بالله إنه إبراهيم فماواه جهنم وساءت مصيرا .

كان واثقا كل الثقة أنه إذا مات فسيدهب إلى العالم السفلى . إلى الأرض التي لا رجعة منها ، وأنه قد يلقى هناك أباه ناحور ، وأن ذلك اللقاء — إن وقع — هو الذى يؤلم نفسه ويوجع قلبه ، فيسخر منه أبوه لأن ابنه إبراهيم حطم تماثيل الآلهة وأغضب السادة البعول ، وأن مسخرة ناحور ستكون أقسى على قلبه من مسخريات أهل الأرض جميعا .

وراح آزر يلفظ أنفاسه بين يدي إبراهيم ووقف حولهما لوط وسارة المؤمنون من الأحرار والعبيد ينظرون في إشفاق ، كان إبراهيم حريصا على أن ينطق أبوه بالشهادة قبل أن يذهب إلى عالم الغيب والشهادة .. قال :

— يا أبت إن كنت تحب الله فاتبعنى يحبك الله ، يا أبت متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ، يا أبت إني لا أملك لك من الله شيئا فاشهد أن لا إله إلا هو العزيز الحكيم ، يا أبت إن هدى الله هو الهدى ، يا أبت آمن قبل أن

يدركك الموت ليرحمك ربى ويدخلك جناته ، فالله كتب على نفسه الرحمة .
يا أبت أغفر الله تبغى ربا وهو رب كل شيء ؟ يا أبت أشهد أن لا إله إلا
الله يعفرك ما قد سلف ، يا أبت قد جاءك الحق من ربك حائق كل شيء وهو
الواحد القهار .

واضطربت أنفاس آزر ولم يبق له فى هذه الدنيا إلا لحظات ، إن هى إلا
زفرة ثم يموت . وراح إبراهيم يحاول أن يزحزح أباه عن النار التى يصر على أن
يتردى فيها ، قال والدموع تفيض من عينيه :

— يا أبت قل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين .

يا أبت قل أشهد أن لا إله إلا الله وأن إبراهيم عبده ورسوله .

وفاضت روح آزر وهو بين يدى إبراهيم فوضع رأسه على فراشه وهو
حزين ، كأن إبراهيم يحب أباه ويرجو أن يهديه إلى الرشاد . . أن يهديه صراطا
سويا . وهل يملك إبراهيم أن يهدى من أضل الله ؟ إن إرادة الله فوق كل
إرادة ، وإن إبراهيم لا يهدى من أحب ولكن الله يهدى من يشاء من عباده إلى
صراط مستقيم .

تقاطر الناس من القوافل القادمة إلى حاران على خيام إبراهيم ، فكان إبراهيم وعبيده يقدمون لهم الطعام والشراب . ودارت الأحاديث عن البلاد التي وفدوا منها فراح كل منهم يروى عجائب ما شاهده في تلك البلاد ، قال أحدهم :

— إلى قادم من وادى النيل ، من بلاد الصحائب : الأهرام وأبى الهول
والمسلات والمعابد ، إن المسلات في وادى النيل شائعة كأبراج المعابد في
بابل .

فقال آخر :

— ألهما علاقة بالدين ؟

— إنها تخليد لعظمة الإنسان ، أما آلهة المصريين فلهم معابد هائلة تفوق
معابد مردوخ .

— ماذا يعبد المصريون ؟

— يعبدون آلهة كثيرة ، ويحتجع آلهتهم في مجتمعهم كما يجتمع آلهة بابل في
مجتمعهم يتشاورون ويتخلون قراراتهم التي تصبح مشيئة سارية في الأرض أو
في السماء .

— أيعبدون مردوخ ونانا وشمش وآلهتنا الأخرى ؟

— كلا ، بل يعبدون رع إله الشمس وأوزيريس وآلهة أخرى كثيرة .

— أو يختلف رع عن شماش ؟

— إن آفة المصريين يحلون في الحيوان ، لذلك يقدر المصريون البقر والتمساح والصقر ، ويرمزون إلى رع بقرص الشمس بين جناحي الصقر .
— وأزريس ؟

— إنه إله العالم السفلى .. إله الموتى . كان أزريس كسائر الآلهة حاكما في الأرض قبل أن يرفع إلى مملكته في السماء . إنه هو الذي علم سكان مصر الزراعة والكتابة وحياسة الثياب والنظر في النجوم والحساب ، وهو الذي سنهم القوانين .

ونظر رجل إلى المتحدثين وقال :

— هذا شيء عجيب ، فقد نزلت في أثناء مروري بالحجاز بواد غير ذي ذرع لأستريح ، فقابلت هاك رجلا عرفت أنه من الصابئة قال لي إنه كان في ذلك الوادي بيت مقدس بناه إدريس للعبادة ، وأن الطوفان أتى على ذلك البيت فيما أتى عليه . وسألته عن يكون إدريس هذا فقال لي أنه أول من خط بالقلم ، وأول من خاط الثياب ولبس المحيط ، وأول من علم الناس الزراعة ، وأول من نظر في علم النجوم والحساب ، وأنه جاء بالقوانين من السماء ، ثم رفع إلى السماء بعد أن مات .

وقال قائل :

— قد يكون أرريس هو إدريس هذا .

— إنها أساطير تنسجها خيالات الناس ويستغنها الكهان .

— لا يمكن أن ينسج شيء من لا شيء ، لا بد أن يكون هذه الأساطير أصل من الأصول .

ودنا إبراهيم من القوم وكان يطمع أن يؤمنوا بالله الواحد القهار خالق كل شيء ، فهم على علم وسعت الرحلات مداركهم ، ولا بد أن تكون مملكة الله التي ساحوا فيها قد فضحت أعين بصائرهم على وحدة الخالق فقال :

— إدريس كان صديقا نبيا أرسله الله لهداية الناس .

فنظر القوم إلى إبراهيم في دهش وقال أحدهم :

— أى إله من الآلهة ؟

— الله لا إله إلا هو الحى القيوم .

— أ جعلت الآلهة إلها واحدا ؟

— وما من إله إلا إله واحد .

— أينما ذهبنا وجدنا الناس يعدون آلهة كثيرة . الكواكب والشمس

والقمر والبقر والتمساح ؛ فكيف تدعوننا إلى إله واحد ؟

— من إله غير الله يأتيكم بصياء أفلا تسمعون ؟ من إله غير الله يأتيكم

بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون ؟

— يقول المصريون إن رع إله الشمس إذا فتح عينيه يأتينا بالضياء ، وإذا

أغمض عينيه يأتينا بالليل .

— هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض ؟ لا إله إلا هو

سخر لكم الشمس والقمر والنجوم ، الذى له ملك السموات والأرض لا

إله إلا هو يحيى ويميت . يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون ؟

— أنت رجل صالح يا إبراهيم ولكن مالك وهذا ؟

— إني لكم رسول أمين .

فقال القادم من الحجاز :

— كإدريس ؟

— يا قوم اعبدوا الله قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا حلال ، يوم لا ينفع مال ولا بون ، يا قوم لا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم .

— ومتى هذا اليوم ؟

— يوم يقوم الناس لرب العالمين ، يوم القيامة يوم يحكم الله بيبكم ليجزى كل نفس ما كسبت ، إن الله سريع الحساب .

فقال القادم من مصر :

— أياكمنا الله بعد الموت كما يحاكم أزرير الموتي على أعمالهم في العالم السفلي ؟ الله ميزان كميزان أزرير يزن به أعمال البشر ؟

وقال القادم من الحجاز :

— هل دعا إدريس قومه إلى عبادة الله وحدثهم عن يوم القيامة ؟ هل قال لهم إن الله سيحاسبهم على أعمالهم في الدنيا ؟

— فأذا نفع في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون . فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ، ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون ، تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون .

إن الذين كفروا لو أن لهم ما في الأرض جميعا ومثله معه لبيعتوا به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم ولهم عذاب أليم . يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها ولهم عذاب مقيم .

إن الله لا يرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين .

وقال القادم من الحجاز :

— آمنت بالله رب العالمين ، آمنت برب إدريس ورب إبراهيم .

فقال القادم من مصر :

— أتؤمن كما آمن السفهاء ؟ أتصدق أن الناس يعيشون بعد أن يكونوا
أعضاءا ؟ إن ما يقوله هذا قاله الكهنة المصريون من قبل ، فأرريس يقيم الموازين
للناس ، وإله إبراهيم يقيم الموازين للناس .

فقال القادم من الحجاز :

— إن ما جاء به الرسل من ربهم هو الحق ، فلما طال على الناس الأمد
قست قلوبهم ونسحوا حول ذلك الحق الأساطير ، وما عقيدة أرريس إلا ما
تبقى من دعوة إدريس : البعث وخلود الروح .

وقال القادم من مصر :

— إني لا أصدق أن الله يبعث بشرا رسولا ، يأكل الطعام ويمشي في
الأسواق .

— إنما يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد .

فقام القادم من مصر وهو يقول :

— إني كفرت بما تدعو إليه يا إبراهيم .

وقال القادم من الحجاز :

— وإني أسلمت وجهي لله رب العالمين .

وقام من آمن إلى إبراهيم وقال له :

— إني ما تناولت طعاما إلا بضمن .

فقال إبراهيم وأشرق وجهه بابتسامة رفيقة :

— ثمنه أن تذكر اسم الله على أوله وأن تحمد الله في آخره .

فقال الرجل :

— الحمد لله رب العالمين .

وانتشر الناس في الأرض وراح الرجال والعبيد والنساء يرفعون الأنعام والأغنام ويحلبون الماء من بئر حاران . وانتهى إبراهيم من عمله ، فلما جن الليل وقضيت الصلاة أوقد النار ليدعو الناس وأبناء السبيل إلى طعامه .

وكانت الليلة حالكة الظلام ولم يكن في السماء نجم يتلألأ ، وكانت الريح تصفر والبرد شديدا حتى إن إبراهيم جلس أمام باب خيمته ينظر ويخشى أن يمر الليل دون أن يفد إليه ضيف يكرم وقادته .

ولمخ في الظلام شيخا يتقدم ويتوكلأ على عصا فهرع إليه يستقبله ويقوده إلى خيمته . كان الشيخ مسنا حنت الأيام ظهره وخلفت السنون في صمحة وجهه أخاديد تتم عن أنه جاور التسعين .

وبلعا الخيمة وعاون إبراهيم الرجل على أن يجلس ويستريح ، ثم ذهب وعاد ومعه ماء ليعسل الرجل وجهه ويديه ورجليه من وعشاء الطريق ، وجاءت سارة بطعام وغير وضعت أمامهما وراحت تخدمهما بنفسها إكراما للشيخ المكدود .

ومد الشيخ يده إلى الطعام دون أن ينبس بكلمة فقال له إبراهيم :

— هلا ذكرت عليه اسم الله ؟

فنظرت الشيخ إلى إبراهيم في دهش وقال :

— اسم الله ؟

فقال إبراهيم :

— قل بسم الله قبل أن تأكل .

— الله ؟ ومن هو الله ؟

— ربي وربك ورب السموات والأرض وما بينهما .

— ليس لى رب اسمه الله .

— وما تعبد ؟

— أعبد النار .

— ولماذا لا تعبد الله رب السموات والأرض ؟

— لأنى لا أعرف إلها غير النار

— أتعبد إلها يطفئه الماء ؟ إن الماء أولى بعبادتك من النار .

— لا، إن الماء لا يحرقنى ولكن النار تحرقنى ، إنى أعبد من يقدر على

إحراقى .. على نعدى .

— إن الله قادر على أن يحرقك بالنار .

ومد الشيخ يده إلى النار التى تتراقص أمام الخيمة فأحس حرارتها فقال :

— إنى أستطيع أن أمس حر هذه النار ، أما الله الذى تدعونى إليه فأنى لا

أستطيع أن أمس ناره :

ومد يده خارج الخيمة فإذا الهواء بارد فقال :

— لا ، لا أستطيع أن أومن بنار لا أحس حرها :

ثم التفت إلى إبراهيم وقال :

— إلهى تتأجج روحه أمام عيني . أما إلهك فأنى لا أراه ، إنى لا أومن

إلا بما أراه وأحسه .

قم يا سيدى لتسجد معى لإلهى .

وقام الشيخ وسجد للنار فخار إبراهيم وقال :

— لا يسجد فى خيمتى إلا لله .. اخرج .. اخرج .

وقام الشيخ وخرج وسار حتى أطبق عليه الظلام ، وأطرق إبراهيم وأحس

أنه يوحى إليه وإذا بالوحى يتضح في صدره :

— ماذا فعلت بالضعيف يا إبراهيم ؟

— طردته لأنه أبى أن يذكر اسم الله على الطعام وأبى أن يؤمن بالله ، وراح يدعوني أن أسجد معه للنار .

— حملة ربك يا إبراهيم مائة سنة وهو يعبد النار من دونه وبأبى أن يحمده أو يسبح له أو يذكره بخير ، وأنت لم تحمله ساعة وما ضرك بشيء ولا أساء إليك !

وقام إبراهيم وقلبه يخفق من خشية الله ، وانطلق يعدو في أثر الشيخ ينقب عنه في ظلمة الليل وما سأل أحدا من رجاله أو عبيده أن يبحث معه عنه . إنه هو الذى طرده وهو الذى ينبغى أن يعثر عليه .

وبات إبراهيم هائما على وجهه يخشى ألا يعثر على الرجل ويظل عتاب ربه قائما ، إنه يريد أن يصلح ما كان منه في حق الشيخ ليسترخ ضميره .

ووجد الشيخ يتوكأ على عصاه في فحمة الليل والرياح تصفر ، فهرع إليه وعاد به إلى خيمته ليكرمه ويبالغ في إكرامه مرضاة لله .

دبت الحياة في خيام إبراهيم وكانت سارة في خيمتها تشرف على شعون القبيلة ؛ فقد كانت الأميرة الجميلة التى تعد طعام الضيف وطعام الرجال والعبيد . وكان لوط لا يفارق إبراهيم يصفى إليه وهو يصلى في المحراب لرب العالمين فيمتلئ قلبه بالنقاء وتبرى نفسه بكنوز الحكمة وتشرق روحه .

وراح العبيد يغسلون الملابس برماد القصب ، ويجمعون غسل النحل من الشجر ، ويسقون المواشى والغنم ، وما كان إبراهيم يكلمهم بعمل إلا ويده مع أيديهم ، بل ويده أسبق إلى العمل من أيديهم .

وكان مضرب خيام إبراهيم قبلة الفقراء والعبيد والمستضعفين وأولئك الذين يرجون حياة أفضل من حياة قومهم ، وأرحب من الحياة الحبيسة في سجن النفس وسجون المعابد بأبراجها العالية وجدرانها السميكة ، المعابد التى لا سلطان لها إلا أن تجلب الخراب أو تعطيل أيام الناس على الأرض .

وكان إبراهيم يشر الناس بحياة أفضل بعد الموت ، بحبات تجرى من تحتها الأنهار ، وما كان يقول لهم ما يقوله الكهان من أن الحياة تنتهى بالموت ، وأن الميت يذهب إلى العالم السفلى ، إلى الأرض التى لا رجعة منها ، بل كان يحذثهم عن الحياة الثانية ، حياة الخلود ، الحياة التى ينبغى أن يعمل الإنسان لها ليفوز بما أعده الله للمتقين .

راح إبراهيم يدعو إلى إله واحد رحيم غفور ، إله يدرك كل شئ

ولا تدركه العيون ، إنه فوق الكواكب والقمر والشمس ، مشيئة فوق كل مشيئة إن أراد شيئا فإنما يقول له كن فيكون .

وكان ما يمس قلوب الفقراء والعبيد والمساكين والمستضعفين في الأرض أن رب إبراهيم لا يفرق بين السادة الأحرار والفقراء والعبيد ، فلا فضل لأحدهم على الآخر إلا بالتقوى ، لا فضل لعاميلو على مسكينو ولا فضل لمسكينو على عاميلو إلا بما في قلبه من نور ، وقد يتكئ الفقير والعبد على الأرائك في جنة النعيم ، بينما يلقي السادة الأحرار ورجال الدين في الجحيم . كل بما كسبت يمينه . كل بما قدم في دنياه من عمل ، لا فضل لطبقة على طبقة ولا لجنس على جنس ولا لشعب على شعب .

وقامت في حاران قوتان : قوة لاذت بالمعابد تدق الطبول وتنفخ الأبواق وتعبث بأوتار القيثارة والعود وتلعب بالدفوف ، وتمرقق البخور وتذبح الثقرايين في المذابح لتتقى غضب الآلهة وتطيل في أعمار الناس ؛ وقوة أسلمت وجهها لله ، الكون كله معدها والأرض لها مسجد ، ربها رب السموات والأرض وما بينهما ، وهو رحمن رحيم يتقرب إليه بالحسنات ، ليست له مذابح بل تحر له الذبائح ابتغاء مرضاته ، لا يناله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى من عباده .

ونشبت الحرب بين القوتين : بين القوة التي لا هم لها إلا الإبقاء على الجسد وإطالة أيامه السعيدة على الأرض ، والقوة التي أخذت تشجدا الروح لتسعد صاحبها في الدارين ؛ دار الفناء ودار البقاء .

كانت دعوة إبراهيم بيضاء ناصعة يهرسان نورها نور الشمس والقمر ، بيد أنها تسلب أصحاب السلطان في البلاد نفوذهم . إنها تسوى بين السادة

والعبيد أمام الله ، وتقضى على كهنة مردوخ وسين وشماش والآلهة الأخرى ، فيستطيع المؤمن أن يخاطب إله إبراهيم دون وساطة الكهان ورجال الدين وأن يتقرب إليه دون مراسيم الكهنة والسحرة والعرافين ، فهو قريب من عباده ، أقرب إليهم من جبل الوريد ! إنها دعوة صادقة ولكن أُلقيت في طريقها العوائير ، فقد قاومها أصحاب النفوذ مقاومة لا هودة فيها .

أحس رجال الدين الخطر يخلق فوق رؤوسهم ، ويهدد بانقطاع الأنعام التي تتوافد على معابدهم ، وشواقل الفضة التي تتدفق في خزائهم ، وأحمال القمح والشعير والبلع التي تعص بها مخازنهم ، وخدمات السذج الذين يعتفدون أن خدمة رجال الدين تجلب بركات الآلهة وتمنع بقمتهم .

وغضب رجال الدولة لرجال الدين فسلطانهم واحد ، والمنافع بينهم مشتركة ، وإن بزوغ شمس الدعوة الجديدة يعيض نفوذهم ، فتحالف رجال الدين ورجال الدولة على مقاومة هذا الخطر الداهم الذي اتقاده المستضعفون والعبيد ..

وغضبت فتيات المعبد لغضب رجال الدين ولما نال عشثار من تسفيهه ، فرب إبراهيم يحرم أن تضحي امرأة بجسدها في سبيل إرضاء الآلهة ، ويقاوم هذه التضحية ويعتبرها مهانة للبشرية ويحط من قدرها حتى يلحقها بالزنا ! الزنا ! إنه يعتبر في بابل فاحشة ، فيربط الزاني والزانية بالحبال معا ويلقي بهما في الماء ، هذا إذا صبغت الزوجة متلبسة بالزنا . أما العاهرات المقدسات .. فتيات الهوى .. عاهرات المعبد فإنهن إنما يتقربن إلى الآلهة بأجسادهن قبل الزواج ، إنهن إنما يقبلن تلك المهانة مرضاة للآلهة .. مرضاة لعشثار العطوف لا لإشباع شهوة أو جلب لذة .

ولقد أهان إبراهيم ورب إبراهيم فتيات المعابد فكانت عداوتهن للدعوة الجديدة مريرة ، عداوة من طعن في دينه وكرامته ، وحط من شأن تضحياته المقدسة حتى ألصقت بالفواحش والمنكرات .

وراحت العاهرات المقدسات وهن أشد الناس عداوة لإبراهيم ومن اتبعه من المؤمنين يقاوم الدعوة الجديدة وينفش كراهيتها في صلور الرافدين إليهن من حاران والبلاد البعيدة .

كما غضب لرجال الدين كذلك أولئك الذين عاشوا عبيدا لمعتقدات آبائهم ، الذين إذا دُعوا إلى البجاة .. إلى الهدى كانت قلوبهم في أكنة مما يدعون إليه ، أولئك الذين يقولون : وجدنا آباءنا على هذا .

واجتمع رجال الدين من الكهنة والكاهنات والعاهرات المقدسات ، ورجال الدولة من الحكام ورجال القصر والموظفين الذين يقتسمون مع الكهنة خيرات المعابد ، وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون :

— ماذا أنتم فاعلون بإبراهيم ؟

ولم يقل قاتل منهم :

— انصروا أهلكم إن كنتم فاعلين .

كانوا يعرفون جميعا أنهم إنما يدافعون عن كيائهم .. عن وجودهم ، وأن غضبتهم إنما هي لأنفسهم ، فلم يستشيروا الآلهة فيما يفعلون ولم يقربوا إليها القرابين ، ولم يمسحوا حوائط المعبد بلحوم الضحايا ولم يطلقوا البخور ، راحوا يديرون قداح الرأى بينهم .

قال قاتل منهم :

— أخرجه من دياركم .

— لكن أخرجناه اليوم إنه يعود إلينا بعد أن يشتد ساعده ويقضى علينا ،
فقد فتن سواد الناس والعبيد .

— فماذا ترون ؟

وصاح صائح منهم :

— اقتلوه يخل لكم وجه الناس .

— وإن ثار من آمنوا به ؟

— نقضى عليهم جميعا ونسترخ منهم .

— هذا هو الرأى ، لا خير فى أن يقتل إبراهيم ويبقى لوط فقد أفسده .

— لنقتلن لوطا فهو يقول إن إبراهيم هذه السبيل .

— لنقتلن إبراهيم ولوطا وكل من آمن لإبراهيم .

وذهب إبراهيم إلى المعبد يدعو القوم إلى رب العالمين ويصدهم عن عبادة
مردوخ الغارق فى البله والوجوم الذى لا يفقه شيئا وإن أطالوا أذنيه ليرمزوا إلى
حكيمته ، وعن عبادة سين الجالس على عرشه يحمل الفأس وسلسلة القياس
وإن كان لا يعقل كيف ينبت الحب وينمو الزرع وينضج الثمار ، ولا يعرف
كيف تمسح الأرض وتقاس الأبعاد .

فتار الكهنة وراحوا يقولون للملأ الذين التفوا حوله يستمعون إليه ،
لتأرن الآلهة منكم ، ولتفرقنكم بالطوفان إن استمعتم إلى هذا الكافر بالهتكم
الذين اتخذهم هزوا ، فروا بأنفسكم قبل أن يحل عليكم العذاب .

وصدق الناس ما قاله الكهان وانفضوا من حوله وتركوه قائما وحده
يتلفت فى أسى ، إنه يرجو لقومه الهداية بيد أنهم يفرون منه ويعرضون عن
دعوته .

وانصرف إبراهيم وهو مطرق الرأس فقد انقضت سنون طوال وهو يدعو الناس إلى الإيمان بالرحمن ، ولم يؤمن بما جاء به إلا قليل من المستضعفين والعبيد . إنه لم يقصر في دعوته فقد دعا قوافل التجار إلى الله الذي يرعاهم في الفياض والقفار ، إلى الله الذي لا إله إلا هو الرزاق الوهاب القريب من عباده من يجيب دعوة الداع إذا دعاه ، ودعا قومه إلى مغفرة ورحمة من ربهم ، دعاهم إلى ما يحبههم ، إلى ما فيه خير الدنيا وخير الآخرة ، ولكنه كلما دعاهم ليغفر لهم ربهم جعلوا أصابعهم في آذانهم .

وراح الكهان ورجال الدولة يدعون عبيدهم والمؤمنين بآلهتهم إلى عمل فيه رضا الأرباب ، إلى عمل تهلل له الآلهة فرحا ، إلى عمل يرفع مقت الآلهة وغضبها عن حاران وأهل حاران ، هذا العمل المبارك هو قتل إبراهيم ومن معه من السفهاء .

وأعد كل شيء ، واتفق على أن يشن الهجوم على خيام إبراهيم في عمية الصبح فيقتل الرجال وتسبي النساء وتساق الأنعام والأعنام غنيمة باردة للأرباب !

وأوحى إلى إبراهيم أن اخرج ، أن أسر بأهلك ليلا ، فأذن إبراهيم بالتأهب للرحيل ، أمره الله فكان عليه أن يطيع . لقد غادر أور من قبل وترك فيها أمه يمتألي وها هو ذا يقادر حاران ويترك في ترابها أباه أزره ، إنه يترك أرض بابل كلها إلى حيث أمره الله ، يترك قومه وعشيرته وأرض الذكريات إلى ملك الله ، يترك أخاه ماحور وأصدقاءه له كانت بينه وبينهم مودة وإن لم يؤمنوا بما جاء به ، إلى أقوام لا يدري ما يكون بينه وبينهم أودة أم عداوة ؟

أمره الله أن يهاجر ، أمره من أسلم له وجهه أن يخرج بأهله فراح ينفذ أمر

الله . إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يكن من المشركين ، شاكرا الأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم .

وجن الليل فركب النسوة رواجلهن وركبت سارة راحلتها . وانطلق الركب ومن حوله الأنعام والأغنام والرجال والعبيد . وسار إبراهيم منشراح الصدر فقد جعل الله له نورا يمشى به وإن كان الليل حالك الطلام .

خرج إبراهيم من حاران . وانطلقت القافلة وهى تحس أن الكون كله يرعاها ويحنو عليها ، ولا جرم فهى أول قافلة تحمل أول فوح من المؤمنين يهاجرون فى سبيل الله .

وفى عماية الصبح أقبل الكاهن الأعظم لمعبد الإله سين ومعه العبيد ومن خدعهم من عباد الأرباب ، تخفى صدورهم العداوة والبعضاء ، جاءوا إلى خيام إبراهيم ليقتلوه ومن آمن له تقربا إلى مردوخ وسين وشماش وعشتار والآلهة الكثيرة المنتشرة فى أرض الآباء والأجداد .

ونظر الكاهن الأعظم إلى حيث كانت خيام إبراهيم فلم يجد إلا آثار القوم ، فجعل الله صدره صيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء ، وكذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون .

ودوت فى الفضاء صيحات الغيظ والحلق والصيق ، وقال الكاهن :
— ألم أقل لكم إنه ساحر فلم تصدقونى ؟ ها هو ذا قد هرب منكم بسحره ، لو استمعتم إلى نصحتى لسصرتم آتكم ولقتلتموه فى المعبد ولحرقتموه قربانا للآلهة . إنى أخشى أن تعذبنا الآلهة بالطوفان ما لم يرحم فى طلبه .

فقال قائل منهم :

— إن آلهتنا قادرة على أن تكتب عليه الخراب فتدعه لعذابها .
وخشى الكاهن أن يمحى في محرمات القوم على الخروج في أثر إبراهيم فيقول
قائل منهم مثلما كان يقول إبراهيم : إن كان للآلهة مشيئة حقا فلتتأر لنفسها
ممن أهانها .
وعاد الكاهن ومن جاعوا معه لقتل إبراهيم والمؤمنين مطاطشى رعبهم ،
يفكرون فيمن أفضى بسرهم إلى إبراهيم ، ويقنعون أنفسهم بأن إبراهيم عرف
بسحره ما يتوه بليل ، ولم يدبر بخلدتهم أن رب إبراهيم نجاه ولو طأ إلى الأرض
التي بارك فيها للعالمين .

انطلقت القافلة في ملك الله تهادى على طريق طالما قطعته قوافل المهاجرين والتجار منذ فجر التاريخ ، إلا أن هذه القافلة كانت تتميز عن كل القوافل التي طرقت هذه السبيل بأنها أول قافلة مؤمنة تهاجر في سبيل الله .

لكم أشرقت الشمس على القوافل الضاربة في تلك البيداء مذ خرجت من أرض بابل إلى أرض الشام وكم غربت عنها ، وكم تألفت في سماء الليل النجوم والكواكب والأقمار ؛ إلا أن جلال الشروق وروعة الغروب وتلاؤل النجوم في السماء كان ذا أثر متفرد في أرواح رجال القافلة ونسائها وعبيدها ، فقد كان جلال الشروق تسيحاً لله العظيم ، وروعة الغروب ابتالات وتحليات ، وتلاؤل النجوم في سواد الليل كإشراق النور الإلهي في ظلمة النفوس ، ويزوغ القمر كيزوغ الإيمان في الذوات المؤمنة التي أسلمت وجهها لله .

كانت النفوس آمنة مطمئنة ، فالقافلة تسير في أرض الله بأمر الله . هو الذى أمر بالخروج وهو الذى يأمر بالنزول حيث يشاء . وكانت الأعين تتقلب في خلق الله فتشرح الصدور وتهلّل القلوب بالفرح ، وتتصل الأرواح بروح الكون ، وتعمرها بتجليات الإله الواحد بديع السموات والأرض . وكانت المراعى كبساط سندسى أخضر تحفّق بالحياة وتنطق بقدره الله ، النوار الأصفر ينمو في وسط البساط الأخضر وعلى حواشيه في روعة تملأ النفوس ، واللوحات الفنية تتشكل أشكالاً مختلفة وتتعاقب على صفحة

السماء وفي الأفق البعيد فتبده العقول وتحرك النفوس والأرواح وتطلق الألسنة بتسبيح الخالق المبدع المصور .

كانت قافلة الإيمان ترى الله في كل ما تعد إليه أبصارها ، في الشجر والزرع والزهور والطيور . في الجبال والصحراء والرمال .. في الشمس والقمر والنجوم .. في رائحة النهار وفحة الليل .. وكانت النفوس تحس الله في أعماقها وأنه نور البصائر والأبصار .

وانقضى يومان والقافلة تسير في المراعي والحقول بين وادي الفرات والأقاليم الجبلية المحصنة ، وأشرف إبراهيم ومن معه على نهر الفرات وتأهبوا لعبوره ، ولم يكن إبراهيم أول من يعبر الفرات لينساب في أرض الشام فقد عبره قله آلاف الرجال من التحار والمهاجرين والجنود الرحل أطلق عليهم قومه « العبريين » ، ولكن عبوره الفرات كان يختلف عن عبور من سبقوه ، إنه حدث عظيم يقف عنده التاريخ ، إن عبوره هو عبور الإيمان فرارا من الكفر ، عبور التوحيد فرارا من الوثنية الطاغية ، يمكن لدين الله في أرض مباركة يزرغ منها نور الله ليعمر العالمين .

راح إبراهيم ومن معه من الرجال والنساء والعبيد والأنعام والأغنام يعبرون الفرات عند مخاضة كانت معبرا للعابرين ، وخلعوا وراءهم العراق واسابوا في بادية الشام ، ولم تنبض نفوسهم لمخادرة الوطن ولم تمتلئ أعينهم بالدموع حسرة على الأهل والأصدقاء ، فقد كانوا يعلمون أن الله جعلهم شعوبا وقبائل ليتعارفوا ، وأن أكرمهم عند الله أتقاهم .

سار إبراهيم ومن معه في أرض الشام وكانوا إذا نزلوا لا يجدون صعوبة في الحديث مع أهلها ، فإن اللغة السائدة بين الأقوام الذين كانوا يعيشون من اليمن

جنوباً إلى مشارف العراق والشام ونحوم فلسطين وسيناء شمالاً كانت لغة واحدة ، وما كان الاختلاف بينها إلا من قبيل اختلاف اللهجات .

كان ميلاد هذه الشعوب السامية في شبه جزيرة العرب ، فهاجر منها بعض القبائل إلى بلاد الهلال الخصيب بين وادي الفرات والبحر الأبيض ، وهاجرت قبائل أخرى من جنوب شبه الجزيرة إلى الحبشة بإفريقية .

وكانت اليمن هي مصدر العربية الأول ، وقد انتشرت القبائل السامية ولغتها العربية من أقصى الجنوب في شبه الجزيرة إلى أقصى الشمال في العراق ، وكانت لغة أهل بابل الآرامية — العربية الشمالية — وكان إبراهيم مس الساميين عرب اليمن الذين نزلوا بابل ، فكان يتحدث بالآرامية — العربية الشمالية — فلم يجد صعوبة في أن يتحدث إلى أهل الشام ، والله يقول : « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم ، فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وهو العزيز الحكيم » .

تعاقب الليل والنهار وإبراهيم ومن معه يسبرون في الكون العريض ؛ زفيف اهواء في آذانهم أشجى من ترديد الناي في المعبد ، وعسيسة الليل وتنفس الصبح ، والظلمات والنور ، والطل والحُرور ، والجبال حُدد بيض وحمَر وغرايب سود ، والناس والدواب والأنعام ، كل أولئك ينزل بقلوبهم خشية وفرحاً فياضاً يفوقان كل فرح تبعثه أحر الصلوات في النفوس .

ونزلت القافلة تستريح ، فجاء الرجال والنساء والأطفال من كل مكان ينظرون ، فأمر إبراهيم أن تحلب الأنفار وأن يوزع الخس على أهل المنطقة الذين أقبلوا على أهل القافلة بموح بعضهم في بعض .

ورأى إبراهيم أطفال القوم يلعبون مع أطفال المؤمنين ، فقد أنجب الدين

خرجوا معه من أور ومن آمنوا به في حاران والعبيد ، أنجبوا ذرية ، أما هو وسارة فلم يرزقهما الله أولادا . إنه في شوق أن تكون له ذرية مؤمنة ، ذرية تحمل رسالة رب العالمين وتهدى الناس إلى الصراط المستقيم .

وجاء أهل المنطقة ببضائعهم وكانوا يمنون النفس بالبيع والشراء وجنى الأرباح ، بيد أن آمالهم سرعان ما خابت فقد وجدوا أناسا زاهدين في الدنيا لا يدير رءوسهم الدمقس والحرير ، ولا يسيل لعابهم الذهب والفضة ، ولا يمدون أعينهم إلى ما في أيدي الناس ، فقد كانت تجارتهم مع السماء تنفقون عن سعة إنفاق من لا يخشى الفقر ، ويجودون بكل ما عندهم ويتصدقون بما يملكون ويرجون الثواب من الله .

وكان إبراهيم يجوس خلال القافلة مشرق الوجه تترقب السحابة في عياه ، وكان يأسر القلوب بحلمه وحكمته ويقلب الأبواب بفصاحته ، وكان حديثه عن الله الواحد الأحد الفرد الصمد يزخر بالإيمان العميق فيؤثر في القوم فيظرون إليه مدهوشين .

وكان يقول لمن ألقوا إليه سمعهم : والله يدعو إلى دار السلام ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم . للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ، ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة ، أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون . والذين كسوا السيئات جزاء سيئة بمثلها ، وترهقهم ذلة ، ما لهم من الله من عاصم ، كأنما أغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلما ، أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون .

وكان إبراهيم يقوم إلى الصلاة ويصطف من معه خلفه ، فيبدون كملائكة أبرار هبطوا من السماء ليمثلوا الأرض نقاء وتسييحا وحمدا لله رب العالمين .

وهزت دعوة إبراهيم من شرح الله قلوبهم للإيمان من أهل المنطقة فهرعوا إليه يشهدون أن لا إله إلا الله ، وأن إبراهيم عبده ورسوله .

وكانت سارة تعد الطعام في خيمتها من لبن وعدس وبر ، وتأمر بذببح العجول للضيف ، فما كانت خيام إبراهيم تخلو من الوافدين على الرجل المبارك الذى سرعان ما ذاع نبأ كرمه في المنطقة .

وكان إبراهيم يشرف بنفسه على حلب البقر والغنم وكان في بعض الأحيان يحلبها بيديه ، وكان يتהלل بالفرح كلما رأى الناس يعودون إلى دورهم أو خيامهم يحملون ما أصابوا من حليب . هو من مال الله .

وبقى إبراهيم ما شاء الله له أن يبقى ، ثم شد الرحال إلى حيث يوجهه الله ، فسار معه من آمنوا بالله من أهل المنطقة تاركين وراءهم آلهم وأوطانهم ليسيحوا في الأرض ابتغاء وجه الله .

انطلق إبراهيم ولم ينس له أهل المنطقة فضله ، إذا أطلقوا على المكان الذى نزل به « حلب » تخليدا للحليب الذى دخل دورهم من أنعام الرجل المبارك ، الرجل الذى غمرهم بفضله وكرمه ولم يأخذ ثمن ما أعطاهم ، بل كان يقول إنما رزقنى على الله .

وانساب إبراهيم ومن معه في معبد الله ، يرون آيات الله في الآفاق وفي أنفسهم فيتذكرون ويعقلون ويهتدون ويتقنون ويشكرون كلما ساروا في الأرض ورأوا ثم رأوا عظمة الله ، فزادهم ذلك إيمانا وتسليما .

وأشرفت عليهم جبال لبنان تكسوها الخضرة وتزين سفوحها أشجار الأرز والشمرات مختلفة الألوان ، ويكفل هاماتها الثلج الناصع البياض ، وتخللها المسالك كالشرايين تحمل الحياة إلى أرجائها ، ويتدفق الماء من

الصخور وينحدر على الجبال له خرير أعذب من أروع الألحان ، موسيقا الله تتناغم مع الكون فتعزف لحنا سماويا ساحرا أبدا ، ينفث في صدور البشر الحنان والأمس والفرح الفياض .

ونظر إبراهيم ومن معه إلى جبال لبنان وقد غشيتهم رهبة وامتلات نفوسهم روعة ، وهامت أرواحهم لتتحد مع روح الكون وتنتشى بتجليات الله . وفاضت حوائجهم بما امتلأ من صفاء وجلال ونشوة وإيمان فراحت ألسنتهم تسبح لله ، وامتزج تسييح المؤمنين وتسييح السموات والأرض والجبال .. إن الوجود كله ليؤدي صلاة حارة تلهج بالشكر لله .

وراحت القافلة ترقى في مسالك الجبل فنعم أهلها بالطيبات ، وملئوا سقاتهم من الماء البارد المتدفق من الجبال ، وسعدت الدواب والأعنام بطيب المرعى . ولم تزل القافلة تسرى في مسالك الجبال وتدور معها كلما دارت ، ثم أخذت تنحدر معها لتنساب في البادية متجهة إلى دمشق، إلى الجسة الفيحاء .

وبلغ إبراهيم ومن معه أرباص دمشق ولاحت لأعينهم المدينة الجميلة التي تهفو إليها قلوب الناس . ولكن إبراهيم والمؤمنين لم يستخفهم الفرح لأهم عما قليل سيقفون ظلها ويتردون بمائها ، فإن مباهج الأرض كلها لا قيمة لها عندهم ، إسم إنما ينظرون إلى السماء . إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة .. جنة عرضها السموات والأرض تجري من تحتها الأنهار ، فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، أعدت للمتقين خالدين فيها أبدا .

وبلغت القافلة أبواب دمشق وكان على رأسها إبراهيم وعن يمينه لوط

وحوله الرجال ووراءهم هوداج النساء والماشية ، وكانت الثيران والأبقار والكباش والمعاج والجديان والمعز كثيرة لا يكاد يحصيها العد ، وكان العبيد الأشداء ينتشرون حول القافلة الهائلة يحرسونها وفي أيديهم المراوات والرماح . وكان على القافلة مهابة وجلال حتى إن الأبصار انحمت إليها ، إنها قبيلة قوية لا تغل في شوكتها عن القبائل التي كثيرا ما جاءت للرعى ثم وثبت على الملك وانتزعت من حكام البلاد .

وهرع الناس إلى القافلة يسألون من أين هذه القبيلة ؟ وإلى أين هي متجهة ؟ كان الجواب عجيبا زاد في دهشة الناس : إنها قبيلة سامية جاءت من أرض بابل ، وما أكثر القبائل التي جاءت من تلك البلاد أو من الجزيرة العربية لترعى ثم شنت الغارة وانتزعت المملك من أيديهم الحكم . ولكن هذه القبيلة لم تحمى ، كما جاءت تلك القبائل للتجارة ، وإنما جاءت بأمر الله لدعو إلى دين الله ، ولا تدري أيان تسير وأنى يتبى بها المطاف ، فهي تسير بأمر الله يوجهها حيث يشاء !

وحطت القافلة رحالها في برزة شمال دمشق ، وقام رجالها ونساؤها وولداها يصلون لله ، واجتمع الناس ينظرون إليهم . إنهم لا يصلون لصنم أو وش أو تمثال وإن صلاتهم تختلف عن الصلوات التي ألفوها . ولاح في وجوه الناس العجب وحب الاستطلاع .

وقضيت الصلاة وهرع الناس إلى رجال القبيلة يسألون عن الإله الذي يقدمون إليه صلواتهم ، فقالوا لهم إنه هو الله رب السموات والأرض وما بينهما . الله الذي خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم ، وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره ، وسخر من الثمرات رزقا لكم ، وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره ، وسخر (أبو الأنبياء)

لكم الأنهار . وسخر لكم الشمس والقمر دائبين ، وسخر لكم الليل والنهار . وآتاكم من كل ما سألتموه ، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ، إن الإنسان لظلوم كفار .

وراح إبراهيم يتحدث إليهم عن الله العزيز الحكيم الذى لا يخفى عليه شيء فى الأرض ولا فى السماء ، حديثا عامرا بالإيمان والحكمة ينفذ إلى القلوب . وكان بين القوم إليعازر الدمشقى وكان يصغى إلى دعوة إبراهيم بقلب متفتح وصدر منشرح ، وقد أحس أن شيئا قويا يشده إلى ذلك الرجل المهيب . كان إليعازر الدمشقى يرى إبراهيم لأول مرة ، وكان يصغى إلى ما يدعو إليه لأول مرة ، بيد أنه أحس اجتذابا إليه ورغبة عارمة فى أن ينطلق إليه ويعلن إيمانه بالله الذى يدعو إليه ، وإيمانه بالرسالة التى جاء بها ، فقد أحس أنه يوحى إليه أن يؤمن بالله وبرسوله .

وما انتهى إبراهيم من حديثه حتى هرع إليه إليعازر والدموع تجري على خديه وقال :

— أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن إبراهيم عبده ورسوله .

أشرف إبراهيم ولوط ومن معهما من الرجال والنساء والعبيد على دمشق ، وكان سكان المنطقة من أجناس متباينة ، إلا أن الآموريين وهم مثلهم من الساميين كانوا هم الغالبة ، وكانوا يتحدثون الآرامية مثلهم فكان التفاهم بينهم ميسورا . رأى إبراهيم ومن معه من المؤمنين نهر بردى يروى أراضي الغوطة والمروج الخضراء إلى مدى البصر ، والشمات وفيرة من أعناب وريثون وتين وقمح وشعير وبصل وثوم وحمص وفول ، ولم تثر هذه الخيرات انبهاهم ، فلو كانت أطعماعهم تنحصر في هذه الخيرات واتمتع بها مثل بدو الجزيرة العربية أو بدو صحراء العراق أو بدو الصحراء السورية لما خرجوا من أور ، فقد كانت أور كثيرة الخيرات كالجنة الفيحاء .

إسهم إنما خرجوا لله ، لا يريدون علوا في الأرض ولكن يريدون أن يعلو اسم الله ، أن يكون الأمر كله لله الواحد القهار ، أن تسود مملكة السماء . واتجهوا قاصدين المعبد ، وكانت الأسواق تفص بالسلع والطرفات تموج بالناس : الرجال في ملابس زاهية ، والنساء يرتدين ثيابا تغطي إحدى الكتفين وتترك الأخرى عارية ويتعلن أحذية حمراء . وكان الجمال والبهجة والإغراء تنبعث من كل جانب ، ولكن إبراهيم ومن معه ساروا لا يلتفتون ، فقد انقطعت الأواصر بينهم وبين الله والتجارة واتصلت الأسباب بينهم وبين السماء .

وأقبل رجل قوى مفتول العضلات يحمل جعبة من السهام ، أقبل على رجل من أتباع إبراهيم وقال له :
— إني أتحدثك .

ولم يفهم الرجل سببا لذلك التحدى فمكّن بينهما عدااء وما تقابلا قبل اليوم ، وقال الرجل المفتول العضلات :

— نترشق بالسهام ومن يقتل صاحبه يستولى على ما يملك .

من قال له إن من هاجر في سبيل الله يغني متاعا ؟ يقتل نفسا بغير نفس في سبيل غرض زائل ؟ لقد ألقى الدنيا كلها وراء ظهره ابتغاء مرضاة الله ، وهو لا يطمع أن يغور متاع قليل بل يطمع في الفوز العظيم ، في جنات عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين .

لو أنه دعى ليحارب في سبيل الله للبي النداء وهو مشرح الصدر فهو يدعى إلى إحدى الحسينين : الفتح أو الاستشهاد في سبيل الله ، أما أن يدعى إلى ما يغضب الله ويسارع إلى المعصية فهذا هو الخسران المبين .

وقال الرجل المؤمن :

— أنا لا أقبل تحديك .

فصاح الدين التفوا حولهما منكرين ، عالتقاليد تقضى أن يقبل التحدى وإلا كتب على نفسه العار . ولم يحفل المؤمن ولا من معه بأصوات الهزء والسخرية فهم لا يقيمون وزنا للتعاليد بل يحملون معاول الهدم ليجتوها من جذورها حتى تكون كلمة الله هي العليا .

وصاح صائح :

— أنا أقبل نزالك .

والتفتت العيون فإذا شيخ جاوز الخمسين يحمل أثوابا من القماش ، وكان خبيلا لا يبدو عليه أنه مقاتل شديد .

ووضع الشيخ ما كان يحمله والتفت إلى الملاء وقال :
— اثبتوا بقوس وجعبة سهام .

وقدم إليه أحدهم قوسه وجعبة سهام فراح يختبر القوس اختبار خبير ، وسرعان ما تكونت حلقة واسعة من القوم وارتفعت الصيحات . ووقف الرجلان داخل الحلقة وبينهما مسافة ، ووضع كل منهما السهم في قوسه وشدها وانتظر أن يعطى الحكم إشارة البدء في المعركة ، المعركة التي لم يكن لها سبب إلا حب النزال وسيطرة قانون الغابة على العقول .

وأعطيت إشارة البدء في قتال لا ينتهى إلا بموت أحد المقاتلين ، سيلفظ أحدهما روحه في سبيل الشيطان ، في سبيل نزوة طائشة . وأطلق الشاب المفتول العضلات سهمه فاتقاه الشيخ في مهارة ، ثم أطلق الشيخ سهمه فطاش ، وراحت السهام تتبادل والشاب والشيخ يروغان منها في خفة وسرعة وحرص شديد .

ودوت في المكان صيحات متعطشة إلى الدماء وكانت الأعين تنظر في اهتمام ، والصدور تعلو وتنخفض في حماس ، والأصوات تنطلق تحت المتقاتلين أن يقضى أحدهما على الآخر . كانت القلوب كلها قاسية إلا قلوب إبراهيم ومن معه من المؤمنين فقد امتلأت أسى وإشفاقا ، وزاد إصرارهم على أن يجرحوا هؤلاء القوم من الظلمات التي يمشون فيها إلى النور .

وراح المتقاتلان يدنوان أحدهما من الآخر والسهام تتطاير ، وانتهر الشيخ لفئة طائشة من الشاب المفتول العضلات المدل بقوته فسدد إليه سهما استقر

في عنقه ، فخر الشاب صريعا بخط في دمه بين تهليل القوم وصخبهم .
وسار إبراهيم ومن معه من المؤمنين ، وكان إبراهيم في نفسه يؤمن بالصراع
وبأنه لولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض وهدمت صوامع
وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ، كان يؤمن بالصراع في
سبيل هدف جليل ، في سبيل إعلاء كلمة الله ، وليس بالصراع الذي تهدر فيه
كرامة الإنسان وإن أقره العرف والتقاليد .

إنه يؤمن بالسلام والمحبة . فليدعون القوم بالتي هي أحسن ، فإن قاوموه
وفرضوا عليه القتال فسيقاتلهم وهو واثق أن النصر سيكون لحليفه ، فما
المصر إلا من عند الله ، ولينصرون الله من ينصره إن الله قوى عزيز .

ولاحت لهم منازل دمشق على ضفتي نهر بردى ، مستطيلة الشكل
أساسها كتل من الحجارة وجدرانها من اللبن وسقوفها من أعواد الساتات
طلبت بالطين ، كانت كمنازل أور إلا أنها ترتفع على الروابي أو على سفوح
الجلال ، فينسب نهر بردى في رفق لا تخشى غوائله .

ووصل إبراهيم وأتباعه إلى معبد الإله بعل وأخته عنت ، وكان مزيجا من
معابد البابليين ومعابد المصريين . كانت به تماثيل لشمش وعشتار وسين ،
وتماثيل لأنى الهول وآلهة المصريين . كان القوم على الطريق بين حصارتين
كبيرتين : حضارة بابل وحضارة الفراعنة فاقتبسوا ما وصل إليهم من
الحضارتين ، وفرضت الآلهة المختلفة سلطانها عليهم .

وراح القوم يقدمون القرابين من الخنازير البرية إلى بعل وعنت وسين
وشماش وعشتار والآلهة الأخرى ، بين صلوات الكهان وأناشيد المغنين
وموسيقى العازفين والبحور الذي عبق به المكان .

وكان في دمشق كثير من المصريين يمارسون أعمالا مختلفة ، وكان منهم موظفون من قبل ملك مصر ، إذ كانت سورية آتخذ في حكم المصريين ، ووقف المصريون في المعبد أمام آلهتهم يحرقون البخور ويتلون الابتهاالات التي يترنم بها المصريون عند الاحتفال بحرق البخور :

إن النار نيبا والنار تضىء .

إن البخور يوصع على النار والبخور يضىء .

وشذاك يأتى للملك يأيها البخور .

وشذى الملك يأتى إليك يأيها البخور .

وشذاكم يأتى للملك يأيها الآلهة .

وشذى الملك يأتى إليكم يأيها الآلهة .

إن الملك معكم يأيها الآلهة .

وأنتم مع الملك يأيها الآلهة .

والملك يعيش معكم يأيها الآلهة .

وأنتم تعيشون مع الملك يأيها الآلهة .

والملك يحبكم يأيها الآلهة .

فأحبوه يأيها الآلهة .

وراح إبراهيم ومن معه ينظرون ويسمعون ؛ إن القوم اتخذوا دين بابل ودين مصر وعكفوا على أصنامهم ما يعبدونها ويقدمون لها الخنازير قربانا ورلقى .

ووقف إبراهيم في المعبد وقال :

— يا قوم . يا قوم . يا قوم .

وترك الناس صلواتهم وهبوا ليروا لماذا يدعوهم ، وسار الكهان في أثر الناس ينظرون . قال إبراهيم :

— يا قوم ألا تتقون ؟ أتدعون بعلا وتفرون أحسن الخالقين ؟ الله ربكم ورب آبائكم الأولين .

فقال قائل :

— من الله الذى تدعونا إليه ؟

— فاطر السموات والأرض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى .. هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسميون . ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات ، إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون . وسحر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ، إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون . وما ذرأ لكم فى الأرض مختلفا ألوانه ، إن فى ذلك لآية لقوم يذكرّون . وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ، ولتبتغوا من فضله ، ولعلكم تشكرون .

فصاح أحد الكهان :

— لكن لم تنته لتكونن من المرجومين .

ولم يثر الناس بل ألقوا إليه سمعهم . كانت الآلهة التى يعبدونها آلهة أقوام آخرين وإن عكف على عبادتها آباؤهم الأولون ، وقال قائل منهم :

— أإلهك أعظم من بلع وعنت وسين وشماش وعشتار وألهتنا الأخرى ؟
— أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون ؟ . وإن تعدوا نعمة الله

لا تحصوها إن الله لغفور رحيم . والله يعلم ما تسرون وما تعلنون . والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئا وهم يخلقون . أموات غير أحياء وما يشعرون أيا ن يعثون . إلهكم إله واحد ، فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون . لا جرم أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون . إنه لا يحب المستكبرين .

وضاق صدر الكهان بذلك الواغل عليهم الذى جاء إلى معبدهم ليدعو إلى ربه وزاد في ضيقهم أن الناس استمعوا إليه معجبين ، فقالوا : — هل هذا إلا بشر مثلكم ؟ إنه جسد لياكل الطعام ويمشى في الأسواق كما تمشون . يا قوم ضعوا أيديكم في فمه ولا تدعوه يسب آلهتكم . يا قوم إن تصغوا إليه يحق عليكم غضب آلهتكم ويكتب عليكم الخراب المهين . فقال إبراهيم :

— يا قوم إنما أنا منذر وما من إله إلا الله الواحد القهار ، رب السموات والأرض وما بينهما العزيز الغفار .

وراح الكهان يدفعون الناس لينفصوا من حوله : — أسرعوا يا قوم الفرار قبل أن يقيق بكم غضب الآلهة وعداب أليم ، ضعوا أصابعكم في آذانكم حتى لا تسمعوا ما يفتره على الآلهة السادة البعول فؤوا من هذا البلاء ولا تصدقوه .

ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون ويشرب مما تشربون ، ولئن أطعتم بشرا مثلكم إنكم إذا لخاسرون .

وقال إبراهيم :

— يا قوم .. إني لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم

عليه من أجر إن أخرى إلا على رب العالمين .

وارتفع صياح الكهان ورجال الدين وتداخل بعضه في بعض :
— يا قوم لا تذرنا آلهتكم ، ولا تذرنا بعلا وعنت وعشتار وسين
وشماش .

يا قوم هروا من عذاب أليم . يا قوم .. يا قوم ..
وحلحلت الأصوات ولم يعد أحد يفقه ما يقال . وخرج الناس من المعبد
وعاد إبراهيم ومن معه من المؤمنين إلى خيامهم ، وقد زاد إبراهيم ما لقيه اليوم
إصرارا على تبليغ رسالة رب العالمين .

حطت بالقرب من خيام إبراهيم قافلة مصرية قادمة من لبنان ، وكانت تحمل جرارا فخارية مستطيلة مملوءة بزيت الأرز التي تخطط بها موميات الفراعين ، وبأخشاب الأرز التي تصنع منها توابيت الأشراف والحكام .

وكان في القافلة بعض من صناع الأسلحة المصريين ، وكانوا يبيعون الناس أسلحة مصرية ويشتررون منهم أسلحة آسيوية : خناجر مقابضها كالأهلة وسيوف تشبه سيقان الحيوان ، وبلط تختلف في شكلها عن البلط المصرية . وكانوا يشترون كذلك أواني حورانية من الفخار الأسود : أباريق ذات مقابض مزدوجة برسوم ملونة محلاة بالطيور والأسماك ، وأواني سوداء محززة برسوم ملكت باللون الأبيض ، فقد أصبح المصريون من سكان الدلتا يقبلون على شراء هذه الأواني بعد أن وثبت القبائل السامية التي جاءت إلى مصر بقصد الرعي واستولت على الحكم دون قتال أو غارة .

وزار رجال القافلة المصرية خيام إبراهيم ورأوا الرجل الجليل ، وجلسوا يتحدثون معه وينصتون إلى ما يقول ، وكانوا يفقهون قوله فهو يتحدث بنفس اللغة التي يتحدث بها الرعاة الساميون الذين استولوا على دلتا النيل ، وكانت تلك اللغة لهجة من تلك اللهجات العربية ، فقد كان جنوب الجزيرة دائما مخزنا هائلا من مخازن البشرية تدفقت منه هجرات استولت على العراق وسورية ، وامتد سلطانها حتى شمل مصر السفلى .

ولم تكن تلك الهجرة أول عهد الساميين بمصر ، فقد تسلسل عرب الجزيرة العربية إلى وادى النيل قبل عهد الأسرات عن طريق القصر . وكانوا في أوطانهم محرومين من الأهار والاستقرار فهاجروا إلى الفرات والنيل والأردن حيث الماء والاستقرار .

وكان سكان الدلتا يتعلمون الآرامية من القبائل التي استأذنت في الرعى في شرق الدلتا حتى قبل أن تثب لانتزاع الحكم من الفراعين ، وقد زاد إقبال الناس على تعلم تلك اللغة بعد أن بدأ حكم الهكسوس « حنا خاسوت » حكام البلاد الأجنبية ، وكان التجار يتكلمونها حتى قبل أن تغد القبائل السامية إلى دلتا النيل بقصد الرعى ، فهي نفس اللغة التي يتفاهمون بها مع العموريين في سورية ، والكعانيين في غزة وما عرف فيما بعد بفلسطين . فقد كان الآراميون في العراق والعموريون في سوريا والكعانيون في فلسطين من الساميين ، وكانت لغتهم واحدة وإن اختلفت لهجائهم باختلاف المناطق التي نزلوا فيها .

وكانت التجارة في ذلك الوقت في أوج ازدهارها ، فكانت السفن المصرية تنقل السلع والثقافات المختلفة بين مصر وقبرص وكرمت وشواطئ البحر الأبيض ، وكانت القوافل تعدو وتروح بين بابل وحبل ودمشق ومنف واليمن والعقبة ، وكانت اللغة العربية هي لغة التفاهم ولم يكن اختلافها إلا من قبيل اختلاف اللهجات .

كان المصريون يصغون إلى إبراهيم في خيامه ، ولم يجذب انتباههم شعره الأسود الفاحم ولا رداؤه الفضفاص المخطط بخطوط ررقاء وحمراء ، فقد رأوا مثله آلافًا في سورية ، وليس منظره غريبا حتى على من لم يعادروا البلاد

المصرية ، فإنه لا يختلف عن « هاعبرى » البدوى الذى جاء إلى مصر في عهد سنوسرت الأول ، و « أيشا » زعيم القبيلة السامية التى جاءت إليها في زيارة رسمية سجلت وقائعها بالرسوم الفرعونية على جدران المعابد .

ورأوا مثله كثيرين من العبريين — الجنود المرتزقة — الذين عبروا الفرات واشتركوا في القتال الدائر بين الملوك والطامعين في السيادة في منطقة الشرق الأوسط ؛ ولكنه كان عبريا من طراز آخر يختلف عن العبريين المقاتلين الذين يعيشون على سفك الدماء ، كان عبريا يدعو إلى إله واحد عظيم له ما في السموات وما في الأرض ، الشمس والقمر والحوم مسخرات بأمره ، وهو الذى يزحى السحاب وينزل من السماء ماء ليحى به الأرض بعد موتها ، وهو الأول والآخر ، وهو الذى أنشأ الخلق وهو القادر على بعثهم بعد أن يصبحوا عظاما وترابا ليحاسبوا على أفعالهم ؛ فمن عمل سيئة من ذكر أو أنثى فلا يجزى إلا بها ، ومن جاء بالحسنة فله عشر أمثالها والله يضاعف لمن يشاء بغير حساب .

وكان حديثه عن الله وعن البعث والنشور هو ما يثير دهشتهم . إنه لا يدعو إلى بعل أو عنت أو أى آلهة من آلهة القوم الذين يعيش بينهم ، ولا يدعو إلى مردوخ أو سين أو شماش أو عشتار أو أى من آلهة بابل الأرض التى جاء منها ، ولا يحقر آمون إله المصريين كما فعل الساميون الذين جاءوا إلى مصر للرعى ثم وثوا على الملك وأسسوا حكمهم في الدلتا ، إنه إنما يدعو إلى دين حديد تقله المطرة السليمة ، يدعو إلى الوحدة المطلقة ، إلى أن يسود حكم السماء في الأرض فالملك لله يورثه من يشاء من عباده .

وأثار دهشتهم أنه يتحدث عن البعث بعد الموت ، وعن الحساب والثواب

والعقاب ، وما كان أهل بابل يعرفون البعث فهم يعتقدون أن الإنسان بعد أن يموت يهبط إلى العالم السفلى ، إلى الأرض التى لا رجعة منها . وكذلك كان العموريون الذين يسكنون سورية والكنعانيون الذين يعيشون على ساحل البحر الأحمر فى غزة وما حوّلها لا يؤمنون بالبعث . المصريون وحدهم كانوا يؤمنون بالقيامة بعد الموت ؛ فمن أين جاء ذلك البدوى « الهاعبرى » الذى عاش فى بلاد لا تعرف الحياة الأخرى بفكرة الآخرة ، وأن الآخرة خير لمن اتقى ؟

وكان حديثه عن الله وعن البعث والنشور يثر دهشتهم ، ووصفه لليوم الآخر يحررهم ، وما دار بخلداهم أن الذى نشر فكرة البعث بين المصريين إنما هو أخ له فى الدعوة قام فى متف يدعو المصريين إلى عبادة رب العالمين ، إلى عبادة الله الذى يجمعهم يوم القيامة ليحاسبهم على أعمالهم فى الدنيا ، ذلك هو إدريس عليه السلام ، وكان مثله صديقا نيا .

وإن من أمة إلا خلا فيها نذير ، يدعو الناس إلى عبادة الله وحده ، ويشرهم بمجنات النعيم والفوز العظيم ، ويخوفهم بنار جهنم والحزى والخسران المبين . كان آدم على علم ، فقد علمه الله الأسماء كلها ، وكان أباء آدم على علم توارثوه بأن الله واحد له ما فى السموات وما فى الأرض يحيى ويميت وهو على كل شئ قدير ، هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شئ عليم . فلما طال عليهم الأمد قست قلوبهم وفسقوا عن الدين واتخذوا من دون الله آلهة وجعلوا له شركاء ، فأرسل إليهم رسله ليبينهم إلى الصراط المستقيم .

أرسل الله إدريس فهدى قومه إلى الحق وإلى طريق الرشاد ، فلما طال

عليهم الأمد قست قلوبهم ونسجوا حوله الأساطير ، وانحنوا لله شركاء وعبدوا من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم . وكذلك أرسل الله نوحا إلى قومه لينذرهم من قبل أن يأتهم عذاب شديد . فكذبوه ، قال : رب إنى دعوت قومي ليلا ونهارا . فلم يزدتهم دعائى إلا فرارا ، وإنى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا .

فلما أصروا على كفرهم قال نوح : رب لا تنر على الأرض من الكافرين ديارا ، إنك إن تنهرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا . وأغرقهم الله ونجى نوحا ومن معه من المؤمنين .

وانتهت عبادة ودوسواع ويغوث ويعوق ونسر ، الأصنام التى عبدها قوم نوح ، وعبد من حملهم نوح فى الفلك الله وحده ، فلما طال على الناس الأمد قست قلوبهم فعادوا لعبادة الأصنام والكواكب والنجوم : لعبادة مردوخ وسين وشماش وعشتار والآهة الأخرى فى بابل ، وبعل وعنت فى سورية ، وأزريس وحور وآمون وست فى وادى النيل . وقد أرسل الله إبراهيم ، ذلك الرجل الجليل ، لما أرسل به الرسل من قبله ، أرسله شاهدا ومبشرا وندبرا . راح إبراهيم يخاطب المصريين الذين أقبلوا للتجارة ، والسوريين الذين ألقوا إليه سمعهم . إنه فى خيامه مهيب لا يستمد سلطانه من مراسيم المعاهد أو نظام الدولة أو الكهنوت أو أى سلطان أرضى ، إنه إنما يستمد سلطانه من إله قوى هو فوق الطبيعة وأقوى من كل الظواهر الكونية التى يقدها القوم . إن ما يحدث به إن هو إلا فتح جديد فى العقيدة ولكن القوم كانوا فى شك مرعب مما يدعوهم إليه ، فكذبوه كما كذبت رسل من قبل .

وغادر التجار المصريون خيام إبراهيم ودخلوا دمشق ليشتروا البرونز ومنتجاته ؛ فالبرونز معدن جديد توصل السوريون إلى سبكه ويقبل الناس في مصر عليه إقبالاً شديداً . فقد عرف المصريون النحاس واستخرجوه من سيناء ، وقطعوا الأشجار في سيناء ليصهروه ويصنعوا منه ما يريدون ، أما البرونز فقد أصبح منذ استكشافه طابع العصر ، وأصبح الناس يزهون باقتنائه على الرغم من توافر الذهب في مصر !

وقام إبراهيم ومن معه من المؤمنين ليدخلوا دمشق ليدعوا الناس إلى رب العالمين ، ليقولوا لهم ، وما عند الله خير من اللهو ومن التجارة ، فقد كان اليوم يوم راحة ينطلق فيه أهل دمشق إلى المروج حيث الخضرة والماء المتدفق من الصخور .

فمروا بحصون دمشق ومبانيها ذات الشرفات ، ومعابد بعل وعنت والآلهة الأخرى الذين جلبوا من بابل وآشور ووادي النيل والحزيرة العربية ، وبلغوا الحدائق التي ازدانت بالورود والرياحين وتألفت بألوان خضراء وحمراء وبيضاء وصفراء وبنفسجية تشرح الصدور وتسرع العيون . وكان الرجال يرتدون أردية كثيرة الوشي أرجوانية مخططة بخطوط زرقاء وسوداء ، ويفغطون رءوسهم بشيلا من متباينة الألوان تثبت بعقال ، ويلبسون في أرجلهم نعالاً رمت بحبوط . وكان النساء يلبسن ثياباً زاهية الألوان تعطى إحدى الكتفين وتترك الأخرى عارية نهاء للعيون ، وكن يزين رءوسهن بشرائط ويلبسن في أرجلهن الخلائيل .

وراح رجال يضربون على آلات موسيقية ذات ثمانية أوتار ، وآخرون ينفخون في المزامير ، وسرى الغناء في كل مكان وجلجلت ضحكات النساء في جنبات الرياض ، وراحت أواني الشراب تدور فتدير الرعوس ؛ كان التبيذ كثيرا أكثر من الماء في نهر بردى !

وألقي الرجال أرديتهم المغضاضة على الأرض فبدوا في ملاسهم الداخلية الصفراء ذات الأكمام الضيقة والسراويل المحبوكة ، وخلع النسوة أحذيتيهم الحمراء ، ورسوست الخلاحيل وهن يضربن الأرض بأرجلهن من كثرة الضحك ، فانجذبت العيون إلى الفتنة الطاغية.

وغضر المؤمنون من أبصارهم وأغلقوا نفوسهم في وجه الأغاني الماجنة والضحكات المعرينة ، وقام إبراهيم يقول : رين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطر المنقطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ، ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآل .

وصاح صائح وهو يرفع آنية التبيذ ويعب منها :

— هذه هي الحياة ، ليس هناك خير مما نحن فيه ، خمر ونساء وما لذ

وطاب .

— أؤبشكم بخمر من ذلكم ؟ للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها

الأنهار حالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد .

— إن جئاتنا كجسات ربك تجري من تحتها الأنهار ، أتريدنا أن نستبدل ما

نعرف بما لا نعرف ، أن نترك ما نحن فيه لنفوز بما تعدنا به ، لقد قلت إذا

شططا .

— يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هي دار القرار، يا قوم ما

الحياة الدنيا إلا حياة الغرور .. متاع قليل ثم مأوى الكافرين جهنم وبئس المهاد. يا قوم لا تفرحوا بالحياة الدنيا وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع، يا قوم متاع في الدنيا ثم إلى الله مرجعكم ثم يذيقكم العذاب الشديد .
يا قوم .. وما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها وما عند الله خير وأبقى أفلا تعقلون ؟

يا قوم .. اعلّموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم ، وتكاثر في الأموال والأولاد ، كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما ، وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان ، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور .

فخضت الأصوات ، وتراخت الأصابع التي تلعب على الأوتار ، وحبت الأنفاس التي تنفث في المزامر ، وماتت الضحكات على الشفاه ، وهمدت وسوسة الخلائيل ، ووصعت أواني النبيذ على الأرض ، وتعلقت الأعين بذلك الرجل الذي راح يخوفهم الله وعذابه ، ويصف لهم جهنم وما فيها حتى جعلهم يحسون لهيها وإن كانوا يعيشون في ظل ممدود .

ورأى إبراهيم الخوف على وجوه القوم فقال :

— توبوا إلى الله .. فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه ..

وإن الله لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى .

توبوا إلى الله ، فإن تبم فهو خير لكم ، فإن الله غفور رحيم .

يا قوم توبوا إلى الله عسى أن تكونوا من المفليحين .

يا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربي رحيم ودود .

وضاق أحدهم بما يقول إبراهيم فسولت له نفسه أن يصيح ليخرج الناس

من ذلك الصمت الذى ران عليهم فقال :

— يا إبراهيم إني كافر بربك ، كافر بما تدعوننا إليه ، فإن لم تنته عما أنت فيه لترجئنا .

— يا قوم إني لكم ناصح أمين .

وصاح الرجال في وجهه :

— اغرب عنا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين .

وهم إبراهيم بأن يتكلم فصاحوا جميعا يكذبونه وصدفوا عما يقول ، وزادوا طغيانا وأبى أكثر الناس إلا كفورا .

وعاد إبراهيم ومن معه إلى خيامهم ولم يتسرب اليأس إلى قلوبهم ، فإن كان الناس قد أعرضوا عن دعوة الحق فإن ذلك إلى حين ، فאלله ممت نوره ولو كره الكافرون .

خرج بعض العموريين من دورهم يتلفتون ، واطلقوا صوب شمال دمشق إلى حياض إبراهيم رسول الله الذي آمنوا به سرا ، ليتفقوا في دينهم الجديد .

وبلغوا مضرب الخيام فإذا إبراهيم في محرابه يصلي لله رب العالمين ، ووقف خلفه لوط وإليعازر الدمشقي الذي اشترى آخرته بديناره فمحر ما كان فيه من طيب العيش وآمن لإبراهيم وأسلم وجهه لله . واصطف مع لوط وإليعازر رجال هاجروا مع خليل الرحمن من أور وحاران فرارا بدينهم ، ورجال من سورية شرح الله صدورهم للإسلام . فحفف الدين أخفوا إيمانهم خشية بطش ساداتهم ليركعوا مع الراكعين ويسجدوا مع الساجدين .

وقصوت الصلاة ، وجلس إبراهيم وحوله من آسنوا به يصغون إلى ما يقوله حبيب الله ، كان حديثه ينثف فيهم القوة ، ويجعلهم يحسون أنهم أقوى من كل من في الأرض من الجبارين ، ويطلق أرواحهم لتهم في ملكوت الله فتستشعر أنها انطلقت من سجن النفس والجسد لتتصل بروح الكون .

وكان فيمن ألقوا سمهم إلى إبراهيم الخليل بعض المستضعفين والعبيد ، فراح يعلمهم أن العرة لله ولرسوله وللمؤمنين ويرفعهم إلى مرتبة سامية ، مرتبة الاتصال بالله والأنس به ، فإذا الخوف يتزع من نفوسهم وإذا الأمن يعشاهم . إن الدين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تحافوا

ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون . نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون . نزلا من غفور رحيم .

وجاء من المدينة رجال يسعون ، كانوا من الكهان وسادات العبيد الذين آمنوا برب إبراهيم والتجار وأصحاب النفود ممن يخشون أن تدول دولتهم أو تور تجارتهم إذا انتشر الدين الجديد .

ونظروا فانتسعت أعينهم من الدهشة فما دار بخلداهم أن يؤمن لإبراهيم كل هؤلاء الناس . إنهم ما جاءوا إلا ليأخذوا عبيدهم إلى ملتهم وليهددوا إبراهيم بالرجم والعذاب الأليم ، ولكن ما رأوه اليوم أنزل بقلوبهم هما ثقيلًا فقد صار لإبراهيم حزب قوى لا يعلج فيه التهديد والوعيد .
وتقدم أحد الكهان حتى أشرف على الملأ وقال :

— يا قوم لا يفتنكم هذا عن دين آبائكم ، عودوا إلى آلهتكم ، عودوا إلى
بعل وعنت وشماش وسين ، عودوا إلى الشمس والقمر والمادة البعول .
فقال إبراهيم وهو يقترب ممن جاءوا بمجادلونه ويتحدون الله ورسوله :
— ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر ، لا تسجدوا للشمس ولا
للنصر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون .

وعاد الكاهن يقول :

— يا قوم لا تكفروا بالله آباءكم ، يا قوم ..

وقال الذين آمنوا :

— آمنا بالله وبما أنزل على إبراهيم .

— وكفرتم بالله آباءكم ؟

— آمنا بالله وحده .

وهم الكاهن بأن يتكلم فقال إليعازر الدمشقي لإخوانه المؤمنين :

— لا تصفوا إليه إنه يريد أن يردكم بعد إيمانكم كافرين .

وقال المؤمنون :

— ربنا آمنا فاعف لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين .

فقال لهم الذين جاءوا من المدينة يسمعون :

— إنا بالذي آمنتم به كافرون .

— يا قوم .. الله خير مما تشركون ، يا قوم توبوا إلى الله إن يشأ يذهبكم

ويأت بخلق جديد .

— عد إلى آلهتنا وآله آباءك الأولين ، عد إلى من مشيتهم نافذة في السماء

وفي الأرض ، إلى من تسبح لهم الأرواح السماوية والأرواح الأرضية .

— الله خير أما تشركون ؟ أمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من

السماء ماء فأنبث به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها ، أإله

مع الله بل أنتم قوم تعدلون . أمن جعل الأرض قرارا وجعل خلالها أنهارا وجعل

لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزا ، أإله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون .

وتحدث الرجال إلى الرجال ، وكان أهل دمشق من كهسان وتجار

وأصحاب سلطان في ثورة عارمة لأن المستضعفين والعبيد لم يكتفوا بشق

عصا الطاعة وترك دين الآباء ، بل أصبحوا ينهونهم أن يعبدوا آلهتهم ويقولون

إنها ليست على شيء !

وزاد في ضيقهم الثقة التي يتحدث بها أتباع إبراهيم والطمأنينة التي

تغشاهم . وإن أغبط ما يضيقهم منهم وصفهم آلهتهم بالعجز : إن هي إلا

أسماء سميتوها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان !

تطاول المستضعفون والعبيد على السادة البعول وسخروا منهم وهزؤوا بمن اتبعوهم . وراد الأمر سوءاً أن أصبح هؤلاء السفهاء على علم : ألا تزر وازرة وزر أخرى . وأن ليس للإنسان إلا ما سعى . وأن سعيه سوف يرى . ثم يجزاه الجزاء الأوفى . وأن إلى ربك المنتهى . وأنه هو أضحك وأبكى . وأنه هو أمات وأحيا . وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى . من نطفة إذا تمنى . وأن عليه النشأة الأخرى . وأنه هو أغنى وأقنى .

من أين هؤلاء البسطاء والمستضعفين والعبيد مثل هذه الفصاحة ومن الذى بث فيهم هذه الروح القوية ؟ إن الأمر لأخطر من أن يسكت عليه . إن هؤلاء الأميين قد ألزموا الكهان والتجار ورجال السلطان الحجة ، وتركوهم حيارى يعطون خزيهم بالثورة والعنف . وقال قائل منهم وقد ضاق صدره بأنفاسه المحمومة :

— لئن لم تنتهوا لترجمنكم وليمسكم منا عذاب أليم .

ولم يرتجف المؤمنون فهم أعزة ، هم حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون . وأصاب الكافرين صغار وأحسوا بصدورهم تضيق وأطلت من أعينهم البغضاء ، وأردوا أن يمتروا خزيهم فبدعوا بالعدوان وهم يرتجفون . وبدأ بين المؤمنين والكافرين المداوة والبغضاء وكادت تضطرم نيران القتال ، بيد أن إبراهيم أطفأها فهو يدعو إلى السلام ولا يريد إلا السلام وإذا خاطبه الجاهلون قال سلاماً .

وتأهب الجاهلون لينقلبوا إلى أهلهم ليشيروها حرباً شعواء على إبراهيم ومن معه ، ليقضوا على الدعوة التى تكاد تقوض سلطانهم .

وقبل أن يتصرفوا قال أحدهم :

— لنن لم تنه يا إبراهيم لتكونن من المخرجين .

وقال الكاهن والغضب يتطير من عييه :

— ليخرجن الأعز منها الأذل .

وأعلن الكفار الحرب على المؤمنين .

كان إبراهيم يريد السلم ، كان يدعوهم إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ، يدعوهم إلى الهدى ، إلى صراط مستقيم ، فلم يسمعوا دعاءه ، ولو سمعوا ما استجابوا له فقد كبر عليهم ما يدعوهم إليه .

قال لهم إن ما يدعون إليه هو الباطل وأن الله هو الحق . والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلا كباطل كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو بباله . وأنهم لا يحلقون شيئا وهم يحلقون . كان يحفض لهم جناح الذل من الرحمة ويدعوهم إلى النجاة ، إلى دار السلام ، فاستكبروا . وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه ، وفي آذاننا وقر .. وإننا لنفى شك مما تدعونا إليه مريب .

كان يريد السلم ، أن يقرع الحجة بالحجة ، ولكنهم ضاقوا بهذا السبيل ، فإنه كلما جادلهم ألزمهم الحجة وجعلهم يستشعرون صغارا وفتن المستضعفين والعبيد ، إنهم لو صبروا على دعوته لقصت عليهم وذهبت بنفوذهم ، فليصح السيف حدا لهذه المعركة التي كادت ترجح فيها كفة المؤمنين .

اعتدوا عليه وعلى من معه ولم يبدأ هو بالعداوان أثبتة فهو يعلم أن الله لا يحب المعتدين ، وصبر على ما أصابه إن ذلك من عزم الأمور . وما هم اليوم جاءوا يهدونه بالرجم وبالعذاب أليم ، فصبر وهو على يقين من

أن الله لا يضيع أجر المحسنين . واعتلوا على المؤمنين فقالوا ، ولنصبرن على ما آذيتمونا ، وعلى الله فليتوكل المتوكلون .

كان إبراهيم يريد السلم ولكن القوم أبوا إلا القتال ، عادوا إلى المدينة ليأتمروا به ، ليقتلوه ويقتلوا الدين يأمرن بالقسط من الناس . وأحس إبراهيم الخطر فقال لمن معه :

— وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة .

فنظر إليه المؤمنون وقد وجلت قلوبهم وقالوا :

— قتال ؟

فقال لهم وهو كاره :

— قتال .. إلا تعملوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير .

كان إبراهيم يجمع للسلم ولكن الدين ناصبوه العدا نهدوا السلم وراحوا ينصحوون في نار الحرب . يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ، ليصيروا آمنوا إلى الظلمات إلى عبادة آلهة لا تملك لنفسها نفعا ولا ضرا ، فحق عليه أن يمرض المؤمنين على القتال وأن يقول لهم فاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله .

وراح المؤمنون يتأهبون للقتال ، حملوا القسي والسهام والجمعاب والرماح وخوس الحرب وعصى الرماية ، وأخذ إبراهيم يث فيهم روحا قوية ويقول لهم .. فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين .. كم من فتنة قليلة غلبت فتنة كثيرة بإذن الله .

وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين .. فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ، واتقوا الله واعلموا

أن الله مع المتقين .. قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويغزهم ويصركم عليهم .. ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين .

ووقف المؤمنون ينتظرون ، إنهم قليل مستضعفون في الأرض يخافون أن يتخطفهم الناس ولكن كان يقوى عزائمهم ما يعدهم به إبراهيم ، كان يعدهم بالفتح وبأن من يستشهد في سبيل الله فله جات عرضها السموات والأرض ذلك هو الفوز العظيم .

وجاء الكهان ورجال الدولة والتجار ورجال الجيش ومن ساقوا معهم من الجنود المرتزقة ، جاءوا ليدافعوا عن سلطانهم في الأرض وفي أيديهم الفئوس والسهام والرماح وفي قلوبهم العداوة والبغضاء . جاءوا يختالون فقد كانوا واثقين أن النصر لهم وأن الدائرة ستدور على أولئك السفهاء الذين عابوا آلهتهم وسفهاوا أحلامهم وعملوا على تقويض نفوذهم .

وتراءى الجمعان ، ونظر المؤمنون أنزل الله على قلوبهم السكينة إذ أراهم أن أعداءهم في أعينهم قليل ؛ ونظر الذين جاءوا يقاتلون الله ورسوله فوجلت قلوبهم وأوجسوا خيفة إذ أراهم الله أن أعداءهم في أعينهم كثير . ونزلت الهزيمة بأفئدتهم قبل أن يطلق سهم أو يرمى رمح أو تبسط يد للقتال .. ذلكم وأن الله موهن كيد الكافرين .

ومشى الرجال إلى الرجال وبدأ الصراع الذي تباركه السماء ، الصراع الذي لولاه لأست الحياة وبحر في الكون فسق المترفين وساد فيه ظلمهم وطغيانهم . ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض .. فدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا .

كسب على إبراهيم والمؤمنين القتال ، فاندفع إبراهيم بين الصفوف يقاتل في

سبيل الله ، فإذا الرجل الأواه الحليم الذى تفيض بالدموع عيناه إذا ما دعا ربه ، يقاتل فى صراوة من أرغموه على القتال ، فقد أمر أن يقتل من جاءوا لقتاله : فإن قاتلوكم فاقتلوهم ، فما كان له إلا أن يطيع أمر الله ، وأن يخوض معركة الإيمان حتى يحكم الله بينه وبينهم وهو أحكم الحاكمين .

وراح إبراهيم يطلق سهامه ويهز رعه ويطمس به أعداء الله ، ويلتحم مع الرجال ويسعد إلى أعدائه يديه ليقتل أنفسا تبغى الفساد ، حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله .

وسارع إليغارر الدمشقى إلى الطعن والزال وكان يستعجل إحدى الحسينين : النصر أو الاستشهاد فى سبيل الله والفور بجناات الخلود .

التحم حزب الله وحزب الشيطان واشتد القتال بين المصلحين والمفسدين ، وكانت قلوب المؤمنين عامرة بالإيمان وقلوب العاسقين هواء ، وراح كل يستنصر وليه ، وإبراهيم ومن معه يدعون الله ، والكافرين يدعون بعلا وعنت والأصنام الأخرى ، وأطبق الحق على الباطل ليزهقه ويكتم أنفاسه .

ووقفت سارة على باب خيمتها تنظر والمركة تدور على قيد خطوات مها وقد حمى وطيسها : سهام تترشق ، ورماح تهز وترمى لتستقر فى الظهور والبطون ، وخاجر ترتفع وتهوى فتفوح فى الرقاب والقلوب والصدر ، وصرخات مفزوعة وأنات موجوعة .

وراحت تنع إبراهيم بعبيها وانبهرت أنفاسها وهو يصول ويحول لتكون كلمة الله هى العليا ويكون الملك لله .

وشخصت بصرها إلى السماء وابتهلت إلى الله فى حرارة أن ينصر عباده

ويؤيدهم بنصر من عنده ، وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم .
وطفرت من مآقيها الدموع وهي تدعو الله أن ينزل على المؤمنين نصره الذي
وعدهم .

وثبت إبراهيم ومن معه وأبلوا بلاء يرضى الله وأنخنوا في الأرض . ولما
رأى الكافرون جنودهم صرعى يغطون أرض المعركة زلزلوا زلزالا شديدا ،
وأيد الله الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين ، وألقى في قلوب
المفسدين الرعب فولوا مدبرين ، وإبراهيم ومن معه في أثرهم يقتلونهم تقتيلا .
وهام من بقي من الكهنة ورجال الدولة وأصحاب النفوذ والجنود المرتزقة
على وجوههم مرعويين ، وولوا الأدبار في دروب دمشق لا يلبثون على شيء .
وبانت دمشق في حوزة إبراهيم ليقم فيها الدين وليصفح عن الجاهلين ،
وليقلول : سلام فسوف يعلمون .

فرح المؤمنون بما آتاهم الله من فضله فقد دانت لهم دمشق الفيحاء جنة الله في أرضه ، وسقطت في أيديهم بكنوزها وقصورها وقلاعها ويوعا ذات الشرفات ، وحدائقها ورياضها وأشجارها وتينها وزيتونها وأعنامها ونخلها وما تزخر به من خيرات .

وماء الكافرين هزيمتهم ووجلّت قلوبهم وياتوا يترقبون من الخوف ، فقد ظنوا أن إبراهيم سيقضى آثارهم ليقطع دابرهم . كانوا يسحرون من الذين آمنوا فإذا الذين كانوا يستهزئون بهم قد أصبحوا فوقهم يتحكمون في رقابهم ، إن شاعوا غفوا وإن شاعوا يقتلون .

وقال إبراهيم : سلام ! وراح يدعو إلى السلم . كان يلتبس هدايتهم فقال لهم قولوا لنا لعلهم يهتدون : من عمل صالحا فلنمسه ، ومن أساء فعليها ثم إلى ربكم ترجعون .

عما إبراهيم وصفح عنهم حتى يأق الله بأمره ، وأن تغفوا أقرب للتقوى .. إن الله يحب المتقين . وراح المشركون يرقبون ما يفعل إبراهيم بقصر الملك وقد أصبح خاليا بعد أن فر من فيه هارين ، قال من في قلوبهم مرض سيحتل العرش ويكون حبارا من الجبارين ، وقال من مالت قلوبهم إلى الدين الجديد إن ما عند ربه خير من قصور دمشق وكل كوز الأرض ، فما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور .

وعاد إبراهيم إلى خيامه يسبح بحمد ربه ويستغفره ويسجد مع الساجدين ، ويدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ، فدخل الناس في الدين الجديد أفواجا ، وراح إبراهيم يسي المحارب لله رب العالمين .

وعرف أهل دمشق الله الواحد القهار رب السموات والأرض وما بينهما ، وشرح ذلك صدر إبراهيم . ولكن هل يفتح بهذا الفتح ؟ أيرضى بالدعة والاستقرار ؟ أهذه هي كل رسالته ؟ أن يعرف حفنة من المؤمنين أن ربهم الله واحد لا شريك له يا الناس في الدنيا كلها يتمخبطون في الجهالة ؟ إنه لا يريد علوا في الأرض ولا يريد سلطانا يتحكم به في الرقاب . إن كل ما يبغيه هو أن يبلغ رسالات ربه للناس كافة ، حتى يؤمنوا ويقبوا الصلاة ويفقوا مما رزقهم الله من أوعلاية من قبل أن يأتيهم يوم لا بيع فيه ولا حلال .

دانت له دمشق بقصورها وكنوزها وحصونها ومعابدها وجناتها ، ولم يدرك الشرف رأسه ولم يدنس الطمع قلبه ، إن ما يريده يفوق كل كنوز الدنيا وما فيها من متاع ، إنه يريد الآخرة ويسعى لها سعيها وهو مؤمن ، إنه يريد كبر السماء وقصور السماء وجات النعم .

وما دمشق في ملك الله ؟ إنها ذرة في فلاة ، فطرة في بحر ، وما ينبغي أن تظل دعوة التوحيد حبيسة جدران مدينته مهما عظمت هذه المدينة وارتفع شأنها . إن دين الله لا بد أن يتشر في الأرض مشارقها ومغاربها . نجاء الله ولوطا إلى الأرض التي بارك فيها للعالمين فكان عليه أن يخرج إلى تلك الأرض .

حسنست دمشق مستقرا ومقاما للمؤمنين ، ولكن كما كان للنبي الذي هجر الدعة في أور ليعيش في خيمة يدعو الناس إلى السميع العليم أن يستقر في مكان واحد ، فأرض الله واسعة وقد كتب الله عليه أن يمشي فيها ويدعو الناس إليه .

إن كانت قوافل التجارة تجوب الآفاق آناء الليل وأطراف النهار ، في الظلمات والور ، في الظل والحرور ، في الفياف والسهول ، في الفجاج وشعاب الجبال ، في المطر الشديد والريج العرصر العاتبة . في لفح الصيف وبرد الشتاء في سبيل عرض رائل ، فأولى لقوافل الله أن تسيح في الأرض في سبيل الله ، ثم أولى لهم أن يدعو الناس إلى الله مالك الملك مولاهم الحق ، ليفوزوا ببينات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا .

نشأ إبراهيم في أور وهاجر إلى حاران ومنها إلى سورية ، وإن بابل لها حدود وسلطان ، وآشور لها حدود وسلطان ، وسورية لها حدود وسلطان ، وكنعان لها حدود وسلطان ، والجزيرة العربية لها حدود وسلطان ، ومصر لها حدود وسلطان ، ولكن إبراهيم لا يقر هذه الحدود ولا يدين لسلطان غير سلطان الله ، إن هذه الممالك كلها أمة واحدة وربها واحد لا إله غيره يؤتي كل ذي فضل فضله ، فأمر مؤدبه أن يؤذن في الناس بالرحيل إلى حيث يشاء الله .

ورفعت الخيام وركبت سارة جملها وحولها حواريا ، وراح إلى البعازر اندمشقى يشرف على العبيد وقطعان الماشية التي أثار التنع فححب دمشق عن العيون ، وامتطى إبراهيم راحته ، وامتطى لوط راحته ، وانطلقت قافلة الإيمان في معبد الله ، في الكون العريض ، تسبح بحمد ربها وتستغفره إنه كان توابا .

كان رجال بيت إبراهيم ألفا أو يزيدون من المؤمنين والعبيد وكان للوط رجال ورعاة وعبيد وأنعام ، فقد أنجب كل من خرج مع إبراهيم من أور ومن حاران ومن دمشق . إلا إبراهيم كان فردا لم يرزقه الله بذرية ، ولو شاء لرزقه

من سارة ولكن شاءت حكمته أن يؤخر هبته له ، لأن الله قدر أن يكون أول الصالحين الذين يهبهم له من غيرها ، إن الله يفعل ما يريد .
كان إبراهيم يدعو ربه في الظلمات وفي دلوك الشمس وآماء الليل وأطراف النهار : « رب هب لي من الصالحين » . ولم يستجب الله إلى دعاء تحليله فلم يكن أول الوارثين من آل إبراهيم من زوجه التي خرجت معه من أور ، إنه من امرأة أخرى اختارها الله له سوف يقوده إليها . إن الله بالغ أمره قد جعل لكل شيء قدرا .

انطلقت قافلة الإيمان إلى الأرض التي بارك الله فيها للعالمين ، وكان الرعاة يرعون على سفوح الجبال وفوق قممها ، والدور مبعثرة هنا وهناك كأها صناديق من الورق ، والفلاحون يحرقون الأرض وجر الحراث جعل وثور ، والكلاب تتبع من بعيد .

وتساعد من الجبال دحان إذ كان الكنعانيون يقدمون الغرابين لأهلهم ، وكان البدو يجمعون صوب الدخان ليتقربوا إلى أربابهم بالصلوات فإن الناس في حاجة أبدا إلى آفة ترعاهم يوم ظعهم ويوم إقامتهم .

وبلغت القافلة وادي شكيم وكانت المياه تندفق ولها حرير وقعه في نفس المؤمن كوقع النسيج ، وكانت الشمس ترسل أشعتها الحامية ، فتلقت المؤمنون فرأوا « بلوطة مروة » وللأشجار عندها ظل ممدود ، فراحوا ينصبون حيامهم على جانبي الماء الذي يجري بالحياة والثناء .

واستراح المؤمنون قليلا ، ولم يركبوا المدعة بل قاموا يبنون عرشا لله رب العالمين ، لمن أسلموا وجوههم له ، لمن هجروا أوطانهم وباعوا دنياهم وساحوا في الأرض ابتغاء وجهه الكريم .

كانت أشجار البلوط منتشرة في المنطقة وجلس تحت الأشجار المعلمون يفقهون الناس في أمر دينهم . وكانت فرصة أن تدور المناقشات بين إبراهيم ومن معه من المؤمنين وبين المعلمين الذين جعلوا لله شركاء .

وراح المؤمنون يقولون للمعلمين إن الله واحد لا شريك له ، له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى ، وإن تحمّر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى ، الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى .

وظف المعلمون يسبحون بحمد بعل وأخته عنت والآلهة الأخرى ، واشتد الجدل وقال المؤمنون : إنهمكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم . وقال المشركون : ما نحن بتاركى آلهتنا سنظل لها عابدين . واشتد الجدل بين الفريقين ، وأحس المعلمون القوة في حجة الرعاة الذين جاعوا يسوقون أبقارهم وجمالهم وحميرهم وأغنماهم ، وهبت ريح الهزيمة فوطنوا العرم على أن يهوا هذه المناقشات التي كادت تزعزع عقائدهم فقالوا في استكبار :

— اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم .

وجاء الليل ومد أبو المؤمنين الموائد لرجالهم وعبيدهم وللضييف ، وأقبل رعاته على الطعام يأكلون باسم الله ويحمدون الله على ما رزقهم من خير ، ودار الحديث حول الله ولدين حديثا صافيا رقرقا أصفى من الماء المتروك في جداول شكيم ، وحاشت نفوسهم بفرح مياض انعكس على وجوههم فتألفت بالبور ، وملأ الإيمان قلوبهم بالقوة والبأس ، فإذا الرعاة البسطاء الذين يرعون الإبل الجاسين تحت أشجار البلوط يبدون في جلال رعاة الشعوب .

ولم يستقر إبراهيم عند « بلوطة مروة » فهو لا يعرف الاستقرار ، إنه في رحلة دائمة سواء عليه أفي أور كان أم كان في حاران أم في دمشق أم في شكيم ، فأينما كان فهو مع الله يرجو تجارة لن تبور .

وأمر بالرحيل فانطلقت قافلة الإيمان إلى الغرب تسيح في الأرض التي بارك الله فيها للعالمين ، تسير إلى حيث يقودها الله والله فعال لما يريد .

وكانت ترى إلى مدى البصر المروج الخضراء زحرت بجينات من نخيل وأعشاب وتفجرت فيها العيون ودبت القطوف مختلفة ألوانها ، تشرح الصدور وتحرك الأكسنة بالتسيح لمن أنبت كل شيء موزون .

لقد أخذت الأرض زخرفها واريبت وبدت كالفرديوس ، ولم نجش في نفس إبراهيم رغبة أن يضع يده عليها ويستقر فيها فقد أعرض عن حنات الدنيا ، وإبه ليرجو أن يجعل الله الفرديوس له نزلا .

وبعد مسيرة يوم بلغت القافلة « بيت إيل » بيت الله ، وكان الناس حينما سار إبراهيم يعرفون الله ، فبابل : باب الله ، وبيت إيل : بيت الله . إن الناس في كل مكان يقيمون المعابد لله ولكنهم يشركون مع الله آلهة أخرى .

وكان الجبل شرق بيت إيل شامحا تكسوه عابات البلوط ، وكانت قمته تتألق بنور لطيف تهفو إليه قلوب المؤمنين . فهناك تطمئن الأرواح في الصلاة وترشف من نبع الصفا الإلهي وتندمج في روح الكون ، في الحقيقة الأزلية . وراح إبراهيم يرقى في الجبل وفي أثره القافلة المؤمنة ، حتى إذا بلغوا قمته راخوا ينصبون خيامهم في ظل أشجار البلوط ، وأخذ المؤمنون يتلفتون : كانت أراضي وادي الأردن تمتد إلى مدى البصر كبساط منسج أخضر . إنها جنة الرب تنطق بعمته وتسبح له . ويطروا وراءهم فرأوا البحر وأمواجه

المتلاطمة كجباد شهب يجرى بعضها في إثر بعض كأنما هي حلبة سباق
فانشرحت نفوسهم : ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانه !
وفوق أعلى قمة في ذلك الجبل بنى إبراهيم محرّبا ليدكر فيه اسم الله ،
وليخبر المؤمنون لله ساجدين .

وانشرفت الأنعام والأغنام في الأرض ترعى والرجال والعبيد يحرسونها .
ونظر الكنعانيون فرأوا قبيلة عظيمة بها رجال أشداء مسلحون .. قبيلة لا قبل
لهم بها جاءت تراجمهم على مراعيهم . ولم تكن هذه أول قبيلة تحجى للرعى مما
أكثر القبائل العربية التي جاءت إلى هذه الأرض ثم هبطت إلى سياء أو وادي
الأردن أو وادي النيل .

وسكت الكنعانيون على مضض حتى إذا دعاهم إبراهيم إلى عبادة الله
وحده ونهذ إليه القمر « سين » الذي كان يعبد في نابل وحاران وكنعان ،
وفي سياء التي تشرفت بالانتساب إليه ، ثاروا واشتد حقهم على القبيلة التي
حاءت تسب آهتهم وتسفه أحلام آبائهم الأولين .

وفكر الكنعانيون في دفع هذا البلاء الذي نزل بهم ، إسم كانوا دائما في
حماية الفراعين ، وحتى بعد أن ضعفت مصر ووثب الرعاة على الحكم فيها
واستولوا عليه لم يتغير الأمر عما كان ، وظل الكنعانيون في حماية حكام البلاد
الأحانب .

إنهم وجدوا ألا قبل لهم هذه القبيلة التي جاءت من أور بدين جديد ندعو
إلى إله واحد له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما ، فليسلوا إلى
ساداتهم في مصر يستجدونهم قبلتهم منهم تحلص آهتهم مما يهددها من
هوان وخزي .

وركب رجال من الكنعانيين إلى مصر يستصرخون الملك ويرجونه أن يرسل حملة لتأديب الواغلين الذين وثبوا على عبيده وسبوا آلهتهم ، ويخوفونه مغبة السكوت عليهم ، فإسهم أقوياء أشداء إن لم يخرج اليوم لقتالهم فسيشتد ساعدهم ويفيرون على مصر غدا ينتزعونها من يده ، ويسبون آلهته .
وتوكل الكنعانيون على ملك مصر وتوكل إبراهيم على الله فهو حسبه ، إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدرا .

خرج رسل الكنعانيين من إيليا ، بيت الله ، يحملون الهدايا إلى ملك مصر ويستصرخونه ويقولون له إن المدينة المعظمة ، المدينة المباركة ، المدينة التي قدسها الصابئة لأن فيها هيكل المشترى باتت مهددة باستيلاء إبراهيم عليها كما استولى من قبل على دمشق ، وأن استيلائه عليها إن هو إلا خطوة في سبيل الوثوب على مصر .

إن الخطر يهدد المنطقة كلها ، وإنه لخطر يختلف عن كل الأخطار التي حاقت بالناس من زحف القبائل العربية على بابل وسورية ومصر . فالزحف قديما كان يريد الأرض والمرعى والاستقرار . أما زحف إبراهيم فأغما هدفه العقائد والضماير والنموس . فهو يزعم أن كل الآلهة التي تعبد في بابل وآشور وسورية وكنعان والجزيرة العربية ومصر إن هي إلا أصنام لا تملك لنفسها نفعا ولا ضرا ، وأن للعالمين ربا واحدا لا شريك له ، وأن أم الأرض كلها أمة واحدة .

وبلغ رسل الكنعانيين غزة فاشترؤا من أسواقها بعض الإماء هدايا لأُمير مصر الوراثي ، وللمشرف على أواميس ، والوزير ، وحامل مروحة الملك ، ورئيس الرماة ، والمشرف على البلاد الأجنبية ، فما كان الطريق إلى الملك ليفتح هم إلا بالهدايا والجواري والحسان .

وهبطوا إلى سيناء وكانت الأشجار تغطي الأرض وبعوث المصريين تجوب

أرجاءها للتنقيب على الحاس والمعادن النفيسة ، والناس يهرعون إلى معبد سين إله القمر ، فقد كان ذلك المعبد من أهم مراكز عبادته حتى أطلق اسمه على شبه الجزيرة كله .

كان للإله سين مكانة سامية عند العرب أبناء سام وقد رفعوا شأنه أيها حلوا ، عبدوه في بابل ، وقدسوه في أور وحران ، وأقاموا له معبدا هائلا في سياء ، وآخر في أسوان وكانت تسمى سين تيركا باسمه .

إن القمر أنيس البدو الذين يسرون في الليل وقد توطدت بينهم وبينه أواصر حب وإجلال ، وربما ذلك الحب حتى صار تقديسا فعبدوه في أور باسم نانا ، وعبدوه في حران وسيناء باسم تحوت وجعلوه كاتب الآهة جميعا ، وقد جاء إبراهيم ليقول لهم إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم .

ولاحث أرسل الكنعانيين مدينة بلزيوم . وسور الحاكم الذي بهى لصد البدو عن وادي النيل ، وقلة رل ، والأرض الخضراء التي تروى من قناة خرحت من النيل لتصب في البحر الأحمر ، فحولت البرزخ الذي يفصل بين البحرين إلى جنة فيحاء نفو إليها أهدة القادمين من الصحراء .

وخف حراس الحدود الشرقية إلى رسل كنعان يسألونهم من أين وإلى أين ؟ فقالوا :

— نحن عبيد فرعون قادمون من كنعان لمقابلة ابن رع ، له الحياة والسعادة والصحة ، نلتبس من حالته أن ينفدنا من قوم نزلوا بأرضنا يريدون أن يفتنونا عن ديسا ، ويطلبون ما أن نشق عصا الطاعة لمولانا العظيم له الحياة والسعادة والصحة .

وسمح لهم حراس الحدود بالمرور فانطلقوا هداياهم وجوارهم الحسان في

أرض جوشن وما أخذ الحراس من الهدايا إلا اليسير . انساب الكنعانيون في أرض يلفها عموض مقدس : قفط محنطة وثيران محنطة ، والمصريون بملابسهم الكتانية البيضاء يعدون ويروحون ، وعجرات تناثرت وغطت سطوحها أوراق البردى وزهور اللوتس ، والطيور تحوم حول الزوارق وهي تنهذى على الماء .

انساب رسل الكنعانيين في الوادى الضيق الذى يقودهم إلى شرق الدلتا حيث اتخذ ابن رع عاصمته الجديدة . وقال الكنعانيون إنهم ذاهبون إلى فرعون ونعتوه بابن رع ، وإن كانوا في قرارة نفوسهم يعلمون أنهم ذاهبون إلى ملك من ملوك الرعاة ، الرعاة الذين استأذنوا أول الأمر ليرعوا في شرق الدلتا ، فلما آتوا صعبوا من الفراعين انزعوا الحكم منهم . كانوا في طريقهم إلى قصر سان بن الأشل بن عبيد من دان له الوجه البحرى ، ومن حاول أن يمد سلطان حكام البلاد الأجنبية « حتاو نحاسوت » الهكسوس إلى الوجه القبلى .

وقد ترجم جده عبيد اسمه إلى لغة الفراعين ليتقرب إلى المصريين فأصبح منك نحسى (العبد) وصارت له تماثيل في أوريس لا تفترق عن تماثيل الفراعنة ، ونسب ابنه سنان نفسه إلى رع وارتدى ما كان يرتديه الفراعنة ومارس ما كانوا يمارسونه من مراسيم .

ودخل رسل الكنعانيين « مديس » وكانت تموج بالناس ، فقد كانت الليلة ليلة الاحتفال بعيد « ناست » إلهة المرح ، وكان رأسها رأس قطة وكان التقرب إليها بالخلاعة والتهتك والمجون .

فكان الرجال والنساء يعمون الحجة عبا ، والنسوة يطلقن ضحككات باعمة

نفعم جو المدينة بالنشوة ، والخمور تلعب بالرعوس فتلتصق الصدور وتبحث
الشعاه عن الشفاه .

وتهلل رسل الكنعانيين بالفرح واندحوا في الناس وسوا الخطر الداهم
الذى يهدد إيليا ، بيت الله إلى حين ، وأخذوا ينهلون من كئوس اللذة ، ولم
ينكروا شيئا هسواء لديهم أتضحية الأجساد كانت تقوم على مديح عشتار أم
كانت تقدم على مديح « باسنت » !

واستأنف رسل الكنعانيين رحلتهم فرأوا الفلاحين يحفرون الترع لتندفق
مياه النيل في القنوات ، والثيران تجر المحاريث وتشق أحاديث في الأرض
السوداء (كيمي) ، والرجال والنساء والأطفال يندرون البذور أو يجمعون
المحاصيل .

وأخير دخلوا أوريس العاصمة الجديدة عاصمة الهكسوس وكانت غاصة
بالجنود الأشداء وما كانت أسوارها المتينة وحصونها البيضاء قد بنيت بعد ،
وكان النسوة في الأسواق يمارسن التجارة ، والرجال يصنعون الخلى أو
يصنعون الخناجر وأدوات القتال أو يمتحنون التماثيل للآلهة . وكان تمثال الإله
« ست » أكثر ما يقبل عليه الناس في أوريس .

وكان مردوخ أول أمره إلها محليا في بابل ، قبل أن ينتزع العرب أبناء سام
ملك بلاد ما بين النهرين السومريين فرفعوه إلى مرتبة رب الأرباب وإله
الآلهة .

وكان « ست » كسائر آلهة الأقاليم محليا يعبد في شرق الدلتا ، فلما انتزع
العمالة الذين وفدوا من نهامة ملك مصر فعلوا ما فعله العمالة الذين انتزعوا
ملك بابل ، رفعوا « ست » الإله المحلي ليكون رب الأرباب وإله الآلهة .

وانطلق رسل الكنعانيين إلى القصر ليقابلوا الملك الذى فرض عليهم حمايته ، وفى الطريق رأوا تمثالاً لنحسى جد الملك وكان يختلف عن الفراعنة وإن ارتدى ثيابهم ووضع على رأسه تاجهم ، وكان يمتاز ببسطة فى الجسم وتختلف ملامحه عن ملامحهم ، وقد كتب على التمثال « الملك نحسى محبوب الإله ست رب أواريس » .

وكان بقرب التمثال مسلة قدمها نحسى قربانا للإله ست رب أواريس . وكان آنذاك حديث عهد بحكم مصر وما كان الملك قد استتب له بعد ، فكان متواضعا فأقر الوضع الذى كان عليه « ست » وأنه إله أواريس وحسب ، أما خلفاؤه الذين اشتد ساعدتهم فقد رفعوا رب أواريس ليكون رب الآلهة جميعا ، رب الأرباب وإن أحق ذلك كهنة رع فى أون (هليوبوليس) وكهنة بتاح فى منف وكهنة آمون فى طيبة .

ذهب رسل الكنعانيين للقاء سان بن الأشل بن عبيد . إنه من أبناء سام وهم أبناء سام ، إنه من تهامة وهم من عرب الجزيرة العربية ، ولكن أين هم منه الآن ؟ إنه فرعون من الفراعنة متذكره الأجيال القادمة سواء أطلقوا عليه سان أم ابن الشمس أم أطلق عليه الإغريق اسم « سلاتيس »^(١) ، أما هم فإنهم عبيد فرعون أما كان ذلك الفرعون .

وبلغوا القصر وقابلوا رئيس الوزراء وقدموا إليه هداياهم وقالوا :
— جئنا بلمن الشمس المثل بين يدي فرعون العظيم ، له الحياة والسعادة والصحة .

ذ(١) ذكر يوسفس نقلا عن مانيتون « أن سلاتيس أول ملوك الهكسوس » .

ولما فرغوا من مقالتهم قال رئيس الوزراء :

— مولانا ، له الحياة والسعادة والصحة ، في المعبد يقدم القرابين لإلهنا
« ست » العظيم رب الأرباب وإله الآلهة ، له الحمد وله التقديس .
وكان الملك يركع في المعبد أمام تمثال « ست » ويتلو صلاته ، وكان
الكهنة برعوسهم الحليقة وثيابهم البيضاء يطلقون البخور ويقومون بالمراسم ،
وكان الكاهن الأول للإله بقرب الملك يصفي إلى ابتهاالاته ، وكان سنان يقول
في حرارة وقد تفرقت الدموع في عينيه :

— الحمد لك يا ست يا بن « توت » ، يا صاحب القوة في سفينة الملايين
(سفينة الشمس) ، والذي طرح الثعبان المعادى لرع أرضا ، والذي على
رأسه سفينة رع ، ومن صوته عظيم في الحرب ، ليتك تمنحني حياة جميلة
لأنهض بخدمتك وأحظى برعايتك .

ثم هض الملك وسار يحف به الكهنة ورجال القصر ، وراح يحدث الكاهن
الأعظم « لست » ويعدة ببناء المعابد لرب أواريس ويمينه الأمانى ، ويلوح
للكهنة بالثراء الواسع ليجذبهم إلى جابه ويأمن مؤامراتهم .

دخل الملك القصر وراح يتأهب لاستقبال الوفود فأحد موظفو خزانة
الثياب الملكية يغدون ويروحون في ردهات القصر مزهوين ، فهم يزيتون
« الحوريس » إلههم الطيب ، الملك الذى بدل كهنة ست كل الجهود
ليقنعوا الشعب أنه كفراعين مصر جاء من نسل الآلهة .

وراح مزين الملك يثبت على عارضيه لحية صناعية طويلة ، ويضع على
رأسه شعرا مستعارا طويلا ، ووقف المستشار الخاص يحمل التاجين ويرقب
مزين الملك في خضوع ، حتى إذا انتهى من تزيين جلالته وضع المستشار
الخاص على رأس جلالته تاج الوحيين البحرى والقللى ، وزينه بالحللى

والجواهر ، ثم ناوله العصا الملكية ، فنهض الإله الطيب وسار إلى قاعة العرش في حيلاء وعلى رأسه الناحان ، وإن كان الوجه القبلى لم يحضض بعد لحكم المختاسوت : الهكسوس .

وأذن لرسل الكنعانيين بالدخول على جلالته ، فتقدموا في الفناء الأول وكانت تزينة أعمدة البردى وهم مأخوذون ، واستولى على قلوبهم رعب شديد إذ كانوا يقتربون من ذلك الكائن الذى يفوق البشر ، والذى كان يستطيع بكلمة تخرج من شفتيه أن يقذفهم مما هم فيه .

ورأوا الشرفة التى يشرق منها جلالته من أفقه على شعبه ، ولم يكس للمصريين عهد مثل تلك الشرفات فهى منتشرة في سورية وبلاد الكنعانيين ، وقد أدخلها منوك إلى البلاد فيما حاربها من حصارة وخيل وعربات وأسلحة حربية . وتقدم رسل الكنعانيين من المقصورة التى استوى الملك على عرشه فيها فحفظت قلوبهم وارتعدت فرائصهم ، وراح من سيتحدث منهم إلى جلالته يجمع شتات فكره ليتذكر ما لقيه إياه رجال القصر من مدح يثلج به صدر الإله الطيب الذى يرعى بلاده رعاية الوالد الخنون لانه ، ويمجده رعاياه ويخشاها أعداؤه ، وتوقره الكهنة كابين حقيقى لرع إله الشمس العظيم .

ودخل رسل الكنعانيين قاعة العرش وما لاح لهم الملك حتى غمروا له ساحدين ، فلما أذن لهم أن يرفعوا رعوهم تقدم الباطق بلسانهم بين يديه ، وانحنى وقبل قدمه ، ثم وقف في خشوع .

وكان الملك يجلس على عرش الأحياء ، وهو مقعد مكعب الشكل ظهره قليل الارتفاع وليس له مساند جانبية ، ترين قواعده زخارف تحكى ريش

الطيور ، وقد وضعت فوق المقعد وسادة ، وحف بالملك الأمير الوراثة والوزراء ، ووقف عن يمين الملك حامل المروحة ورئيس الرماة والمشرف على البلاد الأحسية ورئيس المازوى (رئيس الشرطة فى الصحراء) والكتاب الملكى والمشرف على الخيالة والكاهن الأول للإله ست .

وراح الرجل يلقى بين يدى الملك خطبة طويلة كلها تملق ورياء ، قال فيما قال :

— يا من أنت مولانا ، يا من يجرى كل شيء كما يشاء قلبك ويهوى ، أى شيء ذلك الذى لم تحط به خيرا ؟ فما من شأن أبرم دون علمك ، يا من إله الذوق فى فمك ، ويا من عرش لسانه فى معبد الحق ، ويا من يستوى الإله فوق شعبه ، ويا من كلماته تطاع وتحلب السعادة والخير .

وراح الرجل يكيل المدح للملك حتى انتفحت أوداجه فقال وهو يشمخ بأنفه :

— لقد سررنا جلالتنا سرورا كبيرا عما تقول لأنك تفهم كيف تقول ، فاحس ما تشاء لقضى جلالتنا لك حاجتك .

وتهللت أسارير رسل الكنعانيين ورل بقلوبهم الفرح فقد وعد ملك أواريس أن يستجيب لطلبهم ، وقال رجل كنعان :

— لقد نزل بأرض عبيد مولاى قوم من البدو أطعمهم كرمنا فينا ، فلم يكتفوا بالرعى فى مراعيينا ومزاحمة مواشيهم لمواشيابل طعنوا فى آهتنا وسفوها أحلامنا . وقالوا : ما بعل وعنت وآهتنا الأخرى إلا أصنام لا تملك لنفسها نفعا ولا ضرا ، وراحوا يسخرون بنا وبمعتقداتنا وبآهتنا .

وقال الكاهن الأول للإله ست :

— وما هي دعواهم ؟

— دعواهم أن لا إله إلا الله ربهم ورب العالمين . فهم يريدون هذه الدعوى أن يستولوا على الدنيا بأسرها ، وأن تخضع لهم الدول والممالك وشعوب الأرض طرا .

وضحك الملك ملء شذقيه وقال :

— أجعلوا الآلهة إلهها واحدا ؟ إن هذا لشيء عجاب !

وقال كاهن ست :

— لن يصير مولانا المحبوب من ست ومن الآلهة جميعا على هذا الفساد . إن إلهنا ست ، من صوته عظيم في الحرب ، ما شرع الحروب وما بارك المحاربين إلا ليصون كلمة الآلهة ويجعلها هي العيا في الأرض وفي السماء . إن إلهنا ست ابن « توت » وصاحب القوة في سمينة الملايين . ومن طرح الثعبان المعادى لرع أرضا ، قد حمل سلاحه وخرج لقتال هؤلاء الدين عابوا الآلهة وأغضبوا أرباب السموات .

قال كاهن ست كلمته وإنها لكلمة السماء . فكان عى الملك الإله الطيب أن يجيب دعوة إله أواريس ، فالتفت إلى رسل الكنعانيين وقال :

— نصرتم ، ليقوم جنودى بتأديب المفسدين .

أوقد إبراهيم النيران في الليل يدعو الضيف إلى طعامه ، وأمسّت خيامه
تغص بالناس الدين يأتون ليطعموا ويلقوا سمعهم إلى الشيخ الجليل الذي
يتحدث في إيمان عميق عن الله الواحد ، رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك
يوم الدين .

ودار بين إبراهيم والصائين حوار طويل يدور حول الله واليوم الآخر
وملائكته ورسله ، وكان الصائون في إيليا ، بيت إيل : بيت الله ، قلة .
وكانوا يؤمنون بالله قل أن يدعوهم إبراهيم إليه ، فهم الدين أطلقوا على نابل
اسمها باب الله ، وهم الذين أطلقوا على إيليا المدينة التي نزل بها إبراهيم ومن
معه : بيت الله ، إلا أن شوائب علقت بمعتقدهم ، فيجادلهم إبراهيم ليطهر
دينهم مما يكاد أن يفسده .

وكانوا في مصر مد كان إدريس عليه السلام في منف ، وتلقوا على يديه
عقيدة التوحيد ، ثم تلقوها على أيدي الأحبار الذين كانوا يدينون بدين
إدريس . فلما طال على المصريين الأمد وبسجت الأساطير حول إدريس
وصورته في صورة أزريس الإله الذي قتله أخوه ست ، ثم قطع أعضائه
وبعثرها في أنحاء البلاد وراحت زوجته إزيس ، تجمع أعضائه المبعثرة لتعيد إليه
الحياة ، وما كان من أحداث حتى أصبح أزريس إله العالم السفلى الذي يقيم
الميزان لحساب البشر على أفعالهم — تحول المصريون عن الدين القويم إلى

الديانات التي ابتدعها الكهنة ليغروا ويزدادوا غنى ، فهاجر الصابئون من مصر فرارا بدينهم ، ونزل بعضهم في سورية وحاران ، واستأنف الباقون هجرتهم حتى استقروا في أرض بابل جنوب بلاد ما بين النهرين .

وكان الصابئون يعتقدون أن أول بيت بنى لعبادة الله بمكة ، وأن إدريس عليه السلام هو الذى بنى الكعبة ، وأنها بيت زحل أعلى الكواكب السيارة وأن الطوفان غمرها فيما غمر ، إلا أنهم كانوا يطوفون حول هياكلهم أسوة بطواف إدريس حول الكعبة . وكانوا يبنون هياكلهم من القصب كما تبنى الخيام ، وكانوا يتخرجون من ملامسة غير الصابئين ويتطهرون إذا لمسوا غريبا في أثناء عبادتهم ، وكانوا يصومون ثلاثين يوما متفرقة في السنة ، وكانوا يصلون لله ويتوجهون في صلاتهم إلى القطب الشمالى لأنه ثبت في مكانه لا يختلف له فلك باختلاف الزمان .

وكانوا يبنون مساكنهم بالقرب من الأنهار لحاجتهم الدائمة إلى التطهر بأناء ، ولذلك أطلق عليهم اسم الصابئين أى « الساعين » فإن ملامسة العريب في أثناء العبادة توجب عليهم الاعتسال والسبح في الماء .

إنهم قلة ، قليل عددهم خطير شأنهم ، يكتمون كتابهم أشد الكتمان وسموه « كنزة » ، وهم يباشرون شعائرهم في الخفاء ، ويتقاسمون الخبز المقدس علامة الأخوة الروحية ، ويعتقدون أن الكون كونان وأن الخلق خلقان ، فالكون الظاهر غير الكون الباطن . ولكل مخلوق في عالم الشهادة صورة محجوبة في عالم الغيب ، حتى آدم وبنوه منهم أهل ظاهر وأهل باطن ، وأهل الباطن لا يراهم من يعيشون في الظاهر .

إنهم يؤمنون بالله واليوم الآخر ، ويؤمنون بالحساب والعقاب ، وأن

الأبرار يذهبون بعد الموت إلى عالم النور ، آلمى دهوروا ، ، وأن المذنبين يذهبون إلى عالم الظلام ، آلمى دهشوخا ، ، فيلبثون فيه زمنا على حسب ذنوبهم ثم ينقلون منه إلى عالم النور .

إنهم ينزهون الله غاية التنزيه ، ويقولون إن الكواكب ملائكة نورانية ، وأنه لا بد من مخلوق وسط بين الروحانية والمادية يهذى الناس إلى الحق ، لأن الروحانيات مخلوقة من كلام الله جل وعلا دعاها بأسمائها فكانت ، ولا يصل كلام الله إلى اناس إلا بواسطة مخلوق وسط بين النور والتراب ، ترفعه الرياضة والهداية وتؤثره نعمة الله .

ووجد الصائغون في إبراهيم ذلك المخلوق الذى يجمع بين التراب والنور ، رفعت الرياضة والهداية ونعمة الله إلى المرتبة السامية التى تؤهله إلى تبليغ رسالات الله إلى الناس .

كان إبراهيم يدعو إلى وحدانية الله وكانوا يؤمنون بالله الواحد القهار ، وكان إبراهيم يدعو إلى الصراط المستقيم وأن كل نفس تحزى بأعمالها ، وكانوا يؤمنون باليوم الآخر وبالْحساب وبالجنة وبالنار ، وكان إبراهيم يدعو إلى بئذ الأصنام وقد صعدوا أوثانا للكواكب ، ومن ها كان الاختلاف وحول أصنامهم دارت المناقشات

قالوا : خلق الله الروحانيات ، خلق الملائكة ثم تلبست هذه الروحانيات بالكواكب النورانية ، ولما احتاج الأمر إلى أمثلة لهذه الكواكب يراها العيان حين يشاعون صنعوا لها صورا من الأوثان .

قال إبراهيم : إن الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمر الله ، يسجد له من فى السموات ومن فى الأرض والشمس والقمر ، وأن الأصنام التى

يصنعونها لا تملك لهم نفعا ولا ضرا ، ونهاهم عن عبادة ذلك الإلفك .
وقالوا إنهم يتوجهون إلى القطب الشمالى وإلى الكواكب علما ، ولكنهم
لا يعبدونها بل يعدونها من مظاهر الروحانيات التى لا تبرز للعيان .
ودارت المناقشات ليالى وأياما بين إبراهيم والصابئين^(١) حتى آمنوا بما
يدعوهم إليه من نبذ الأصنام ، وشهدوا أن إبراهيم رسول الله ، وراحوا
يدنونون تعاليمه فى كتابهم « كنزة » .

وبدأ الدين الحديد يشرق بنوره على بيت إيل ، بيت الله .
وراح اسم الله يتردد فى جيبات المدينة حتى يكاد يقضى على بعل وعنت
وعشتار والآلهة الأخرى ، وأحنق ذلك كهنة الآلهة فراحوا يتعجلون عودة
الرسل الكنعانيين الذين فرعوا إلى ملك مصر .

وكان إبراهيم يقف فى محرابه يصلى لله ، وكان المؤمنون يصطفون خلفه
ملائكة بررة ، ترق نفوسهم وتسمو أرواحهم حتى تكاد أن تتصل بنور الله ،
وكانت سارة تصلى فى خيمتها لله بصوت رخيم يأخذ بمجامع القلوب ويجعل
الأعين تفيض بالدموع . كان وجهها الجميل غاية الجمال يشرق بنور
الإيمان ، فيضئ عليها جمال الروح جمالا فوق جمال .

وجاءتها فى سكون الليل جارية وقالت لها إن امرأة من المؤمنات تضع
وليدها ، فقامت سارة وسارت خلف الجارية إلى حيث تقودها . وسارتا بين
الحيام تفوصان فى الظلام . ولم يكن فى السماء نجوم تتلأأ وقد غاب القمر ،
فأخذتا بتحسان طريقهما حتى إذا بلغتا حيمة فى أقصى المعسكر غاتا فيها .

(١) يعجب الباحثون لتوبه القرآن هذه الملة مع قلة عددها وحفاء أمرها .

وكان في الخيمة امرأة تتلوى من الألم ، فلما وقعت عيناها على سارة وهي تبسم لها مشجعة انبسطت أساريرها ورفرت على شفتيها بسمه واتمعت عيناها بهريق الاطمئنان . وجلست سارة ترقب أعجب انفصال ، انفصال روح من روح ، وكانت لا تفتر عن التسيح لله .

وتلقت سارة على يديها الوليد الجديد وشنت أذنها صرخاته والنشوة تفيض على وجهها ، لقد شهدت ميلاد كل أطفال المؤمنين والعبيد مدخر جوا من أور وكانت تتهلل بالبشر كلما ولد في قافلة الإيمان مولود ، كانت تحس أن كل هؤلاء الأولاد الذين ولدوا في حاران وفي الطريق من حاران إلى دمشق وفي دمشق وفي بيت الله ، إنما هم ذريتها .

كانت سعيدة غاية السعادة بيد أن كدرا كان يشوب تلك السعادة كلما سمعت زوجها يدعو ربه وهو واقف في محرابه : « رب هب لي من الصالحين » . كان في شوق إلى أن يكون له ذرية . وقد مرت السنون وعجزت عن أن تحقق له ما عهفو إليه نفسه الزكية . لبت الله يستمع لدعاء رسوله ، دعاء خليله . إنها ترجو بكل خلجة من حلماتها ، بكل نبضة من بضات قلبها أن يستجيب الله إلى دعاء حبيبها ، وإن كانت تلك الاستجابة تسيء إليها وتعذب روحها .

إن الله يعلم السر والنجوى ، وهو علام الغيوب ، وكان أمره قدرا مقدورا ، ولكن خلق الإنسان عجولا .

وخرجت سارة في عماية الصبح من الخيمة إلى خيمتها ولم تكن الحياة قد دبّت بعد في مساكن إبراهيم ، وكان نور فضي يجاهد ليتشر في الأعسق الشرق ، ومن أذن سارة صوت آت من بعيد ، صوت حوافر خيل ووقع

أقدام، فالتفت ناحية الصوت فإذا بأشباح تتقدم .
واستولى عليها الخوف وراحت تحاهد تميز تلك الأشباح . إنهم يقتربون ،
إنهم رجال يصع كل منهم على رأسه ريشة أو ريشتين من ريش النعام ، ويلفون
أجسامهم بشرائط ضيقة ، ويحملون في أيديهم أقواسا كبيرة وهراوات
وفؤوسا للقتال ، وبعضهم على ظهور الجياد .
ورأى أنهم سارة في وضوح ، إنهم جود مصر ما جاءوا إلا للغارة عليهم ،
فصرحت صرخة أيقظت الرجال فهبوا من نومهم مغزوعين وخرجوا من
خيامهم ينظرون .

ودبت الحياة في المكان فجأة ، فكان إبراهيم ومن معه يبحرون هنا وهناك
ويتأهبون لصد ذلك العدوان الذي دامهم دون إنذار . وفزع الرجال إلى
أقواسهم وسهامهم وهراواتهم وفؤوس قتالهم ، وتراءى الجمعان وراحوا
يتراشقون بالسهم ، وأخذ الجحود المصريون ينتشرون في الأرض ويحاولون أن
يضربوا نطاقا حول خيام إبراهيم .

ووصلت السهام إلى حيث كانت الأنعام ، فهاجت الشيران والإبل
والأغنام على وجوهها وانتشرت في ميدان القتال تثير النقع وتشيع الفوضى
وتقتلع الخيام وتجري وتلف وتدور دون أن تلوى على شيء .

واشتبك الرجال بالرجال . وخرج النسوة يعاون المؤمنين على صد
العدوان ، وحمى وطيس القتال ، ومال الفرسان على النساء وأخفوا بأسرون
كل من تقع منهن في أيديهم .

واحتدمت المعركة . وارتفعت الشمس في السماء ، وتفصد العرق
وسالت على الأرض الدماء ، وانتثرت الجثث أشلاء ، ونال الجهد والتعب من

الرجال ، فخفف القتال ثم توقف ، وقنع المصريون بما أصابوا فعادوا أدراجهم يحملون معهم ما أسروا من نساء ورجال وأطفال .

وراح إبراهيم يبحث عن سارة في نعيمها فلم يجدها ، وانتشر بين المؤمنين خبر اختفائها فأخذوا يبحثون عنها في كل مكان فلم يفتدوا إليها ولم يجدوها أثرا ، فما كانت بين النساء وما كانت بين الجرحى ولا بين القتلى . وقالت امرأة وقد غامت عيناها الدموع :

— لقد أسرت فيمن أسر ! حملها المصريون معهم يا حسرتاه !

ولم يجزع إبراهيم ولم يستسلم لحزنه . إنها إرادة الله والله فعال لما يريد ، وكان أمر الله قدرا مقدورا . فإن كانت سارة أسرت وحملت إلى مصر فهذه مشيئة الله ولا راد لمشيئته . فمن يدرى فعلل البركة فيما أراد الله ، فعسى أن تكرر هو شيئا ويعمل الله فيه خيرا كثيرا .

والتفت إبراهيم إلى لوط وإليعازر الدمشقي وبعض المؤمنين الذين التفوا حوله وقال :

— إلى مصر .

وامتنطى الرجال رواحلهم وانطلقوا إلى مصر ، إلى حيث أراد الله لنتم إرادته ، فאלله يعلم وأنتم لا تعلمون .

انتهى الجزء الأول ويليه الجزء الثاني

هـ هاجر المصرية أم العرب ،

تذييل

كنت وأنا تلميذ بالمدارس الابتدائية أجلس مع والدى وأصدقائه كل مساء ، أصغى فى انتباه إلى القارئ وهو يقرأ فى « السيرة النبوية لابن هشام » . فقد كان أبى وأصدقاؤه يجتمعون كل ليلة فى منظرية الدار (السلامك) ليقروا كتابا فى الأدب أو التاريخ ، وكانت أحاديثهم كلها تدور حول محمد — ﷺ — وحقبة صدر الإسلام .

وكان تاريخ محمد — صلوات الله عليه — وما يدور حوله يستهوينى ويأخذ بلبى ويستولى على كل انتباهى . وما انتهوا من قراءة السيرة النبوية لابن هشام حتى راحوا يقرعون « على هامش السيرة » للدكتور طه حسين ، فأعجبتنى طريقة الدكتور فى السرد ، وجعلتنى أعيش بكل جوارحى فى ذلك العصر الذى استطاع الدكتور طه ببراعته أن يجعله ينبض بالحياة .

وشبيت وأنا معجب بمحمد رسول الله — ﷺ — فلما عرفت كيف أقرأ عكفت على قراءة كتب السيرة وما كتب عن الرسول الكريم فازداد إعجابى بشخصيته الفذة الفريدة .

وهويت الكتابة فكانت أمنيى مذ حملت القلم أن يوفقنى الله إلى كتابة السيرة النبوية فى أسلوب قصصى يحذب القارئ ويجعله يعيش الأحداث التى عاشها ناس أحرار علينا كانوا يملئون الأرض حياة من مئات السنين .

وهمت بكتابة السيرة العطرة أكثر من مرة ، ولكننى كنت فى كل مرة

أحجم ليقبني أنى لم أصبح أهلا بعد لمعالجة مثل هذا العمل الشاق . ومرت الأيام وأنا بين الإقدام والإحجام ، وأخيرا توكلت على الله وبدأت فى كتابة الجزء الأول من السيرة مبتدئا بأبى الأنبياء إبراهيم الخليل أبى المؤمنين جميعا ، وأنا ما أزال على يقين أنى أعجز من أنهنض بمثل هذا العمل .

أقدمت على الكتابة خشية أن يفرغ الأجل دون أن أحقق أعز أمنية راودتنى فى العشرين سنة الماضية ، فإن كنت أصبت فمن عند الله ، وإن كنت أخطأت فمن عندى وأرجو أن يغفر لى الله خطئى ، وشغفى أنى اجتهدت وبذلت ما فى طاقتى ملتصبا بالحقيقة على قدر علمى واجتهادى .

اخترت أن أكتب السيرة بأسلوب قصصى ، وأنا على علم بما يعانى به كاتب التاريخ من مشقة إذا حاول أن يبعج فى كتابه نهج القصة ، فإنه سيشقى فى سبيل دراسة أشخاص السيرة دراسة دقيقة ليبرز ملامحها وجوانبها ، وسيبدل كل الجهد لتصوير الحياة اليومية والمعتقدات والديانات السائدة بأدق تفاصيلها ، وتفاعل الشخصيات مع البيئة ، والاعتماد على الخيال فى سد الثغرات والفجوات التى تتمرص التسلسل الزمنى ، على أن يتناسق الخيال مع المادة التاريخية ليرز جوهر الحقيقة ويعين على استقراء الأحداث لتوفير التسلسل المنطقي . إنه جهد شاق ولكنه يهون فى سبيل إتاحة الفرصة للقارئ لياخذ الكتاب فى يسر دون جهد أو تعب .

حاولت جهدى — وإن كنت أكتب قصة أو ما يشبه القصة — أن أحافظ على الحقيقة التاريخية ، فما من حادثة دوتها إلا ولها سند . وقد محصت الروايات المختلفة واخترت أقربها إلى المنطق وروح الدعوة ، وإن تعارضت مع ما ورد فى التوراة أو بعض الأحاديث أو مع المتواتر بين المؤرخين .

وقد رأيت من الأمانة أن أشرح النهج الذى انتهجته فى هذا الجزء من السيرة ، واكشف عن الأفكار التى دارت فى رأسى وتعذر سردها فى القصة بسبب السياق الفنى الذى اخترته .

كما عزم أن أدون — بعون الله — فى نهاية كل جزء من أجزاء السيرة الأفكار التى تصارعت فى ذهنى قبل أن أطمئن إلى رأى الذى دونه فى ثنايا الكتاب ، ليطلع القارئ على كل وجهات النظر ، لعل الله ينير بصيرته فىرى أصوب مما اطمأن إليه قلبى .

وقل أن أعرض مواضع الخلاف بين ما ورد فى التوراة وبعض الأحاديث السوية المشكوك فى صحتها والمتواتر فى كتب التاريخ وبين كتابى هذا ، سأعرض فى لحظة سريعة المنهج الذى اتبعته والمذهب الذى اتخذته نبراسا فى أثناء بحثى عن الحقيقة .

يقول المشتغلون بالعقائد والديانات بتطور الدين ، وأن الحضارة ظهرت على وجه الأرض منذ اليوم الذى ظهر فيه فجر الضمير ، وأن الإنسان سار فى طريق الرقى ودرج فى مدارج السمو منذ ذلك اليوم فعرف الآلهة والبحث بعد الموت والثواب والعقاب . وأكد المتحمسون لمبدأ التطور أن الديانات السماوية استمدت أصولها من ديانات قدماء المصريين والآشوريين .

ورجعت إلى القرآن الكريم أبحث عن نشأة الدين فاهتديت إلى أب الإنسان منذ خلقه الله وهو على علم . « وعلم آدم الأسماء كلها » وأن هذا العلم انتقل من آدم إلى نبيه ، وأن الصلة بين آدم وبين الله لم تنقطع بيهبوط آدم إلى الأرض . « فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه » ، فما لا شك فيه أن آدم وبنيه عرفوا الله الواحد القهار حق المعرفة ، فلما طال عيهم الأمد قست قلوبهم وأشركوا

بالله غيره وجعلوا له أندادا وتسجوا حول الحقيقة التي بلغتهم أساطير ، فمن المقرر أنه لا يمكن خلق شيء من لا شيء ومن ها جاءت للصحاح الصادقة في عقائد المؤمنين .

إن الله عدل وهو أحكم الحاكمين كتب على نفسه الرحمة ، وقضت سنته ألا يعذب الناس حتى يبعث فيهم رسولا ينذرهم ويبشرهم : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » ولكل أمة رسول « رسول من الله يتلو صحفا مطهرة » وإن من أمة إلا خلا فيها نذير .

فكلما طال على الناس الأمد وقست قلوبهم وأشركوا بربهم بعث إليهم رسوله ، فقام إدريس في منف يدعو الناس إلى عبادة الله له ما في السموات والأرض ، وحدثهم عن البعث والحساب والميزان والجحيم والحنات التي أعدت للمتقين ، فأمن المصريون بالله وبأن إدريس عبده ورسوله : « وادكر في الكتاب إدريس إنه كان صديقا نبيا » .

واعتنق الصابئون دين إدريس قبل أن يبعث الله نوحا وإبراهيم وقبل أن تقوم في مصر دولة .. عرف المصريون الله قبل أن يعرفوا أمون وأوزيريس وآتون . وقد ربطت بين إدريس وعقيدة أوزيريس لأني رأيت أن إدريس كان في منف وأن أوزيريس كان في منف وهو بعد على الأرض قبل أن ترفعه الأساطير إلى السماء ، ولأن كتب التاريخ تقول إن إدريس هو أول من علم الناس الزراعة وأن أوزيريس هو أول من علم الناس الزراعة ، وأن إدريس هو أول من حط بالقلم وأن أوزيريس هو الذي علم المصريين الكتابة ، وأن الله رفع إدريس مكانا عليا وأن الأسطورة رفعت أوزيريس إلى السماء .

وسواء أكانت أسطورة أرريس نسجت حول إدريس^(١) أم نسجت حول حقيقة أخرى ، فمما لا شك فيه أن المصريين آمنوا بالبعث بعد الموت وبالحساب وبالثواب والعقاب بعد دعوة إدريس ، وأن السابقين الذين كانوا في مصر قبل أن يفسد دين القوم ثم هاجروا منها بعد أن فسد الدين إلى جنوب العراق يؤيد هذه الحقيقة ، معرفة الله والبعث والحساب قبل عصر الأسرات . عرف المصريون من إدريس أن الله علم آدم الأسماء كلها فقالوا : إن بتاح (إله منف) نطق بأسماء كل الأشياء ، كما عرفوا التوحيد الصحيح قبل إختائون بآلاف السنين .

كان هذا هو المذهب الذى اتخذته نبراسا لى فى أثناء كتابة هذا الجزء من السيرة ، وسيكون هو نفسه نبراسى — إن شاء الله — فى الأجزاء التالية . وكثيرا ما يسخر الدين يحسبون أنهم على شيء ، من الذين يؤمنون بالغيب فى عصر الذرة والمعمل وأنبوبة الاختبار ويتخذون الدين يلشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون هروا ، ويزعمون أن لى يجعل الله لهم موعدا كأن عندهم الغيب فهم يكتبون .

لن نعرض عن هؤلاء الساخرين الهارئين ومنجادلهم بالتى هى أحسن ، وسندهم معهم طائعين إلى المعمل لنرى ما الذى تثبت أنبوبة الاختبار ، عسى أن يهدينا علام الغيوب جميعا سواء السبيل .

ولقد نجح المعمل فى أن يجعل تيارا يسرى فى سلكين أحدهما سالب والآخر موجب وأن ينير السلكان مصاحا ، ونجح فى أن يولد الكهرباء ، وهذا بلا مرأء نجاح عظيم يباركه الله والمؤمنون . ويهص سؤال : ما هى الكهرباء ؟ لقد رأينا أثر لكهرباء وما تفعله الكهرباء من أعاجيب ، أما الكهرباء فهى

شيء مجهول لم ندر كنهه . إنها غيب وسبحان علام الغيوب .

ونجح المعمل في أن يمسك قطعة من الحديد وأن يجذب المعناطيس المسامير ، وتوعدت استخدامات المعناطيسية وهذا بلا مرأى نجاح عظيم يباركه الله والمؤمنون ، وينهض سؤال : ما هو المعناطيس ؟ ولا جواب إلا أنه مجهول ، غيب ، وسبحان علام الغيوب .

ويقول العلم الحديث إن الضوء يتكون من تموجات تنتقل في الأثير ، ويعرف الأثير بأنه ذلك الذي تنتقل فيه تموجات الضوء ، وهذه حقيقة يمكننا أن نسلم بها ونبارك الجهود الصادقة التي بذلت للوصول إليها ، بيد أننا في نفس الوقت نجد أننا نسجل لغوا وتنهض أمامنا مشكلة : ما هو هذا الأثير ؟ وما هي خواصه الطبيعية ؟ غيب .. وسبحان علام الغيوب .

وكانت الذرة منذ عهد قريب أصغر وحدة في الوجود ، ثم حطمت الذرة وأصبحت إلكترونات ، واجتهد المعمل لينتج أرواح الإلكترونات بالجملة ، ونجح ، وعرفنا أن تيارات في جسيمات ذات طاقة عالية تأتي من الفضاء البعيد تولد أرواح الإلكترونات بالجملة ، وأطلقنا على هذه الظاهرة « رذاذ الأشعة الكونية » . وبخشنا عن منشأ هذه التيارات التي تجري في جميع الاتجاهات إلى رحاب الفضاء ، فإذا بنا أمام لغز ، أمام المجهول ، أمام الغيب ، وسبحان علام الغيوب .

ووصل المعمل بعد تحطيم الذرة إلى وحدات أولية تتكون منها الذرة هي البوويات والإلكترونات والنيوترونات ، وهذا بلا مرأى نجاح عظيم يباركه الله والمؤمنون ، ولكن على أي أساس يحق لنا أن نفرض أن هذه الوحدات غير قابلة للتجزئة إلى أجزاء أصغر ؟ ألم يكن مفروضا منذ نصف قرن مضى أن الذرة

غير قابلة للتجزئة ؟ إنما أمام غيب وسبحان علام الغيوب .

وركز المعمل جهوده لاكتشاف سر الخلية الحية لغز الحياة، وراح العلماء يفرضون فروضا . إن الخلية تتكون من فيروسات ، وهذه مواد كيميائية معقدة ، ثم يتحدثون عن الجسيمات الفيروسية التي ينبغي أن تعتبر كجزيئات عادية ، وفي الوقت ككائنات حية ، فهي بذلك تمثل الحلقة المفقودة بين المادة الحية والمادة غير الحية .

ونجد أنفسنا مرة أخرى أمام فروض وحلقات مفقودة ولغز لا يعرف العلماء حله ، نجد أنفسنا أمام الغيب . ولو استطردنا في استقراء نتائج التجارب التي تجرى في المعمل وأبوية الاختبار لخرجنا بحقيقة واحدة مؤكدة هي أد الغيب هو الحقيقة العلمية الوحيدة الثابتة .

نقد سخر الذين يحسبون أنهم على شيء من الذين آمنوا بالغيب ، وسخر الله منهم ، وحاق بالذين سخرُوا ما كانوا به يستهزئون : « والله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله » ، « فقل إنما الغيب لله فانتظروا إلى معكم من المنتظرين » .

كان الإنسان على علم منذ خلقه الله ، وكان يؤمن أن الله عنده مفاتيح الغيب ، وكان يخشع قلبه لذكر الله ، فلما طال على الناس الأمد وقست قلوبهم بعث الله رسله ليقولوا : (يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون ؟) .

إنها دعوة واحدة منذ آدم : إله واحد ، « إلهكم إله واحد » ، « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة » . وأمة واحدة ، « إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون » . وبهذا الفهم جعلت إبراهيم ينطق

بآيات جاءت في القرآن الكريم على ألسنة رسل آخرين ، آيات جاءت لتوضيح الدعوة والزام الكافرين الخبيثة ، آيات جرت على لسان أكثر من رسول لتأكيد أن الدعوة واحدة لم يطرأ عليها ذلك التطور المزعوم . « قل إننى هداى ربه إلى صراط مستقيم ، ديناً قيميا ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين » .

وما أردت بكتابة هذه السيرة في هذا العصر الذى طغت فيه المادية إلا أن أعرض حقبة مشرقة من تاريخ البشرية ارتفع فيها الإنسان حين أسلم وجهه لله ورفع عبادته من الطبيعة إلى ما فوق الطبيعة ، حقبة تحرر فيها من العبودية ، من أن يتخذ بعضهم بعضاً أرباباً ، من أن يكون عبداً للشهوات ورغبات الجسد . من أن ترتعد فرائصه خوفاً من بطش الأقوياء وظلم الظالمين . لقد أذلت الدنيا الإنسان قبل أن يعرف إلهه وإمها لتذله كلما أعرض عنه ، بيد أنه أذلها يوم عرف أن إلهه له ما فى السموات وما فى الأرض ، بيده الأمر كله فعال لما يريد لا معقب لحكمه ، وإنه ليذها كلما توكل على الله رب العالمين .

أردت بهذه السيرة أن أفسر التاريخ تفسيراً روحياً ، وأن أظهر ضمير الإنسان من أدران المادية الطاغية ، وأن أعيد إليه رهايته التى بلغت غايتها فى ظل الدين ، وأن أعيد إلى الإنسان كرامته التى تتألق وتزكو كلما سما فوق مطالب الأبدان وضرورات الفزائر وما تنهر إليه النموس .

وقد اعتمدت فى كتابة هذا الجزء من السيرة على القرآن الكريم ، وعلى الأحاديث والتوراة وكتب التاريخ فيما يتفق مع القرآن وطبيعة الدعوة وصفات خليل الرحمن النبى الصديق الأواه الخليم الذى وفى ، فإذا ما وقع خلاف

بين ما جاء في القرآن وما جاء في الأحاديث أو التوراة ، فقد كنت آخذ بما جاء في القرآن الكريم .

وكان أول خلاف بين ما جاء في القرآن وما جاء في التوراة بسبب إبراهيم واسم أبيه ، فقد جاء في القرآن : « وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر ... » وجاء في التوراة أن إبراهيم بن تارح ، وحاول كثير من المفسرين المسلمين أن يقضوا على ذلك النقص فقالوا إن آزر بمعنى أخرج أو أنه اسم صنم ، ولكنني رأيت أن أحد ما جاء في القرآن دون تلك المحاولات التي بدلت بحسن بية لأني أؤمن بما يؤمن به اليهود السامريون بصحة الإصحاحات التي نزلت على موسى ، أما ما جاء بعد موسى فهو من قبيل تسجيل اليهود لتاريخهم ، ولأني قرأت كذلك في كتاب الله : « ... إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء ، قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورا وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم ، قل الله ، ثم ذرهم في خوضهم يلعبون » .

وقد ذكر يوسفوس المؤرخ المسيحي اليوناني أن أبا إبراهيم الخليل يدعى آثر ، وزعم سنكلر تسديل أن للاسم أصلا في الفارسية القديمة بمعنى النار . واختلف اليهود والمفسرون والمسلمون في قرابة سارة من إبراهيم فقال اليهود إنها أخت غير شقيقة لإبراهيم من أبيه تارح ، وجاء في « المشناه » وهو من أهم المراجع الإسرائيلية بعد التوراة أن سارة هي بنت أخيه هاران . وروى الخافظ ابن كثير أن المشهور أنها أمة عم لإبراهيم يسمى هاران . ويقول ابن إسحاق الثعلبي صاحب قصص الأنبياء إنها ابنة عمه ولا يذكر اسمه . وقد أحدث برواية المفسرين العرب لأن عادة تزوج الأخت لم تكن متشرة بين

العرب الذين خرجوا من جزيرة العرب وأسسوا مملكة بابل وآشور واستولوا على سورية ودلتا النيل ، هؤلاء العرب الذين أطلق عليهم أحد المؤرخين في القرن الثامن عشر اسم « الساميين »^(١) لأنهم من نسل سام ، وجاريناه جميعا في تلك التسمية .

وقد أفاض الأستاذ عباس محمود العقاد في كتابه « أبو الأنبياء . الخليل إبراهيم » في نسب إبراهيم وقرابة سارة منه ، وفي أوجه الخلاف بين ما ورد في التوراة وما جاء في كتب اليهود .

ولم يذكر القرآن ولا الكتاب المقدس أن إبراهيم استولى على دمشق وإن ورد اسم إيلعازر الدمشقي في التوراة وكان صاحب حرائن بيت إبراهيم ، مما يدل على أن هناك علاقة بين إبراهيم الخليل ودمشق ، وقد اعتمدت على رواية المؤرخ اليهودي يوسفوس الذي ولد في القرن الأول للميلاد إذ ذكر أن إبراهيم كان ملكا على دمشق .

واعتمدت كذلك على يوسفوس عندما ذكرت أن سارة أخذت أسيرة إلى مصر ، وتركت ما ورد في التوراة من أنه « حدثت مجاعة في الأرض فانحدر إبراهيم إلى مصر ، وقال لسارى امرأته وهي على مقربة من مصر : إني علمت أنك امرأة حسنة المنظر ، فإذا رآك المصريون قالوا هذه امرأة فيقتلوننى ويستقونك ، فولى إنك أختى ليكون لى خير بسبك وتحيا نفسى من أجلك » .

« فلما دخل إبراهيم مصر رأى المصريون أن المرأة حسنة جدا ، ومدحها

(١) انظر تدليل الجزء الثانى عن الساميين .

رؤساء فرعون لديه فأخذت المرأة إلى بيت فرعون فصنع إلى إبراهيم خيراً بسببها ، وصار له بقر وغنم وحمير وعبيد وإماء وأتن وجمال^(١) .

أهملت هذه الرواية عن عمد لأنها لا تتفق مع خلق إبراهيم خليل الرحمن ، الرجل الذي وقف في وجه الجبارين ولم يرهب الطعنة ، الرجل الذي ألقى في النار وهو ثابت الحنان ، فكيف يرضى مثل هذا الرجل القوى الذي يعرف أن الله معه أن يبرر معاتى زوجته ويدخلها على فرعون لينال خيراً بسببها ويصبح له بقر وغنم وحمير وعبيد وإماء وأتن وجمال ؟!

قد يحتاج بأن هناك حديثاً نبوياً يؤيد رواية التوراة ، وعندى أن هذا الحديث هو من الأحاديث التي اقتصرت على رسول الله ، فمحمد — ﷺ — أكس من أن يتهم إبراهيم بالكذب ، ولا يقبل المنطق السليم صدور مثل هذا الحديث عن محمد — ﷺ — الذي يدعو المسلمون في صلواتهم أن يصلى الله على محمد وآل محمد كما صلى على إبراهيم وآل إبراهيم ، ويبارك على محمد وآل محمد كما بارك على إبراهيم وآل إبراهيم .

والحديث يختلف عليه بين الفقهاء وعلماء الأصول وهو يقول :

حدث أبو هريرة أن رسول الله — ﷺ — قال :

« لم يكذب إبراهيم عليه السلام قط إلا ثلاث كذبات : اثنتين في ذات الله : قوله إني سقيم ، وقوله بل فعله كبيرهم هذا ، وواحدة في شأن سارة ، فإنه قدم أرض جبار ومعه سارة وكانت أحسن الناس ، فقال لها : إن هذا الجبار إن يعلم أنك امرأتى يعلىنى عليك ، فإن سألك فأخبريه أنك أختى .

فإنك أختي في الإسلام ، فأني لا أعلم في الأرض مسلما غيري وعيرك ، فلما دخل أرضه رآها بعض أهل الجبار فأتاه فقال له :
لقد قدم أرضك امرأة لا ينبغي أن تكون إلا لك ، فأرسل إليها فأني بها .. .

ويستمر الحديث مطابقا لما جاء في التوراة .
وأرى أن بعض من أسلم من اليهود قد اختلق هذا الحديث وهو يحسب أنه يؤدي خدمة للإسلام ولرسول المسلمين ، فقد كان في الأرض في ذلك الوقت مسلمون كثيرون غير إبراهيم وسارة ، فقد جاء في القرآن : « وآمن له لوط » ، وكان إيمان لوط قبل الهجرة من أور ؛ وقد آمن إليعازر الدمشقي وخلق كثير ، فكيف يعقل أن يقول محمد — ﷺ — الذي نزل عليه القرآن وفيه أن لوطا آمن لإبراهيم أن يقول على لسان إبراهيم : « فأني لا أعلم في الأرض مسلما غيري وعيرك » ؟ ١٩

وكل ما جاء في القرآن عن إبراهيم ينفي إمكان وقوع مثل هذه السقطة التي يترفع عنها أناس لا هم رسل ولا هم أحياء الله ، كما أن الكذب صفة مدمومة لا يمكن نسبتها إلى الأنبياء . « واتخذ الله إبراهيم خليلا » ، « إن إبراهيم كان أمة فانتا لله حنيفا » ، « واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقا » ، « واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولى الأيدي والأبصار » ، « وإبراهيم الذي وفى » ، « لقد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه » .

كان إبراهيم أسوة حسنة وإنه لمن الكذب عليه أن تنسب إليه مثل هذه السقطة ، ومما يدل على كذبها أنها ذكرت مرة أخرى في التوراة بألفاظها عندما انتقل إبراهيم من سدوم إلى أرض الجيوب وسكن بين قادش وشور

وتقرب في جرار ، ، وقال إبراهيم عن سارة امرأته هي أختي ، فأرسل
 « أيمالك » ملك جرار وأخذ سارة ... » .

وذكرت أن سارة أخذت أسيرة إلى مصر في عهد الهكسوس وقد ذكر
 ذلك مؤرخو العرب ، فهم يرون أن الهكسوس هم العماليق خرجوا من عثامة
 بأرض الحجاز واستولوا على بلاد ما بين النهرين وأسسوا ملك بابل وأشور
 ونزلوا بيسورية ومنها هبطوا إلى دلتا النيل .

وإن علماء الآثار حديثاً يؤيدون هذا الرأي ، يقول الأستاذ البرايت :
 « إن مسألة الهكسوس لا تزال على عسرها ، لكنها آخذة في الكشف والإبانة
 من الحوادث التالية بعد البحوث التي تناولها وتلوك وستوك وكاتب هذه
 السطور ، فحسب نعلم اليوم أنها لا بد أن ترجع إلى الفترة بين سنتي ١٧٢٠ و
 ١٥٥٠ قبل الميلاد ، وأن قيادة الهكسوس في يد الساميين ولم تكن حورية أو
 هندية آرية كما كان بعض العلماء يقدرون إلى زمن قريب ... » .

فما دامت الكشوف الحديثة تؤيد أن الهكسوس عرب ، فلا جرم أن
 اعتمدنا على روايات مؤرخي العرب الذين قالوا إن سنان بن الأشل بن عبيد
 هو ملك مصر في عصر إبراهيم .

إني على يقين من أن ملك مصر في عهد يوسف من ملوك الهكسوس ، فقد
 كان المصريون يعتبرون ملوك الهكسوس حكاماً للبلاد الأجيية
 « حتاوخاسوت » ولم يظروا إليه أبداً على أنهم مراعين . وجاء يقيني من أن
 القرآن الكريم أكد هذه الحقيقة ، فعندما كان يتكلم عن موسى كـاب يذكر
 فرعون صراحة : « نلوك عليك من نأ موسى وفرعون بالحق » ، ولقد
 أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبـى إلى فرعون وهامان ، « وبأدى فرعون في

قومه قال : يا قوم أليس لى ملك مصر ؟ أما عندما كان يقص قصة يوسف فى مصر فلم يذكر فرعون أبدا ، كان يتحدث عن الملك ، عن الحكام الذى لم يكن أبدا من الفراعين : « وقال الملك لى أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف » ، « وقال الملك انبئنى به أستخلصه لنفسى » .

كان يوسف فى عهد الهكسوس ، الحكام الذين لم يكونوا من الفراعين . فإن كان يوسف فى ذلك العهد فمن المحتمل جدا أن يكون إبراهيم فى نفس ذلك العصر . وقد ذكر بعض شراح التوراة أن ملك إبراهيم وملك يوسف كان واحدا ولم آخذ بذلك الرأى ، بل أحدث برأى مؤرخى العرب الذين قالوا : إن ملك إبراهيم كان سنان بن الأشل بن عبيد ، وقوى ذلك الرأى عندى أنه وجد تمثال من عهد الهكسوس لملك أطلق على نفسه « سنجى » بمعنى العبد وهذا الاسم ترجمة لعبيد اسم جد سنان .

هذه هى جملة الاختلافات بين ما فى كتابى وبين ما فى التوراة أو الأحاديث النبوية المشكوك فى صحتها ، وحدث من الأمانة أن أضعها أمام القراء لياخذوا ما يشاءون .

وفقنا الله وإياكم إلى الصواب .

القاهرة فى ١٩٦٥/٣/٣

المراجع

- القرآن الكريم
الكتاب المقدس
صحيح البخارى
بلاد ما بين النهرين
من ألواح سومر
تأليف : ل . ديلاورنت
ترجمة : محرم كمال
تأليف : صمويل كريم
ترجمة : طه باقر
تأليف : الطبرى
تاريخ الأمم والملوك
تاريخ ابن خلدون
مصر القديمة
فجر الضمير
أبو الأنبياء
مصر والحياة المصرية في العصور القديمة
تأليف : أدولف أرمان وهرمان رامكه
ترجمة : الدكتور عبد المنعم أبو بكر
ومحرم كمال

دراسات في تاريخ الشرق القديم

تأليف : الدكتور أحمد فخري

تحليل الله في اليهودية والمسيحية والإسلام

تأليف : حبيب سعيد

تأليف : الدكتور ف . ب . ماير

حياة إبراهيم

ترجمة : القس مرقس داود

تأليف : تشارلس ماكتوش

شرح الكتاب

واحد اثنان ، ثلاثة .. لانهاية

تأليف : جورج جاموف

ترجمة : إسماعيل حقي

تأليف : ابن إسحاق الثعلبي

قصص الأنبياء

للمؤلف

- وكان مساء (قصة)
- أذرع وسيقان (قصة)
- المستنقع (قصة)
- ليلة عاصفة (مجموعة أقاصيص)
- الحصاد (رواية)
- جسر الشيطان (قصة)
- النصف الآخر (قصة)
- السهول البيض (رواية)
- أم العروسة (قصة)
- قلعة الأبطال (قصة)
- وعد الله وإسرائيل
- عمر بن عبد العزيز
- هذه حياتي
- الحفيد
- ذكريات سينائية
- كشك الموسيقى
- خفقات قلب
- صور وذكريات
- الإسرائء والمعراج
- القصة من خلال تجارلى الذاتية
- عدو البشر
- أبطال الجزيرة الخضراء
- الهمر
- الله أكبر

— ثلاثة رجال في حياتها
— مسجد الرسول
— فات الميعاد
— آدم إلى الأبد
— العرب في أوربا
— الدستور من القرآن العظيم

مَحَدُ رَسُولِ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ



في عشرين جزءا
للأستاذ عبد الحميد جوده السحار

- | | |
|-------------------|---------------------------|
| ١١ — الهجرة | ١ — إبراهيم أبو الأنبياء |
| ١٢ — غزوة بدر | ٢ — هاجر المصرية أم العرب |
| ١٣ — غزوة أحد | ٣ — بنو إسماعيل |
| ١٤ — غزوة الخندق | ٤ — العدنانيون |
| ١٥ — صلح الحديبية | ٥ — قريش |
| ١٦ — فتح مكة | ٦ — مولد الرسول |
| ١٧ — غزوة تبوك | ٧ — اليم |
| ١٨ — عام الوفود | ٨ — خديجة بنت خويلد |
| ١٩ — حجة الوداع | ٩ — دعوة إبراهيم |
| ٢٠ — وفاة الرسول | ١٠ — عام الحزن |

رقم الإيداع : ٤٠٣٢

التوقيع الدولي : ٥ — ٢٧٤ — ٣١٦ — ٩٧٧